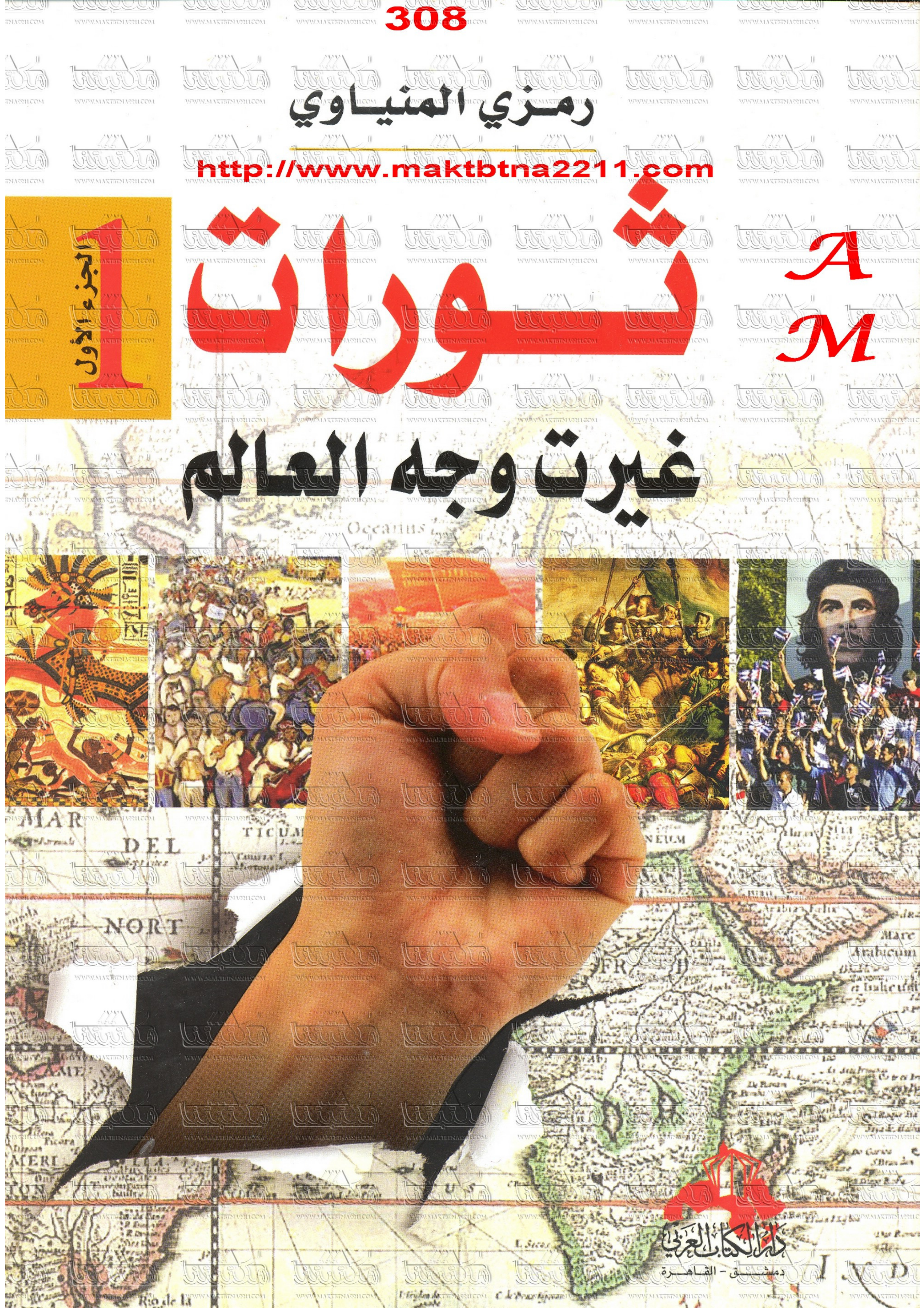


308
رمزي المنياوي
http://www.maktbtna2211.com
ثورات
غيرت وجه العالم
الجزء الأول 1
A
M
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



ثورات غيرت وجه العالم

الثورة كمصطلح سياسي هي الخروج عن الوضع الراهن سواء إلى وضع أفضل أو اسوأ من الوضع القائم.

وقد عرف العالم على امتداد تاريخه ثورات لا تعد ولا تحصى إلا أن هناك منها، ما حول مسار التاريخ ، فأعاد تشكيل مصائر دوله وشعوبه، ليغير وجه العالم، ويكون تاريخ هذه الثورات بمثابة علامة فارقة بين تاريخ ما قبلها وتاريخ ما بعدها.

وهذا الكتاب الذي يتكون من جزءين يتناول أشهر وأخطر وأهم الثورات، التي شهدها التاريخ ، وغيرت وجه العالم.

وفي هذا الجزء الأول سنتناول الثورات التي عرفها العالم دون الثورات العربية التي نفرد لها إن شاء الله الجزء الثاني بأكمله، لما تمثله من أهمية كبرى في إعادة تشكيل تاريخنا الحديث، بما فيها الثورات الأخيرة التي شهدتها بلدان عربية مثل تونس ومصر.. الخ.

وسنبدأ كتابنا بأولى ثورات التاريخ كثورة المصريين في مصر الفرعونية ضد الملك الظالم بيبى الثاني، وتبعتها ثورة المصريين ضد احتلال الهكسوس بقيادة أحمس الأول، ثم ثورة بلاد الرافدين ضد الظلم والقهر بزعامة السومري الإصلاحي أوروك أجينا، وثورة العبيد بزعامة العبد الشجاع الذي خلده التاريخ سبارتاكوس.

ثم ننتقل إلى الثورات الفرنسية، والأمريكية، والإسبانية، والإيطالية، والروسية، و الألمانية، والفيتنامية، والصينية، والتشيكية، والفنزويلية، والفلبينية، والكوبية، والأوكرانية، والجورجية، والإيـ وثورات أخرى غيرت وجه العالم .

هذا الكتاب الموسوعي ليس سوى محاولة جادة وهادفة لإعادة تفسير التاريخ، من خلال متابعة ثورات التاريخ في عمل واحد، يسهل من عملية الربط، ومعرفة أوجه الشبه، والظروف المشتركة، وكذلك الدروس المستفادة، لكي نفسر ما نراه وسنراه من ثورات هنا وهناك في عالمنا الفسيح.

W.Salama 010

I.S.B.N. 978-977-376-632-7
9789773766320

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



كتابنا القادم
دموع في
ليلة الزفاف
قماشة العليان
مجموعة قصصية



ثَـــورَاتٌ
غيَّرتْ وجْهَ العَالَمِ

الجزء الأول

◆

رمزى المنياوى

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشـــق - القـاهـرة

تقديم

الثورة - كمصطلَح سياسى - هى الخروج عن الوضع الراهن سواء إلى وضع أفضل أو أسوأ من الوضع القائم.

وللثورة تعريفات تتلخص بتعريفين ومفهومين، التعريف التقليدى القديم الذى وُضع مع انطلاق الشرارة الأولى للثورة الفرنسية، وهو قيام الشعب بقيادة نُخَب وطلائع من مثقفيه لتغيير نظام الحكم بالقوة.

وقد طور الماركسيون هذا المفهوم بتعريفهم للنخب والطلائع المثقفة بطبقة قيادات العمال التى أسموها «البروليتاريا».

أما التعريف أو الفهم المعاصر والأكثر حداثةً هو التغيير الذى يحدثه الشعب من خلال أدواته «كالقوات المسلحة»، أو من خلال شخصيات تاريخية لتحقيق طموحاته لتغيير نظام الحكم العاجز عن تلبية هذه الطموحات، ولتنفيذ برنامج من المنجزات الثورية غير الاعتيادية.

والمفهوم الدارج أو الشعبى للثورة هو الانتفاض ضد الحكم الظالم. وقد تكون الثورة شعبية مثل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وثورة أوكرانيا المعروفة بـ «الثورة البرتقالية» فى نوفمبر ٢٠٠٤، أو عسكرية وهى التى تسمى انقلابا مثل الانقلابات التى سادت أمريكا اللاتينية، فى حقبتى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، أو حركة مقاومة ضد مستعمر مثل الثورة الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) كما سنتابع - إن شاء الله - فى الجزء الثانى من هذا الكتاب «الثورات العربية».

أما الانقلاب العسكرى فهو قيام أحد العسكريين بالوثوب للسلطة من

خلال قلب نظام الحكم، بغية الاستئثار بالسلطة، والحصول على مكاسب شخصية من كرسى الحكم.

ومع ذلك، فإن أغلب الثورات تحدث من جُرَّاء استياء عام بين الشعب بسبب تراكم مشاكل خطيرة فالفقر والظلم والقسوة والفساد ووجود حكام غير مؤهَّلين - كلها عوامل تؤدى إلى الثورة.

ولكن فى أغلب الحالات لاتكون المشاكل الاجتماعية وحدها سببا كافيا لإحداث ثورة فالمشاكل الاجتماعية تدفع المرء إلى اليأس أكثر مما تجعله يعمل للحصول على حياة أفضل.

والثورة بحاجة إلى قادة أقوياء، يستغلون الأوضاع المتردية، ويعملون على توحيد الجماهير خلف برنامج يمنيهم بتحسين الأوضاع.

وتحدث الثورة عندما يفقد الحكام الثقة فى نفوسهم ويبدأون بالإذعان إلى مطالب غرمائهم، فالتنازلات التى يبديها الحكام وتحسن الأحوال الاجتماعية تؤدى إلى ثورة الآمال الطموحة خاصة بعد أن يلتمس الشعب أملاً فى تحقيق حياة أفضل. وعندما لا تُرضِ التغيرات تطلعات الجماهير وآمالها فتفقد هذه الجماهير الثقة فى حكامها وتلتف حول القادة الثوار.

وهذا الكتاب الذى يتكون من جزءين يتناول أشهر وأخطر وأهم الثورات، التى شهدها العالم عبر تاريخه.

وفى هذا الجزء الأول سنتناول الثورات التى عرفها العالم دون الثورات العربية، التى سنفرد لها - إن شاء الله - الجزء الثانى بأكمله، لما تمثله من أهمية كبرى فى إعادة تشكيل تاريخنا الحديث، بما فيها الثورات الأخيرة التى شهدتها بلدان عربية مثل تونس ومصر.. إلخ.

وسنبدأ كتابنا بأولى ثورات التاريخ وهى ثورة المصريين فى مصر الفرعونية ضد الملك الظالم بيبى الثانى، وثورة المصريين ضد احتلال

الهكسوس بقيادة أحمس الأول، وثورة بلاد الرافدين ضد الظلم والقهر بزعامة السومرى الإصلاحى أوروك أجينا ملك سومرى، وثورة العبيد بزعامة العبد الشجاع الذى خلده التاريخ سبارتاكوس.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الثورات الفرنسية، والأمريكية، والإسبانية، والإيطالية، والروسية، والألمانية، والفيتنامية، والصينية، والتشيكية، والفنزويلية، والفلبينية، والكوبية، والأوكرانية، والجورجية، والإيرانية، والتركية، وثورات أخرى غيرت وجه العالم.

هذا الكتاب الموسوعى ليس سوى محاولة جادة وهادفة لإعادة تفسير التاريخ، من خلال متابعة ثورات التاريخ فى عمل واحد، يُسهل من عملية الربط، ومعرفة أوجه الشبه، والظروف المشتركة، وكذلك الدروس المستفادة، لكى نفسر ما نراه وسنراه من ثورات هنا وهناك فى عالمنا الفسيح.

رمزى المنياوى

■ ■ ■

1

أول ثورة فى التاريخ..
والملك بيبى الثانى



هذه أول ثورة فى التاريخ، وكانت من حوالى ٤٥ قرنا فى أواخر الأسرة السادسة التى حكمت مصر الفرعونية.

اندلعت هذه الثورة ضد حكم نفر كارع بيبى الثانى الذى تولى العرش وكان عمره ست سنوات وتعتبر فترة حكمه أطول فترات الحكم فى مصر القديمة فحكم حوالى أربعة وتسعين عاماً وتوفى عن مائة عام.

وبدأت المأساة بضعف الملك بيبى الثانى لعجزه وطعونه فى السن وذهوله عما يجرى حوله وتسليمه بأكاذيب المنافقين من حوله، فاستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم واستبدوا بالأهالى، ففرضوا المكوس الجائرة، ونهبوا الأقوات، وأهملوا أى إصلاح للرى والأرض.

وانضم إليهم الكهنة حرصا على أوقافهم، يبيحون لهم بفتاواهم الكاذبة كل منكر، غير مبالين بأنات الفقراء وما يعانون من قهر وذل وجوع.

وكلما قصدهم مظلوم طالبوه بالطاعة والصبر، ووعدوه بحسن الجزاء فى العالم الآخر، وبلغ منا اليأس غايته، فلا حاكم يعدل، ولا قانون يسود، ولا رحمة تهبط، فانطلقت الدعوة بين الناس إلى العصيان، ومحاربة الظلم بالقوة، وسرعان ما استجابوا إلى النداء، فحطموا حاجز الخوف والتقاليد البالية، ووجهوا ضرباتهم القاتلة إلى الطغاة والظالمين، وسرت النار المقدسة إلى جميع البلاد، وانطلقت قذائف الغضب الأحمر على الحكام والموظفين ورجال الدين والمقابر.

والثورة المصرية التى تركت طابعها على ذاكرة الشعب كانت انطباعاً يمثل ثورة عارمة اختلت فيها الموازين وانقلبت الأدوار.

فقد نهب الفقراءُ الأغنياءَ، وأصبح السادة السابقون عبيداً لعبيدهم السابقين. وتخلى القوم عن خدمة الطقوس الجنائزية الفرعونية القديمة.

فالطقوس والفراعنة والأهرام والهياكل وكل ما عرفته المملكة القديمة من الأجهزة الفرعونية ثقيلة العبء، شوهت سمعته.

وقد وصف المؤرخ المصرى الكبير سليم حسن هذه الثورة بأنها قد حطمت وهدمت كل شىء.

أما هذه الصرخة فهى تحفة أدبية كتبها هذا المؤرخ وهو يصف حال مصر للملك العجوز بيبى الثانى.. يقول له:

«إن الناس قد جاعت وماتت من الجوع». ولأن الناس عاجزون عن دفن موتاهم فقد نشطت صناعة الدفن.. والعاجزون عن الدفن كانوا يلقون الجثث فى النيل حتى أصبحت التماسيح ضخمة بسبب هذه الجثث.

ولم يعد يُستورد خشب الأرز من لبنان لصناعة التوابيت.. وهجم الناس على قبور الملوك.. وهجموا على طعام الخنازير فلم يعد احد يجد طعاما.. وانقلبت الأوضاع فى المجتمع.. ولم يعد أحد يضحك.. وحتى الأمهات لم يعدن ينجبن.. والمرأة التى كانت ترتدى الكتان تمشى ممزقة.. والتى كانت تملك المرايا لم تعد ترى وجهها إلا على سطح الماء.. ولم يعد أحد يحترم الكبير ولا العالم ولا رجل الدين ولا أبويه..

وكان الناس يقولون: يا ليتنا متنا قبل هذا.. وكان الأطفال يقولون: ولماذا أتوا بنا.. واللصوص صاروا أغنياء.. ولم يعد أحد منهم فى حاجة إلى أن يتزوج.. ففى فراشه كثيرات من بنات العائلات الغنية من أجل الطعام والشراب والمأوى.

ولا أحد يخاف من رجال الأمن ولا النبلاء ولا الكهنة ولا الأسر المالكة.. كلها لم يعد لها وجود.. إنها تتوارى أو تهرب أو تلقى بنفسها فى النيل.

2

الثورة الفرعونية..
وأحمس الأول



بعد أن احتل الهكسوس بلادهم، قاد أحمس الأول أول وأقدم ثورة ضد محتل فى التاريخ. أحمس الأول بعدها كان أول من يحمل لقب «زعيم تحرر»، بصفته محرر مصر الفرعونية، وطارد الهكسوس إضافة لكونه مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ـ أعظم الأسر الحاكمة فى مصر. حكم من ١٥٥٠ ق.م. حتى ١٥٢٥ ق.م. وهذه قصة هذه الثورة التحريرية، وهذا الزعيم التحريرى الخالد.

فى البداية نقول إن الهكسوس هم قوم نزحوا إلى مصر قبل حوالى ١٧٨٩ سنة قبل الميلاد وقد حكموا مصر مابين ١٦٤٨ إلى ١٥٤٠ ق. م. أى أنهم حكموا مصر ١٠٨ سنوات. أتيحت الفرصة لهم بتأسيس مملكتهم بسبب كثرة عددهم والنزاعات والعداءات الداخلية فى مصر التى كانت تعصف بالبلاد ذلك الوقت، وكان خروجهم على يد الملك أحمس الأول.

الهكسوس عُرفوا فى الحضارة المصرية باسم (الملوك الرعاة) باللغة المصرية القديمة هكا سوس واليونانيون سموهم الهكسوس وعرفوا عند العرب باسم العماليق، وشكلوا حكام الأسرتين ١٥ و١٦.

وهم خليط من الشعوب الآسيوية «الأموريين والأراميين والأعراب» تذكر الموسوعة المصرية: «ولاشك أن الهكسوس لم يكونوا خليطا واحدا». وفى موسوعة لانجر: «كان الهكسوس جنسا خليطا».

وقد بحث الدكتور سليم حسن فى أمر الهكسوس والمستخلص من بحثه أنهم ليسوا من جنس واحد بل جماعات متنوعة ممن كان يقطن فى بلاد

الشام وبين النهرين.

والقول الأصح أن الهكسوس هم من أصل كنعانى من جنوب فلسطين.

الهكسوس يسمون أيضا عماليق، ولهذه التسمية أهمية كبرى لأنه الاسم الذى ذكر به الهكسوس فى التوراة، وكذلك فى جميع المراجع العربية والإسلامية.

ويذكر د. أحمد شلبى: «الهكسوس هم الرعاه العماليق».

ويقول د. لويس عوض: «وهؤلاء العماليق استطعنا تحديدهم بجحافل الهكسوس». ويذكر المؤرخ السورى عزه دروزه (والعمالقة يعنى الهكسوس).

وأصل اسم العماليق لفظ مركب من مقطعين (عم) ويعنى بدوى ويأتى فى صيغة الجمع عمو. وهذا الاسم (عمو) يطلق على البدو القاطنين فى بلاد الشام والعراق.

ويذكر د. جمال حمدان: «والثابت أن الهكسوس هم آل عمو كما أسماهم المصريون».

ويذكر د. سليم حسن: «إن المصريين كانوا يسمون الهكسوس عمو ليق».

مصطلح آرامى يرتبط بالجنود فى حضارات العراق القديمة حيث كان يتم تجنيد البدو للعمل كفرق من الجنود المرتزقة فى خدمة الدولة.

وعند قيام مملكه بابل الأولى كانوا يوزعون على أولئك الجنود المرتزقة مساحات من الأراضى كمكافأة لهم وتشجيعا لغيرهم.

وكان يطلق على هذا النوع من الأملاك فى اللغة الآرامية المصطلح «لاك». وبهذا كان يطلق على الجندى البدوى تمييزا له عن باقى البدو الاسم:

عم (أى بدوى) + لاك (جندى) = عملاق أى أن هذا المصطلح (عماليق) يشير باختصار إلى الجنود البدو.

ولهذا فلا علاقة لمصطلح عماليق بمعنى العظمة أو الإفراط فى

الطول. وغـزو الهكسـوس «العمـاليق» لمصـر لم يكن غـزوا عـسكريا بالمعنى المعروف، ولكنه كان غزوة جياع همجية بربرية، واجتاحوا البلد فى جحافل بشرية مهولة العدد (٢ ـ ٣) حسب ما ذكر الدكتور جمال حمدان مستغلين فترة الضعف والتفكك الذى كانت تعانيه مصر حينذاك.

ويصف المؤرخ المصرى القديم «مانيتون» هذه الفترة بقوله: «لقد نزلت بنا صاعقة من غضب الله فتجرأ قوم من أصل وضيع على غزو بلادنا وكان مجيئهم أمرا مفاجئا فأحرقوا المدن بوحشية، وساروا فى معاملة أهلها بكل قسوة.. إلخ».

ويذكر عالم الآثار الألمانى د. بروجش:

«لما نزل الرعاة الهكسوس بأرض مصر. سطت أيديهم على جميع ما بها، ودمروا البيوت، وأهلكوا الحرث، وأكثروا القتل، وأبادوا العباد، وفعلوا كل منكر قدروا عليه».

ويؤكد مانيتون ثانية: وقد كان هؤلاء الهكسوس يطمعون فى محو الشعب المصرى وقد كانوا كفارا مشركين.

ويذكر المؤرخون أن الهكسوس كانوا كفارا وفى أحط درجات البدائية والوحشية خطافين سفاحين هدامين.

المهم اتخذ الهكسوس عاصمة لهم فى شرق الدلتا أطلقوا عليها اسم أواريس (حوت وعرت) والتى يصعب تفسير اسمها ولكن من الممكن أن تكون تعنى حصن الناحية أو قصر الساق، وهذه التسمية ربما ترتبط بإحدى الأساطير القديمة حيث تروى الأسطورة أن «ست» قام بتمزيق جسد أخيه أوزوريس وقام بإلقائه فى النهر فاستقرت الساق فى هذه المنطقة.

ومن أشهر ملوك الهكسوس الملك أبوفيس الذى أرسل رسالة إلى الملك سقنن رع والد الملك أحمس الأول يطلب منه إسكات أفراس النهر الموجودة

فى طيبة لأنها تقلق منامه فى أواريس عاصمة الهكسوس (بمحافظة الشرقية الحالية، على بعد نحو ٦٠٠ كم)، وكانت الرسالة بداية الجولة الأخيرة لحروب الهكسوس فى مصر.

وحسب العلماء أن المصريين القدماء فى ذلك الوقت كانوا أصحاب البشرة السوداء بينما الهكسوس كانوا أصحاب البشرة البيضاء وأنهم يعودون إلى الساميين، وأن الهكسوس لم يقروا بدين المصريين. وحاولوا نشر دينهم الخاص فى مصر لكن لم يتمكنوا من ذلك.

كان غزو الهكسوس لمصر فى سنة ١٧٨٩ ق. م. ولمدة قرن، وظلوا حتى طردهم أحمس مؤسس المملكة الحديثة.

أحمس كان ابنا للملك تاو الثانى سقنن رع، وأخو الملك الشهيد كامس، آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة. فى سن العاشرة تولى أحمس (وُلِد القمر أى: هلال) الحكم بعد وفاة والده واستشهاد أخيه فى الحرب ضد الهكسوس. لدى توليه الحكم اتخذ الاسم الملكى نب ـ پهتى ـ رع (رع هو سيد القوة).

بقايا هرمه فى أبيدوس اكتشفت عام ١٨٩٩، وعُرف أنه هرمه عام ١٩٠٢م.

كان سقنن رع أول من بدأ بمهاجمة الهكسوس لمحاربتهم وخروجهم من مصر ويعتقد أنه قُتل فى إحدى معاركه مع الهكسوس ثم استكمل ولداه كامس وأحمس طرد الهكسوس خارج البلاد.

جرى أحمس بجيوشه عندما كان عمره حوالى ١٩ سنة واستخدم بعض الأسلحة الحديثة مثل العجلات الحربية وانضم إلى الجيش كثير من الشعب وذهب هو وجيوشه إلى أواريس (صان الحجر حاليا) عاصمة الهكسوس وهزمهم هناك ثم لاحقهم إلى فلسطين وحاصرهم فى حصن شاروهين وشتت شملهم هناك حتى استسلموا ولم يظهر الهكسوس بعدها فى التاريخ،

كانت هذه المعركة حوالى عام ١٥٨٠ ق. م.

قام أحمس بتطوير الجيش المصرى فكان أول من أدخل عليه العجلات الحربية «والتى كان يستخدمها الهكسوس وهى سبب تغلب الهكسوس على مصر»، وكان يجرها الخيول.

وطَوَّر كذلك من الأسلحة الحربية باستخدام النبال المزودة بقطعة حديد على الأسهم ثم بدأ بمحاربة الهكسوس بدءا من صعيد مصر.

والتف حوله الشعب فقام بتدريبهم بكفاءة حتى أصبحوا محاربين أقوياء ومهرة وظل يحارب الهكسوس من صعيد مصر حتى وصل إلى عاصمة مصر - آنذاك - التى أقامها الهكسوس بجوار مدينة الزقازيق الحالية وظل يحاربهم حتى فروا إلى شمال الدلتا وهو خلفهم فسيناء ثم إلى فلسطين ولم يرجع أحمس إلا أن اطمأن على حدود مصر الشرقية أنها آمنة منهم ومن هجماتهم بعد القضاء عليهم بعد طرد الهكسوس وصل أحمس بجيشه إلى بلاد فينيقيا، كما هاجم بلاد النوبة لاستردادها مرة أخرى إلى المملكة المصرية التى وصلت حدودها جنوبا إلى الشلال الثانى، وصورت حملات أحمس فى مقبرة اثنين من جنوده هما أحمس بن إبانا وأحمس بن نكيب.

وبعد انتهاء أحمس من حروبه لطرد الأعداء وتأمينه لحدود مصر وجه اهتمامه إلى الشئون الداخلية التى كانت متهدمة خلال فترة احتلال الهكسوس، فأصلح نظام الضرائب، وأعاد فتح الطرق التجارية، وأصلح القنوات المائية ونظام الرى.

كما قام بإعادة بناء المعابد التى تحطمت واتخذ من طيبة عاصمة له، وكان آمون هو المعبود الرسمى فى عصره.

واستمر حكم أحمس مدة ربع قرن وتوفى وعمره تقريبا ٣٥ عاما.

تزوج أحمس من شقيقته نفرتارى التى أصبحت أول زوجة للإله آمون

وأنجبت له ثلاثة أبناء أحدهم هو خليفته أمنحتب الأول وقد توفى الأول والثانى فى سن صغيرة، وأربع بنات هن مريت آمون وسات آمون وإعح حتب وست كامس.

بعد أن خلص البلاد من الاحتلال وجه عنايته نحو إصلاح ما أفسده الدهر من آثار إلهه العظيم آمون فأمر بصنع أوان جديدة لمعبده فى الكرنك معظمها من خالص النضار والفضة والأحجار الثمينة على يد أمهر الصناع. وفتح محاجر لقطع الأحجار اللازمة لبناء معبد بتاح بمنف ومعبد آمون بطيبة وتحت هذا النقش رسم ستة ثيران تجر زحافة عليها قطعة كبيرة من الحجر.

مات أحمس وهو فى ربيع حياته بين الأربعين والخمسين وتدل مومياؤه على ذلك إذ تُرى أنها لرجل قوى الجسم عظيم المنكبين عريضهما طوله نحو خمس أقدام وست بوصات، أسود الشعر مجعده.

■ ■ ■

3

أقدم ثورة للرافدين..

وأوروك أجينا



أوروك أجينا ملك سومرى فى الألف الثالث ق.م، يُعد أول حاكم مصلح فى الشرق القديم. حكم فى مدينة لجش أو لغش (وهى اليوم تل الهبا يقع على بعد ٢٨ كم شمال غرب البصرة فى العراق).

وقد عُثر فى التل المذكور على وثائق ملكية اقتصادية المحتوى تُعد من أهم المصادر التى تلقى أضواء على اقتصاد المدينة، الذى يؤدى المعبد السومرى دوراً رئيسيّاً فيه، فى النصف الأول من الألف الثالث ق. م.

ومن أهمها وثائق الملك المصلح أوروك أجينا مع أنها صعبة القراءة ومضمونها غير مفهوم. ويبدو أن هذا الحاكم كان ذا شخصية فذة وفريدة فى تاريخ الشرق القديم، فهو لم يكن الوارث الشرعى لسلفه لوجال ـ اندا، ولكنه وصل إلى الحكم بثورة شعبية مكنته من إزاحة الملك الشرعى فى السنة السابعة من حكمه، أى نحو سنة ٢٣٧٠ ق. م، وسمى نفسه ملكاً.

والمعنى الحرفى للكلمة السومرية «السيد العظيم»، بخلاف الحاكم الذى كان يسمى نفسه «أمير»، وتطلع إلى إزاحة ملك كيش نفسه.

ووثائق هذا الملك الثائر قليلة للأسف لا تعدو كونها كتابات تدشينية لمرافق عامة دونت على ثلاثة مخاريط طينية ولوح حجرى، وتحتوى هذه الكتابات على سلسلة من الأعمال قام بها الملك، مثل تشييد مرافق عامة وترميم قنوات رى الأراضى الزراعية.

ويعود تاريخ وثيقتين منها إلى السَّنة الأولى من حكمه، يتحدث فيهما عن الأسباب التى دعته إلى الإصلاحات، أهمها الأمر الإلهى الصادر عن

إله مدينته نينجرسو ويعنى الاسم «سيد جيرسو».

وكان أول ما قام به أوروك أجينا من أعمال أنه نزع ملكية أراضى المعبد وهى أملاك عامة، من البيت الملكى، ووضعها تحت تصرف إله المدينة، ولم يكتف بكف يد الإقطاعية الممثلة بالملك وحاشيته، بل عمد أيضاً إلى تجريد كهنة المعابد من الصلاحيات الواسعة التى كانوا يستغلونها باسم الآلهة لمصلحتهم، فكانوا يتقاضون أجوراً وضرائب عالية جداً، مما أدى إلى تفاقم الوضع الاقتصادى الصعب بين عامة الشعب.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، حين كانت المرأة تُطَلَّق من بعلها وتتزوج رجلاً آخر كانا لا يوثقان ذلك لدى كهنة المعبد بسبب ارتفاع الرسوم التى يتعين عليهما دفعها، فتبقى المرأة على ذمة رجلين فى آن واحد.

وتقول وثيقة النص الإصلاحى: كانت المرأة فى الأيام الماضية تتزوج رجلين، ولكن اليوم، أى فى عهده، إذا حاولت أن تفعل ذلك، فإنها ترجم بحجارة منقوش عليها نيتها الشريرة.

كما عمد الملك المصلح إلى وضع حد لممارسة البغاء بأى شكل كان، وتحت أى اسم حفاظاً على حرمة الأسرة وقدسيتها.

ومن خلال الاكتشافات الأثرية فى بلاد النهرين عثرت على ألواح تشير إلى قوانين ونظم سنها هذا الملك العظيم. من بين هذه ألواح كتبت عليها قوانين تحدد صلاحيات الكهنة مع بقية الناس. إنه حرم على الكهنة استعباد الناس.

وفى أحد المراسيم يقول فيه: «على الكاهن الأكبر ألا يدخل بعد اليوم حديقة لأرملة فيأخذ من خشبها أو يفرض عليها جعلا (ضريبة أو جزية) يتقاضاها من ثمرها». وبذلك يكون قد سن بداية القوانين الأولى فى بلاد الرافدين.

ويذكر المؤرخون أن الملك أوروك أجينا طهر المدينة من المرابين

والجشعين واللصوص والقتلة، ولم يعد بإمكان موظف كبير أن يتطاول على بستان امرأة فقيرة فيقطع الأشجار أو ينهب الثمار.

وترى فى ألواح الطين أن المصلح الحاكم أوروك أجينا عاهد آلهة لكش بأنه لن يسمح باستغلال الأرامل واليتامى من قِبَلِ ذوى المكانة والقوة.

وقد فرض قوانين اجتماعية جديدة تعتبر أقدم التشريعات فى تاريخ البشرية ومنها:

- ليس من حق المرأة أن تتزوج من رجلين دفعة واحدة.
- إبطال الضريبة التى كانت تفرض على الرجل عندما يطلق زوجته.
- أبطل فرض الرجم على السارق.
- حرم الاستيلاء على القوارب أو الاستيلاء على قطعان الماشية، وذلك بأمر من إله المدينة ننجرسو.

انشغل أوروك أجينا فى إصلاحاته الداخلية، ولم يأبه للأخطار الخارجية المحدقة ببلاده، وهو وإن استطاع فى بداية أمره أن يسدد ضربةً قاسية إلى جارته المشاغبة مملكة أومَّا ويزيح مليكها عن العرش، فإن الخليفة الجديد «لوغال زاغيزى» اهتم بالفتوحات الخارجية وتوسيع رقعة مملكته، فشن هجوماً عاتياً على لجش راح ضحيته الملك أوروك أجينا، بعد حكم إصلاحى قصير لم يتجاوز سبع سنوات.

■ ■ ■

4

ثورة العبيد..
وسبارتاكوس



عَرفت الإمبراطورية الرومانية الرقَّ الذى كان من أهم دعائم اقتصادها وقوتها، فقد كانوا يُجلبون بالآلاف ليباعوا فى أسواق أثينا كعبيد.

وكان العبد يعمل فى المزرعة، ولو كان متعلما أصبح معلما، أو أستاذا وربما طبيبا.

أما إذا كان قوى البنية، شرس الطباع فسيتم دفعه إلى حلبات المصارعة بعد تدريبه فقد كان مشهد عبدين متصارعين من المشاهد المحببة والمثيرة لسكان روما.

وكان سبارتاكوس الذى يعتقد معظم المؤرخين أنه سليل أسرة ملكية من هؤلاء العبيد المصارعين.

وفى عام ٧٣ قبل الميلاد استطاع بعض العبيد المصارعين بقيادة سبارتاكوس الفرار من معسكر تدريبهم فى (كابوا) وتحصنوا بالجبال ومنها أغاروا على قرى الجنوب لجلب المؤن والسلاح.

وبالتدريج انضم إلى زمرة الهاربين عبيد آخرون انشقوا على ساداتهم وشيئا فشيئا استطاع سبارتاكوس تكوين جيش من العبيد الفارين قوامه تسعون ألف رجل وكان من الطبيعى أن تحاول روما استعادة هؤلاء العبيد، فوجهت الجيوش لمحاربتهم ولكن جيش العبيد استطاع سحقها جميعا.

إلا أنه فى عام ٩١ قبل الميلاد استطاع قائد محنك اسمه ماركوس كراموس أن يلحق بجيش العبيد هزيمة شنعاء.

وكان لا بد من التنكيل بالعبيد الآبقين حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

وبالفعل قام ماركوس بصلب ٦٠٠٠ عبد بطول الطريق ما بين روما إلى كابوا.. وكان سبارتاكوس فى طليعة المصلوبين، سنتان فقط فى الحرية قضاها سبارتاكوس مقابل حياته وحياة الآلاف معه.

وكانت كلمات سبارتاكوس الأخيرة قائد ثورة العبيد فى روما هى:

مَن قال «لا» فى وَجْهِ مَن قال «نعمْ»؟!

مَن علَّم الإنسانَ تمزيقَ العدمْ؟!

وقال «لا» فلم يمتْ وظلَّ روحًا أبديةَ الألمْ

* * *

مُعَلَّقٌ أنا على مشانقِ الصَّباحْ

وجبهتى ـ بالموتِ ـ مَحنيَّهْ

لأننى لم أَحْنِها... حَيَّهْ!

* * *

يا إخوتى الذينَ يعبُرون فى الميدان مُطرِقينْ

مُنحدرين فى نهايةِ المساءْ

فى شارعِ الإسكندرِ الأكبرْ

لا تخجلوا... ولترْفعوا عيونَكم إلىّْ

لأنكم مُعلَّقونَ بجانبى... على مشانِق القيصَرْ

فلترفعوا عيونَكم إلىّْ

لربما... إذا التقتْ عيونُكم بالموتِ فى عَينَىَّ

يبتسمُ الفناءُ داخلى... لأنكمْ رفعتُم رأسَكمْ... مرَّهْ

سيزيفُ لم تعدْ على أكتافهِ الصَّخرهْ
يحملُها الذين يُولدونَ فى مخادعِ الرقيقْ
والبحرُ ـ كالصَّحراءِ ـ لا يروى العطَشْ
لأنَّ مَن يقولُ «لا» لا يرتوى إلاَّ مَن الدُّموعْ
... فلترفعوا عيونَكم للثائرِ المشنوقْ
فسوف تنتهونَ مثلَه... غداً
وقبِّلوا زوجاتِكم ـ هنا ـ على قارعةِ الطريقْ
فسوف تنتهون هاهنا... غداً
فالانحناءُ مُرٌّ
والعنكبوتُ فوق أعناقِ الرِّجالِ ينسجُ الرَّدَى
فقبِّلوا زوجاتِكم... إنِّى تركتُ زوجتى بلا وداعْ
وإن رأيتم طفلىَ الذى تركتُه على ذراعِها بلا ذراعْ
فعلِّموهُ الانحناءْ.. علِّموهُ الانحناءْ

* * *

اللهُ... لم يغفرْ خطيئةَ الشيطانِ حين قال «لا»
والودعاءُ الطيبونْ
هم الذين يَرِثونَ الأرضَ فى نهايةِ المدَى
لأنهم... لا يُشنَقونْ
فعلِّموهُ الانحناءْ

* * *

وليس ثَمَّ من مَفَرّ

لا تحلُموا بعالَمٍ سعيدْ

فخلْفَ كلِّ قيصرٍ يموتُ: قيصرٌ جديدْ

وخلْفَ كلِّ ثائرٍ يموتُ: أحزانٌ بلا جدوى

ودمعةٌ سُدَى

* * *

يا قيصرُ العظيم: قد أخطأتُ... إنى أعترِفْ

دعنى ـ على مِشنقتى ـ أَلْثُمُ يَدَكْ

ها أنا ذا أقبِّل الحبلَ الذى فى عُنقى يلتفُّ

فهو يداكَ، وهو مجدُك الذى يجبِرُنا أن نعبُدَكْ

دعنى أُكَفِّرْ عنْ خطيئتى

أمنحكَ ـ بعد ميتتى ـ جُمْجُمَتى

تصوغُ منها لكَ كأسًا لشرابِك القوىِّ

... فإن فعلتَ ما أريدْ

إنْ يسألوكَ مرةً عن دَمِىَ الشهيدْ

وهل تُرَى منحتَنى «الوجودَ» كى تسلُبَنى «الوجودْ»

فقلْ لهم: قد ماتَ... غيرَ حاقدٍ علىَّ

وهذه الكأسُ ـ التى كانتْ عظامُها جمجمتَه ـ

وثيقةُ الغُفرانِ لى

يا قاتلى: إنى صفحتُ عنكْ

فى اللَّحظةِ التى استرحتَ بعدَها منِّى

استرحتُ منكْ

لكننى... أوصيكَ ـ إنْ تشأْ شنقَ الجميع ـ

أن ترحمَ الشجرْ

لا تقطعِ الجُذوعَ كى تنصبَها مشانق

لا تقطعِ الجُذوعْ

فربما يأتى الرَّبيعُ

«والعامُ عامُ جوعْ»

فلن تشمَّ فى الفرُوعِ... نكهةَ الثَّمرْ

وربما يمرُّ فى بلادِنا الصَّيفُ الخَطِرْ

فتقطع الصحراء... باحثًا عن الظِّلالْ

فلا ترى سوى الهجيرِ والرِّمالِ والهجيرِ والرمالْ

والظمأِ النارىِّ فى الضُّلوع

يا سيدَ الشواهدِ البيضاء فى الدُّجى

* * *

يا إخوتى الذينَ يَعْبُرونَ فى الميدان فى انحناءْ

منحدرينَ فى نهايةِ المساءْ

لا تحلُموا بعالَمٍ سَعيدْ

فخلْفَ كلِّ قيصرٍ يموتُ: قيصرٌ جديدْ

وإن رأيتمْ فى الطَّريق (هانيبالْ)

فأخبروه أننى انتظرتُه مَدًى على أبوابِ روما المُجهدهْ
وانتظرتْ شيوخُ روما ـ تحت قوسِ النَّصر ـ قاهرَ الأبطالْ
ونسوةُ الرومان بين الزِّينةِ المُعربدهْ
ظَلَلْنَ ينتظِرْنَ مَقْدَمَ الجنودْ
ذوى الرؤوسِ الأطلسية المجعَّدهْ
لكن هانيبال ما جاءتْ جنودُه المجنَّدهْ
فأخبروه أننى انتظرتُهُ... انتظرتُهُ
لكنهُ لم يأتِ
وأننى انتظرتُهُ... حتى انتهيتُ فى حبالِ الموتِ
وفى المدى: قرطاجةُ بالنار تَحترقْ
قرطاجةُ كانتْ ضميرَ الشمسِ: قد تعلَّمتْ معنى الرُّكوع
والعنكبوتُ فوق أعناقِ الرجال
والكلماتُ تَختنقْ
يا إخوتى: قرطاجةُ العذراءُ تحترقْ
فقبِّلوا زوجاتِكم
إنى تركتُ زوجتى بلا وَداعْ
وإن رأيتم طفلى الذى تركتُه على ذراعها... بلا ذراعْ
فعلِّموهُ الانحناءْ.. علِّموهُ الانحناءْ.. علِّموهُ الانحناءْ!!!

■ ■ ■

5

الثورة الإنجليزية..
وأوليفر كرومويل



عاشت إنجلترا منذ العقد الرابع من القرن ١٧م ثورة دينية وسياسية تمثلت فى الصراع بين النظام الملكى المطلق والنظام البرلمانى. فما أسباب هذه الثورة ؟ وما هى نتائجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟

كانت هناك أسباب اقتصادية واجتماعية قد أدت إلى قيام الثورة الإنجليزية. فقد أدت «سياسة التسييج» التى عرفتها إنجلترا إلى انتفاض الفلاحين ضد هذه السياسة وذلك عام ١٦٠٧ وقد أدى ذلك إلى تهديدهم بالطرد من الإقطاعات الفلاحية. فى حين كان النبلاء منهمكين فى الاستيلاء على السلطة وقد شكل فرض الكالفنيين لضريبة الاستهلاك منطلقا لحركات التمرد ١٦٤٦ إضافة إلى ذلك ساهم ارتفاع الأسعار بإنجلترا فى قيام الثورة مما أدى إلى فرض الهجرة باتجاه أمريكا الشمالية.

واندلعت الثورة الإنجليزية لأسباب سياسية ودينية:

أ ـ الأسباب السياسية:

طرح الملك جاك الأول لأفكار سياسية تدعو إلى الملكية المطلقة وفرض على البرلمان آراء حول الحق الإلهى والوراثى فى الحكم وعدم اعتبار الملك مسؤولا إلا أمام الله وليس أمام رعاياه، كما أن الملك لا يمكنه أن يخضع للقانون لكونه هو القانون.

كما ساهم فى اندلاع الثورة الإنجليزية قصر الحكم لدى ملوك أسرة ستيوارت خلال القرن ١٧ والقرن ١٨ (من جاك الأول إلى جورج الأول).

ب ـ الأسباب الدينية:

ـ **فى عهد الملك جاك الأول:** دخلت إنجلترا مرحلة اضطراب عند إعلان جاك

لملكيته على إنجلترا ونظرا لتربيته الكالفينية بدأ يطهر الكنيسة الأنجليكانية من الكاثوليك والبيوريتان حيث قام بطرد ٣٠٠ رجل دين بيوريتانى.

ـ **فى عهد الملك شارل الأول:** كان للملك شارل الأول دور مهم فى إشعال الثورة.فقد كان ميالا إلى الاستبداد وحاول اكتساب التأييد الشعبى عن طريق إعلان الحرب على إسبانيا إلا أن هزيمته جعلته يفرض قروضا على التجار مما دفع بالبرلمان إلى التدخل وإصدار وثيقة سميت بملتمس الحقوق. إلا أن العلاقات بين البرلمان والملك تأزمت فأصدر شارل مرسوما يقضى بحل البرلمان وحكم البلاد مابين ١٦٢٩ و١٦٤٠ دون أن ينازعه أحد فى السلطة.

مراحل الثورة الإنجليزية:

المرحلة الأولى من الثورة الإنجليزية وأحداثها (١٦٤٢ ـ ١٦٤٩): أدت كل من التمردات فى أيرلندا وإسكتلندا والصراع بين الفرسان والجنترى إلى:

- حل البرلمان من طرف شارل الأول.
- حرب أهلية بين البرلمان والجنترى.
- انتصار أصحاب الرؤوس المستديرة.
- جمهورية كرومويل.
- إعدام الملك شارل فى ٣٠ يناير ١٦٤٩م.

فقد أدى تفاقم الأوضاع بين البرلمان والملك شارل إلى هبوب رياح عاصفية من سماء إنجلترا. فبادر الملك سنة ١٦٤٢ إلى القيام بمحاولة اعتقال زعيم المعارضة إلا أنه فشل فى ذلك مما أدى به إلى الهروب إلى لندن وهكذا انقسم الثوار إلى قسمين متنافرين أحدهما انحاز إلى البرلمان الطبقة الوسطى والبرجوازية والقسم الآخر انضم إلى الملك ومعظم

الارستقراطيين الزراعيين والكاثوليك والإنجليكانيين.

أحداث المرحلة الثانية «الثورة المجيدة»: ١٦٥٩ ـ ١٦٨٩: نتج عن تحركات أنصار الملكية للعودة إلى السلطة وديكتاتورية جمهورية كرومويل الذى تزعم المعارضة البيوريتانية ضد الملك شارل الأول:

ـ حل البرلمان من طرف كرومويل، عودة الملكية المطلقة مع شارل الثانى وجاك الثانى، الصراع بين حزبى الويك والتروى، استدعاء غيوم الثالث ومارى الثانية لتولية الملك، ثم المصادقة على المطالبة بالحقوق فى فبراير ١٦٨٩ التى تضمنت عدة مطالب منها: انتخاب أعضاء البرلمان ـ يجب أن يظل حرا، انتخابات التعبير داخل البرلمان يجب ألا تعاق.

نتائج الثورة الإنجليزية:

النتائج السياسية للثورة الإنجليزية: نتج عن الثورة الإنجليزية سياسيا أن بدأت الملكية الدستورية تتطور تحت حكم غيوم وحكم آن نحو نظام يمارس فيه البرلمان سلطة حقيقية، بوزراء مسؤولين أمام البرلمان.

يتم اختيارهم من حزب «الويغ»، وهو حزب مؤيد للنظام البرلمانى وحزب التروى وهو مساند للنظام الملكى فى حين كانت الملكية مزدهرة فى فرنسا فى عهد لويس ١٤.

النتائج الاقتصادية والاجتماعية للثورة الإنجليزية:

ظهرت نتائج الثورة اقتصاديا واجتماعيا فى توسيع آفاق البورجوازية:

■ **فلاحيا:** تجفيف المستنقعات وتسييج الحقول الزراعية كما عملت على ممارسة زراعات حديثة وتحديث تربية الماشية.

■ **صناعيا:** تطوير صناعة استخراج المعادن وصناعة التعدين وصناعة القطن كما اهتمت بصناعة النسيج.

■ **تجاريا:** هيمنة الأسطول البحرى على التجارة العالمية مما أدى إلى ظهور بوادر النظام البنكى الحديث.

كما أدى ذلك إلى تقوية موقع البورجوازية الإنجليزية على كافة الأصعدة وتعزيز الوجود الاستعمارى الإنجليزى فى العالم.

وهكذا مرت الثورة الإنجليزية بعدة مراحل أهمها الثورة المجيدة حيث ساهمت هذه التحولات السياسية بإنجلترا خلال القرن ١٧ إلى اندلاع ثورات اجتماعية وسياسية بأوروبا.

وسوف نتوقف هنا عند شخصية أوليفر كرومويل باعتباره شخصية محورية فى أحداث الثورة الإنجليزية وما تمخض عنها.

أوليڤر كرومويل (٢٥ أبريل ١٥٩٩ ـ ٣ سبتمبر ١٦٥٨)، هو قائد عسكرى وسياسى إنجليزى، اعتبره نقاده أحد القادة الديكتاتوريين، يُعرف بأنه جعل إنجلترا جمهورية وقاد كومنولث إنجلترا.

ولد أوليفر كرومويل لأحد صغار أصحاب الأراضى فى ٢٥ أبريل ١٥٩٩، فى بلدة هانتنكدون ثم تلقى تعليمه فى مدرسة البلدة المجانية، ثم فى جامعة كامبرديج، وفى عام ١٦٢٨ انتخب عضوا فى البرلمان عن دائرة كامبريدج، كما اشترك فى البرلمان الذى أصدر عريضة الحقوق فى عام ١٦٢٩م.

وليس فى تسلسل الملكية البريطانية سوى انقطاع واحد، هى تلك الفترة التى توفى فيها الملك فطغت العواطف وبرز رجل أخضع الأمة لإرادته كان هذا الرجل هو أوليڤر كرومويل.

حياته السياسية بدأت عندما كانت تلوح فى الأفق بوادر أزمة سياسية طاحنة منذ عهد إليزابيث الأولى عندما قامت جماعة من أعضاء البرلمان أطلق عليهم البيوريتان بمهاجمة حكومة الملكة. وقد كان هجومهم على الحكومة من اتجاهين:

الأول عن طريق معارضة الكنيسة المعتمدة بهدف القضاء على الأساقفة وعلى الاحتفالات البابوية.

والثانى عن طريق تحديد سلطات الملكة وتوسيع سلطات البرلمان. وقد كانت اليزابيث تتسم بالحكمة والتسامح، فأمكنها السيطرة على الأمور مؤقتا، ولكن الأمور ساءت إلى أقصى حد فى عهد خلفائها جيمس الأول وشارل الأول.

وكان أبرز ما حدث فى عهد شارل الأول وهو ظهور أوليفر كرومويل على مسرح السياسة العامة وكان ذلك فى حوالى عام ١٦٢٨، وقد كتب كرومويل عن ذلك يقول:

«الرجال اُقتيدوا فى دروب مظلمة، بالعناية والتدبير الإلهيين. لماذا، بالتأكيد لا ليخضعوا لإنسان ما، إذ من منا يستطيع أن يُحِب أن يمشى فى الظلام» إلا أن العناية (الإلهية) كثيراً ما تجعل ذلك قَدَرَنا.

وباكتشاف هذه الرسالة الإلهية فى نفسه، علاوة على ما تميز به كرومويل من كفاءة فى التنظيم والمهارة فى القتال، وجد الملك شارل الأول نفسه أمام زعيم مهول.

لكن الملك زاد من اشتعال النفوس، بأن حاول القبض على خمسة من زعماء مجلس العموم ولم يكن كرومويل من بينهم، ولكن هؤلاء الخمسة تمكنوا من الفرار. وعند ذلك طالبه المجلس بأن ينزل عن سلطاته للجيش، ولكن شارل الأول رفض، وأخذ يستعد للقتال. وفى ٢٢ أغسطس ١٦٤٢ رفع علمه الملكى فى نوتنجهام وسرعان ما وجد كرومويل نفسه فى خضم المعارك فاشترك مع رجاله فى المعركة فى عام ١٦٤٢م.

ومع أن قوات الملك كان يقودها رجل جرىء هو الأمير روبرت إلا أن الرجال الذين كانت تتكون منهم قوات الثوار والذى وفد معظمهم من

إيست إنجليا، وهم من الرجال الشديدى الإيمان بالدين، ويشيدون بالولاء لكرومويل، كان لهم أثر حاسم فى المعارك القادمة.

وفى أوائل عام ١٦٤٤ اتفق الانجليز مع الإسكتلنديين وتكونت من بين المملكتين لجنة لإدارة دفة الحرب الأهلية. وكان يقود القوات الإنجليزية والإسكتلندية فى حربها ضد قوات الملك شارل إيرل مانشتر وكان كرومويل نائبا له.

وفى يوليو ١٦٤٤ تحركت القوات شمالا وقد أحاطت بالأمير روبيرت هزيمة ساحقة فى مارستون مور، وكان العامل الأساسى فيها هو مهارة أوليفر كرومويل، فى المناورة بفرسانه.

وعقب ذلك الانتصار اقترح أعضاء البرلمان تنظيما جديدا للجيش، فعين اللورد فيرفانكس قائدا للجيش الجديد وكرومويل نائبا له. وفى يوليو ١٦٤٥ تمكن هذا الجيش من دحر قوات الملك فى أهم معارك هذه الحرب الأهلية، وهى معركة ناسبيى، ومرة ثانية كان الانتصار بفضل كرومويل، وتوالت الهزائم بعد ذلك على الملك الى أن اضطر تسليم نفسه للإسكتلنديين الذين سلموه بدورهم للبرلمانيين.

بعد أسر الملك أخذت المنازعات تدب بين المنتصرين من الأحزاب البرلمانية وفى نفس الوقت كان الإسكتلنديون قد أخذوا يشككون فى رجال كرومويل فساعدوا الملك على الهرب من الأسر، ونجح فى ذلك فى نوفمبر ١٦٤٧، فكان هذا بداية للحرب الأهلية الثانية التى تجلت فيها عبقرية أوليفر كرومويل فى القيادة، فقد بادر بالزحف على ويلز وقمع الثورة التى قامت بها، ثم تتابع زحفه شمالا وهزم الإسكتلنديين والملكيين الإنجليز هزيمة ساحقة. وهنا أيقن كرومويل أن الملك أصبح شخصا يجب التخلص منه وفعلا تم القبض على الملك، وبعد محاكمة تمكن خلالها كرومويل من الحصول على الموافقة من العدد الكافى من أعضاء البرلمان بالحكم بإعدام

الملك شارل الأول فى يناير ١٦٤٩م.

وفى نفس العام قاد كرومويل حملة تأديبية على ايرلندا وقمع ثورتها فى قسوة وحشية لم يسبق لها مثيل، حيث مثل بحاميات الملكية فى درزجدا وويكسفورد.

وفى ذلك الوقت ارتقى ابن شارل الأول العرش، فأخذ كرومويل يستعد للزحف على اسكتلندا. ولكن لورد فيرفانكس الذى لم يوافق مطلقا على إعدام الملك، رفض القيام بهذه العملية، وكانت النتيجة أنه تنحى عن قيادة الجيش وتولى كرومويل القيادة العامة، وأصبح بالتالى أقوى رجل فى البلاد وفى سبتمبر ١٦٥٠ تمكن من تشتيت الاسكتلنديين وبعد ذلك بعام نصب لهم كرومويل فخا وانتصر عليهم فى سبتمبر ١٦٥١م.

وسرعان ما أصبح كرومويل اللورد الحامى على إنجلترا، وكانت أهم مشكلاته هى حكم أمة أصبح أهلوها سريعى الفزع من الحكم العسكرى، وغدا أغلبهم يعارضون استقلال الجيش بالسلطة.

وقد كانت الحرب مع هولندا التى نشبت فى عام ١٦٥٢ قد ألهته فى مبدأ الأمر عن التفكير فى المسائل التنفيذية ولكن ما إن تمت ولايته على البلاد حتى عقد الصلح مع هولندا وسرعان ما شعر بالحاجة إلى المال، مثله فى ذلك مثل الملك شارل الأول للحصول على مال لابد من وجود برلمان ولكن البرلمان الذى استدعاه كرومويل فى ١٦٥٤ كان جل اهتمامه منصبا على نقد سياسة كرومويل فألغاه فى يناير عام ١٦٥٥، وقام بتجربة جديدة هى تقسيم البلاد بين ١١ من جنرالات الجيش، بيد أن الحرب مع إسبانيا استدعت عقد البرلمان لتدبير المال اللازم.

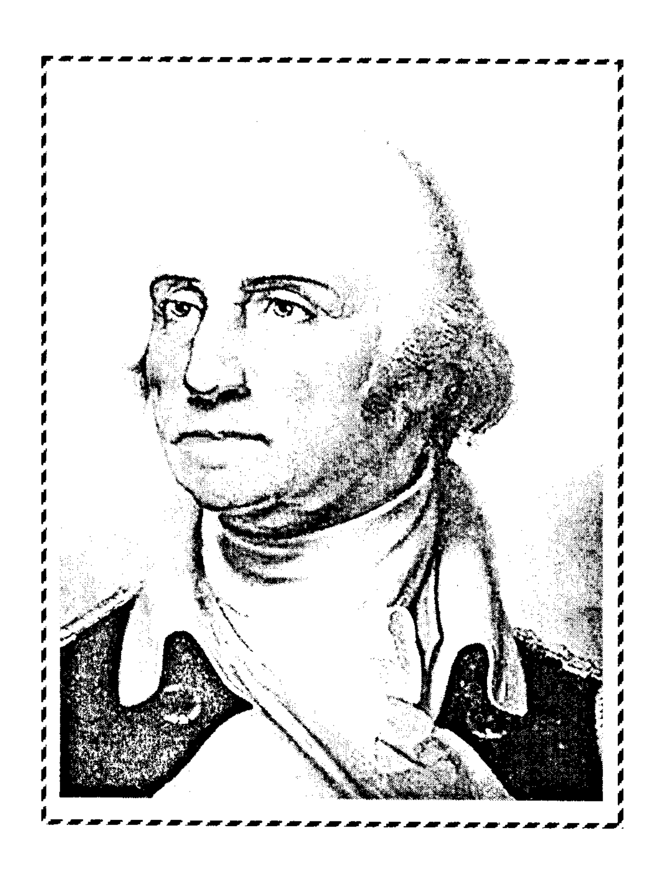
وقد تمكن كرومويل من استبعاد مائة من الأعضاء المعارضين قبل عقد البرلمان، وكانت النتيجة أن البرلمان عند انعقاده عرض على كرومويل التاج.

وفى أوائل عام ١٦٥٧ أطاح بحكم الجنرالات، واخذ يفكر جديا فى قبول التاج ولكن فى شهر مايو وتحت ضغط زعماء الجيش اضطر لغض النظر عن ذلك، وقام بوضع دستور جديد كان من بين نصوصه السماح لكرومويل بتعيين خليفته، واختيار أعضاء المجلس، ومنحه لقب صاحب الرفعة، وإذا لم يكن كرومويل قد نودى به ملكا، فما لا شك فيه أنه كان ملكا غير متوج، وظل ذلك الى أن توفى عام ١٦٥٨ وقد بلغ من العمر ٥٩ عاما.

■ ■ ■

6

الثورة الأمريكية..
وجورج واشنطن



الثورة الأمريكية تشير إلى الأحداث التى وقعت فى أواخر القرن الثامن عشر والتى قامت ضد بريطانيا، وأدت إلى استقلال دولة الولايات المتحدة عن الإمبراطورية البريطانية.

الثورة الأمريكية (١٧٧٥ ـ ١٧٨٣) هى الثورة التى قامت ضد بريطانيا، وأدت إلى ميلاد دولة جديدة باسم الولايات المتحدة. كانت الثورة أو الحرب الثورية قد اندلعت بين بريطانيا والولايات الثلاث عشرة الممتدة على الساحل الأطلسى فى أمريكا الشمالية.

بدأت الحرب فى ١٩ أبريل ١٧٧٥ عندما اصطدم البريطانيون بالثوار الأمريكيين فى مدينتى لعفوانجتون وكونكورد فى ماساشوسيتس، واستمرت ثمانى سنوات وانتهت فى ٣ سبتمبر ١٧٨٣م، عند توقيع معاهدة باريس بين بريطانيا والولايات المتحدة التى اعترفت فيها بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة.

وبالنسبة لأسباب الحرب وخلفياتها، فقد كان النفوذ البريطانى فى أمريكا الشمالية فى أَوُجِّه قبل الثورة الأمريكية بسنوات قليلة.

فقد تغلبت بريطانيا فى حربها مع الفرنسيين والهنود، وكانت المعاهدة التى أنهت الحرب قد ضمنت لبريطانيا معظم الأراضى التى كانت بيد الفرنسيين فى أمريكا الشمالية التى كانت تمتد من جبال الأبلاش فى الشرق إلى نهر المسيسيبى، ومن ضمنها رقعة واسعة فى كندا.

كان معظم أهل المستعمرات الأمريكيين يفخرون بانتمائهم إلى الإمبراطورية البريطانية، فى وقت كانت تُعتبر فيه أقوى الإمبراطوريات فى العالم.

كان من حق المستعمرات أن تنتخب ممثليها لجمعية تشريعية تقوم بسن القوانين وفرض الضرائب، ولكن حاكم المستعمرة كان له حق نقض أى من تلك القوانين.

وكانت بريطانيا تأمل من المستعمرات الأمريكية أن تخدم مصالحها الاقتصادية وقد رضيت المستعمرات بذلك بصورة عامة. والمثال على ذلك أنها امتنعت عن صنع المواد والسلع المنافسة لمثيلاتها البريطانية.

وبدأت بريطانيا بتغيير سياستها بعد الحرب الفرنسية والهندية، وذلك بتشديد قبضتها على مستعمراتها الشاسعة فى أمريكا، فصوت برلمانها على وجود جيش مرابط فى أمريكا الشمالية.

وصدر قانون يلزم المستعمرات بأن تؤمن لذلك الجيش الثكنات والتجهيزات كما صدر قرار بتخصيص أراضٍ واقعة غرب جبال الأبلاش لإسكان الهنود، ومنع البيض من إنشاء مستوطَنات لهم فى تلك الأراضى، وتعيين الحراس لإبعاد المستوطنين عنها.

لقد اغتاظ المستوطنون من هذا القرار قائلين بأنه لا يحق لبريطانيا أن تمنعهم من الاستيطان، كما أن الكثيرين منهم كانوا يطمعون فى تحقيق أرباح لهم فى شراء الأراضى فى الغرب.

ويجدر هنا القول بأنه كان من النتائج الهامة التى ترتبت على حركة الكشوف الجغرافية، تدفُّق الهجرة من أوروبا إلى الأراضى المكتشفة، وقام المهاجرون الإنجليز بتأسيس المستعمرات على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية.

وقد تأسست أول مستعمرة إنجليزية فى عام ١٦٠٧ فى جيمس تاون بولاية فرجينيا، ولم تكن تتألف فى البداية إلا من حصن وكنيسة و مخزن وصف من الألواح الخشبية.

وتوالى منذ ذلك التاريخ وصول المهاجرين الإنجليز بشكل أساسى والمهاجرين

الأوربيين بشكل عام. وقد تضافرت عدة عوامل فى دفع حركة الهجرة وتنميتها، مثل الضيق الاقتصادى والاستبداد السياسى والاضطهاد الدينى.

كما شجع القضاة والقائمون على شؤون السجن المذنبين على الهجرة إلى أمريكا، بدلا من قضاء مدة العقوبة فى السجن. وأنشأت طائفة البيوريتان (التطهريون) مستوطنة بليموث التى أصبحت مساتشوسيتس فيما بعد.

وهكذا نشأ فى المستعمرات مجتمع جديد يرتبط بالولاء للوطن الأم إنجلترا، ولكنه يتمتع فى الوقت نفسه بحرية سياسية لا مثيل لها فى أى مكان فى الأرض فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. حيث إن سكان هذه المستعمرات كانوا يحملون معهم أفكار البريطانيين الأحرار، كما كانت لهم مجالسهم النيابية المنتخبة، التى تضع القوانين وتفرض الضرائب وتحدد الاعتمادات المالية وتسيطر على الخزانة.

ورغم تنوُّع الأصول التى انحدرت منها شعب المستعمرات الأمريكية، إلا أن اللغة والثقافة والنظم الإنجليزية ظلت هى السائدة، ذلك أن المهاجرين الجدد كانوا يختلطون بالوافدين الإنجليز الأوائل، ويتخذون لغتهم ويعتنقون وجهات نظرهم، ونتج عن هذا الاندماج ظهور شعب جديد هو الشعب الأمريكى، الذى أخذ يتميز بالتدريج عن الشعوب الأوربية التى ينتمى إليها.

وبحلول عام ١٧٣٣ تمكن المهاجرون الإنجليز من تأسيس ثلاث عشرة مستعمرة على ساحل المحيط الأطلسى، من نيوهامشير فى الشمال إلى جورجيا فى الجنوب. أما فى مناطق أمريكا الشمالية الأخرى، فقد سيطر الفرنسيون على كندا ولويزيانا، التى ضمت منابع نهر الميسيسيبى الهائلة.

وخاضت فرنسا وإنجلترا حروباً عديدة ضد بعضهما البعض خلال القرن الثامن عشر، ومع نهاية حرب الأعوام السبعة بينهما، كانت إنجلترا تسيطر على كندا وجميع مناطق أمريكا الشمالية الواقعة شرق نهر الميسيسيبى. وبعد ذلك بفترة قصيرة دخلت إنجلترا مع مستعمراتها فى صراع.

ويرجع أول أسباب هذا الصراع إلى السياسة الإنجليزية فى حكم المستعمرات، فقد كان لكل مستعمرة حاكم إنجليزى ينوب عن ملك إنجلترا، وكثيراً ما كان النزاع ينشُب بين الحكام الذين يمثلون المصالح الإنجليزية، وبين المجالس النيابية المنتخبة التى تمثل مصالح الشعب فى المستعمرات.

وقد أدى تكرار التصادم بين حكام المستعمرات وبين المجالس، إلى إيقاظ إحساس المستعمرات بما هنالك من تباعد بين المصالح الأمريكية والإنجليزية.

على أن أهم أسباب التذمُّر فى المستعمرات الأمريكية كان يرجع إلى السياسة الاقتصادية التى اتبعتها إنجلترا هناك، فقد حتّم قانون الملاحة (التجارة) الذى صدر سنة ١٦٥١، نقل كافة الصادرات من المستعمرات إلى إنجلترا على سفن يملكها إنجليز، ويتولى تشغيلها إنجليز.

كما حتّمت التشريعات التى تلت ذلك القانون أن يُعاد شحن صادرات المستعمرات إلى القارة الأوربية فى الموانئ الإنجليزية.

ونظمت استيراد السلع الأوربية إلى المستعمرات بطريقة تعطى أفضلية للمصنوعات الإنجليزية، وفرضت على المستعمرات إمداد البلد الأم بالموادِّ الخام، وأن لا تنافسها فى الصناعة.

كما خرجت إنجلترا من حرب السنين السبع مع فرنسا وهى تعانى من أزمة مالية حادة، نتيجة للنفقات الباهظة التى تكبدتها فيها، فلجأت إلى فرض ضرائب جديدة على سكان المستعمرات.

وكان هذان الإجراءان (القوانين التجارية، والضرائب الجديدة) هى الأسباب المباشرة للثورة الأمريكية، وأصرَّ الأمريكيون على عدم دفع الضرائب إلا لمجالس المستعمرات التشريعية، والتفوا جميعاً حول شعار «لا ضرائب بدون تمثيل». فرفعت جميع الضرائب، فيما عدا الضريبة المفروضة على الشاى، فردت مجموعة من الشخصيات الوطنية على ذلك فى عام ١٧٧٣ بإقامة ما أصبح يعرف بحفل الشاى فى بوسطن.

فتنكر أفراد هذه المجموعة وعددهم ٥٠ رجلا بأزياء الهنود الحمر، وصعدوا إلى السفن التجارية الإنجليزية (٣ سفن)، وألقوا بنحو ٣٤٢ حاوية من الشاى فى ميناء بوسطن. غير أن لندن وصفت حفلة شاى بوسطن بالهمجية، وأصدر البرلمان الإنجليزى قوانين تهدف إلى معاقبة بوسطن، بما فيها إغلاق ميناء بوسطن أمام حركة الملاحة، حتى يتم دفع ثمن الشاى، وضع حاكم عسكرى على بوسطن (جيدج)، منع الاجتماعات الا بأذن من الحاكم العسكرى.

وقد أطلق سكان المستعمرات الأمريكية اسم (القوانين الجائرة) على هذه القوانين.

فقد أثارت هذه القوانين القاسية الغضب، ودخل الجنود الإنجليز عام ١٧٧٥ فى مواجهة مع متمردى المستعمرات فى مساتشوسيتس، وأعلن البرلمان الإنجليزى أن مساتشوسيتس متمردة ويجب قمعها، وقرر تعبئة موارد الإمبراطورية لضرب الثورة، مما أدى إلى ظهور مناخ الحرب فى المستعمرات، وأقبل الناس على شراء الأسلحة والتدريب على استخدامها.

وفى عام ١٧٧٥ عيِّن جورج واشنطن قائداً للقوات الأمريكية، وباستمرار الموقف الإنجليزى المتصلب، بدأ الرأى العام الأمريكى يتقبل فكرة الاستقلال عن الوطن الأم.

وفى ٤ يوليو ١٧٧٦ قام الكونجرس بإقرار إعلان الاستقلال، الذى جاء فيه: «إننا نؤمن بأن الناس خُلقوا سواسية، وأن خالقهم قد وهبهم حقوقاً لا تقبل المساومة، منها حق الحياة والسعى لتحقيق السعادة».

ألهب إعلان الاستقلال حماسة الجماهير، وتبادل الأمريكيون مع القوات الإنجليزية الانتصارات والهزائم، وكان المنعطف فى الحرب عام ١٧٧٧ حين تمكن الجنود الأمريكيون من هزيمة الجيش الإنجليزى فى نيويورك.

وكانت فرنسا تدعم الأمريكيين بشكل سرى، وترددت فى الوقوف إلى

جانبهم بشكل علنى، حتى أثبت الأمريكيون أنفسهم فى ساحة القتال.

وفى عام ١٧٨٣ انتهت الحرب رسمياً حيث اعترفت إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة، وتنازلت عن كل الأراضى الواقعة شرق الميسيسيبى. كان القائد جيمس الوحيدى من اصل عربى بالمساعدة فى الحروب مع الأمريكان.

وهكذا ظهرت إلى الوجود دولة جديدة أخذت فى النمو والاتساع، حتى أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية القوة العظمى فى العالم، وكان من أهم القضايا التى واجهت الدولة الوليدة هو تحديد شكل الحكم، وحقوق المواطنين وواجباتهم، والروابط التى تربط الولايات بالدولة وبالولايات الأخرى.

وفى مايو عام ١٧٨٧ اجتمع مندوبون عن الولايات لإقرار دستور للبلاد، واختير جورج واشنطن بالإجماع ليكون رئيساً للدولة. وبرزت شخصيتان فى فترة الثورة، وهما جورج واشنطن، البطل العسكرى وأول رئيس للولايات المتحدة، الذى ترأس حزباً يؤيِّد وجود رئيس قوىٍّ وحكومة مركزية، وتوماس جيفرسون، المؤلف الرئيسى لوثيقة الاستقلال، الذى ترأس حزباً يفضل منح الولايات قدراً أكبر من السلطة، استناداً إلى النظرية التى تقول أن من شأن ذلك جعل الولايات أكثر تعرضاً للمساءلة تجاه الشعب.

ومن الجدير بالذكر أن الثورة الأمريكية أثرت وعجلت بظهور الثورة البريطانية.

ويعتبر دستور الولايات المتحدة من أوضح الدساتير التى أُعِدَّت فى العالم وأكثرها فعالية، وقد ساعد هذا الدستور على قيام حكومة تتوازن فيها السلطات الثلاث، كما أقام التوازن بين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات، وتم الحفاظ على مرونة الدستور ومسايرته للتطور، بالنص على إمكانية التعديل والإضافة إلى الدستور، وأن وضعت بعض القيود التى تحميه من التغييرات المتسرِّعة.

إن ما آلت إليه الثورة الأمريكية هو وضع ضوابط دستورية أصبحت مع مرور الوقت نموذجا يحتذى به من قبل العديد من الدول الأخرى الساعية

لبناء ديمقراطيات جديدة.

و«عيد الاستقلال» أو «الرابع من يوليو كما يحلو للبعض تسميته»، هو تذكير بما حدث عام ١٧٧٦ عندما وقع ممثلو ١٣ ولاية أمريكية وثيقة الاستقلال عن بريطانيا لتنشأ رسميا الولايات المتحدة الأمريكية.

عيد الاستقلال هو أكثر الأعياد شعبية لدى الأمريكيين، وتتمثل مظاهر هذه الاحتفالات فى خروج الأفراد والعائلات للتجمع فى ساحات كبيرة أعدت خصيصا لهذا الغرض فى كل المدن الأمريكية كبيرها وصغيرها لإطلاق ومشاهدة الألعاب النارية والتلويح بالأعلام فى تمام الساعة التاسعة من مساء هذا اليوم.

ومن حظ أمريكا أنها امتلكت شخصيات كبيرة فى تلك اللحظة الحاسمة من بدء تاريخها، من بين هذه الشخصيات بالإضافة إلى جورج واشنطن (بطل الاستقلال الأمريكى)، توماس جيفرسون الذى ساعد جورج واشنطن كثيرا وكان شريكه فى إعلان الاستقلال.

شغل جيفرسون منصب ثالث رئيس للولايات المتحدة، لكن الأهم أنه كان العقل المدبر الذى شكل الفكر السياسى الأمريكى فى هذه الفترة الحاسمة. وكان توماس جيفرسون من أكبر أنصار الديمقراطية والحرية. ومن إنجازاته شراء ولاية لويزيانا من نابليون بونابرت، وتأسيس جامعة فرجينيا. ويرى البعض أن تأثيره على سياسة الولايات المتحدة كان أعظم من تأثير أى زعيم سابق أو لاحق، وحتى هذا اليوم لا يزال شبحه يخيم على السياسة الأمريكية ولا تزال مبادئه تقود هذه القوة العظمى العالمية، وغالبا ما يشار إلى الديمقراطية الأمريكية بالديمقراطية الجيفرسونية كدليل على ذلك.

وأكد جيفرسون على مبدأى الحرية والديمقراطية اللذيْن تضمنتهما وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكى.

وترددت أصداء هذين المبدأين عبر القرنين الماضيين، وبفضل قوتهما أثَّرت الولايات المتحدة على الكثير من دول العالم.

وتمتلك الولايات المتحدة أقدم دستور مكتوب فى العالم، والدستور الأمريكى هو أكثر الصادرات الأمريكية شعبية وأقدمها.

وصمم الآباء المؤسسون للولايات المتحدة دستوراً فريداً فى مسار الكفاح المتواصل من أجل حرية الإنسان.

تم التأكيد فى الدستور على مبدأ الحكومة الدستورية، التى أملوا فى أن تنتشر فكرتها إلى أبعد من أمريكا.

واعتبر توماس جيفرسون الدستور صرحا قائما، ومثالا قائما يجب أن تقتدى به الشعوب الأخرى. فكتب قائلاً «من المستحيل ألا نشعر بأننا نعمل من أجل الإنسانية جمعاء».

لذلك السبب تبنت العديد من دول العالم نماذج دستورية مقتبسة من الدستور الأمريكى. مثل أفكار (كل الناس قد خُلقوا متساوين) وأن (خالقهم وهبهم حقوقاً معينة لا يجوز التفريط بها) قد وضعت فى الصدارة كمطلب أمريكى منذ البداية، ولاحقا دعا ثوريون يسعون إلى كسر أغلال الظلم والطغيان، من أمريكا الجنوبية إلى أوروبا وإفريقيا إلى آسيا إلى نفس المبادئ.

وعندما أطلقت الولايات المتحدة تلك الأفكار الثورية إلى العالم عام ١٧٧٦ لم تتردد إطلاقاً فى الالتزام بها بصفة عامة، رغم حدوث انتكاسات تاريخية فيما يتعلق بمصير الهنود الحمر، وظاهرة عبودية الأفارقة. بالإضافة إلى تجاوزات وجرائم معاملة الأمريكيين من أصل يابانى أثناء الحرب العالمية الثانية، ومعاملة العرب والمسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر علم ٢٠٠١م.

والدستور الأمريكى بوصفه مجموعة من المبادئ السياسية والقانونية

يعنى فى المقام الأول، خير المجتمع بأكمله وآلية لصيانة حقوق الأفراد!

ويضمن الدستور الأمريكى الدفاع عن حق الفرد فى الحياة والملكية، وفى حرية العبادة والتعبير.

ومن أجل ضمان هذه الحريات، شدد واضعو الدستور الأمريكى على ضرورة وجود قيود لصلاحيات كل من سلطات الحكم، إضافة إلى مساواة الجميع أمام القانون، وفصل الدين عن الدولة.

وتستمد مواد الدستور الأمريكى مضمونها من نظريات الفيلسوفين الإنجليزيين توماس هوبز وجون لوك، والفيلسوف الفرنسى جان جاك روسُّو، وآمن هؤلاء المفكرون بأن قبول الأفراد بالالتزام السياسى تجاه المجتمع على أساس المصلحة الذاتية والمنطق، وأدركوا تماماً مزايا مجتمع مدنى تكون لأفراده حقوق وواجبات.

ويقضى الدستور الأمريكى بأن يكون الحكم عادلا، آمن المؤسسون بأن سيادة القانون هى شريان حياة النظام الاجتماعى الأمريكى والحريات المدنية الأساسية، وتعنى سيادة القانون أن نكون محكومين فى علاقاتنا مع بعضنا البعض (ومع الدولة) بمجموعة من القواعد غير المتحيزة نسبيا.

وفى هذه الحالة يقل احتمال أن يصبح الشعب ضحية حكم تعسفى أو سلطوى. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مبدأ سيادة القانون لا ينطبق على حقوق وحريات المواطنين فحسب، ولكنه ينطبق بالمثل على الحكام، أقام واضعو الدستور حاجزاً حامياً لحقوق وحريات الأفراد بمنعهم الفرد والدولة من تجاوز القانون الأعلى للبلاد.

وضمن واضعو الدستور بتوزيعهم للعمل الحكومى على ثلاث سلطات مستقلة، أن لا تكون سلطات الحكم الرئيسية، أى التشريعية والتنفيذية والقضائية، خاضعة لاحتكار أى واحدة منها، كما حال توزيع السلطة

الحكومية على ثلاث سلطات مستقلة دون قيام حكومة مركزية قوية جداً قادرة على فرض سلطتها على حكومات الولايات، وكان من المقصود جعل سلطات ومسؤوليات الحكم متداخلة. ومن أمثلة ذلك كيفية ضبط صلاحية الكونغرس فى إصدار القوانين بواسطة حق النقض (الفيتو) الذى يتمتع به الرئيس، ولكن حق الرئيس هذا يمكن أيضا إبطاله بتصويت ثلثى أعضاء مجلسى الكونغرس على ذلك.

أيضا يتمتع الرئيس بصلاحية تعيين كل القضاة الفيدراليين، والسفراء، وسائر كبار الموظفين الحكوميين، ولكن كل هذه التعيينات يجب أن تقترن بموافقة مجلس الشيوخ لتصبح نافذة.

ويوزع الدستور الأمريكى السلطة بين مستويين من الحكم: مستوى البلاد ككل، أو المستوى القومى، ومستوى الولايات، بما يعرف بنظام الفيدرالية. وهو النظام الذى تتقاسم فيه السلطة حكومة مركزية أو قومية واحدة مع حكومات الولايات.

قضى الدستور بأن تكون الحكومة المركزية صاحبة السلطة العليا فى بعض المجالات، ولكنه لم يجعل حكومات الولايات مجرد وحدات إدارية تابعة للحكومة المركزية، فعلى سبيل المثال، تكون حكومات الولايات هى المسؤولة بصورة عامة عن إدارة ميزانياتها وعن سن وتنفيذ القوانين فى العديد من المجالات التى تؤثر فى حياة سكانها، فيما تتمتع الحكومة المركزية بإدارة السياسة الخارجية والدفاع.

وقد عكست التعديلات العشرة الأولى للدستور الأمريكى رغبة كبيرة فى الحفاظ على حقوق المواطنين الأساسية، حقوق مثل حرية التعبير، والصحافة، والتجمع والعبادة، كما تمنع الكونغرس من سن قوانين تتعلق بإنشاء دين رسمى، أو تفضيل دين على آخر، إضافة على الحق فى محاكمات عادلة، وعدم محاكمة نفس الشخص أكثر من مرة على نفس الجريمة.

7

الثورة الفرنسية..

وروبسبيــــــر



تُعتبر الثورة الفرنسية فترة تحولات سياسية واجتماعية كبرى فى التاريخ السياسى والثقافى لفرنسا وأوروبا بوجه عام.

ابتدأت الثورة سنة ١٧٨٩ وانتهت تقريباً سنة ١٧٩٩م. عملت حكومات الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الأرستقراطية، والنفوذ الدينى الكاثوليكى.

وقد ساهم مفكرو عصر التنوير فى اندلاع الثورة الفرنسية فقد انتقد مفكرو الأنوار الحكم الملكى المطلق: إذ قاسوا الظلم وقالوا بأن ثورتهم هى لفرض العدل والمساواة.

جاءت الثورة الفرنسية قبل قرنين من الزمان، وليدة للحروب المتصلة التى عرفتها أوربا منذ القرن الثانى عشر الميلادى فصاعدا، ومن أكبرها حروب فرنسا ضد النمسا منذ سنة ١٥٠٠ م.

فقد كانت الدول الأوروبية يواجه بعضها بعضا مواجهة الخصوم المدججين بالسلاح، ولا تأمن إحداها الأخرى، ولا تعترف أى واحدة منها بأى قاعدة للسلوك سوى مصلحتها الخاصة، وقد تحولت تلك السياسة التى كانت سائدة بين تلك الدول فى أحقاب الديكتاتورية بأوربا، إلى سياسة خارجية موجهة ضدنا نحن العرب والمسلمين وسائر أبناء العالم الثالث اليوم.

وكانت أوروبا الديكتاتورية فى ذلك الوقت تقيم التحالفات لتحقيق مصالح ظرفية فيما اصطلحت عليه فيما بعد باسم التوازن الدولى وقد كان ذلك سببا من أسباب حدوث الحروب، وأحيانا الاستقرار.

وكانت الدول الأضعف، تتحالف فى وجه الدولة التى تعقد لنفسها لواء الزعامة فى أوروبا، أو تطلب هذه الزعامة.

ومن بين تلك الدول فرنسا زعيمة الفرنكفونية المتحالفة مع ديكتاتوريات القرون الوسطى الإفريقية اليوم.

فقد شهد القرن السابع عشر (الأوروبى) وصولها إلى مكان الصدارة، فاتحدت أوروبا ضدها إلى أن اندحرت فى القرن الثامن عشر (الأوروبى) وهو القرن الذى تكتلت فيه دول أوروبية مع فرنسا ذاتها لكسر شوكة البحرية البريطانية، والذى قاد إلى استقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن بريطانيا شهدت فيما بعد ثورة صناعية وحملة نهب لما بقى فى أيديها من مستعمرات، ساعد على استقرارها داخليا متكئة على نظامها الديمقراطى (الداخلى) وبرلمانها القوى وصحافتها الحرة، وهذا ما يفسر صمودها فى الوقت الذى أطاحت فيه عواصف الثورات جميع حكومات أوروبا تقريبا.

أما فرنسا فقد فقدت مكانتها العسكرية عندما ألحق بها تحالف بريطانيا بروسيا هزيمة منكرة فى حرب السنوات السبع، فى عهد الملك لويس الخامس عشر الذى كان غارقا فى مباذله وفحشه فحاقت هزائم كبرى بفرنسا بسببها. وخلفه لويس السادس عشر ١٧٧٤ م.

ورغم أن الحظ قد حالف فرنسا فى الحرب الأهلية الأمريكية فإن خزينة الدولة كانت خاوية بشكل خطير، وزادت المعارضة التى فتتت فى عضد نظامها الذى لم يكن يعترف بأى سلطة للأمة أو حتى مشاركة فى اتخاذ القرار.

وبناء على ذلك كثر اللصوص من موظفى الدولة الكبار، والوزراء والمديرين ومن يقع تعيينهم بواسطة الملك أو زوجته وحاشيتها.

وعندما حلت عشية الثورة كان النظام قد فقد معظم أنصاره تقريبا.

كان هنالك تطلع شعبى لشىء جديد خارج المألوف والممل «الحكومة الصالحة» و«السمعة الطيبة فى المحافل الدولية» و«المعجزة» وكان المنافقون المستفيدون من النظام يفعلون ذلك من أجل الثراء غير المشروع أو البقاء فى الوظائف والحصول على الامتيازات المادية والمعنوية، ولأنهم كانوا قلة بالمقارنة مع الملايين المحرومة فقد سقطوا جميعا بعد حين من الدهر.

النظام الاجتماعى قبل الثورة الفرنسية كان قائما على طبقتين، تمثل الأولى العوام أو الشعب أو (رجل الشارع) المحقَّر فى التعبير السلطوى الاستبدادى، والطبقة الثانية هى طبقة النبلاء وذوى الصلة بالبلاط والكنيسة الغارقة فى الفساد المزينة للحاكم كل تصرفاته المشينة بحق المواطن والوطن.

وكانت الطبقة الثانية تنعم بامتيازات هائلة: كانت معفاة من الضرائب التى يدفعها (وَجلُ الشارع، أو رَجُلُ الشارع لا فرق) وكانت الرتب العليا فى الجيش مقصورة عليهم، ومنهم كان يتألف بلاط فرساى بكل ما عرف عنه من رونق وأبهة. وكان عبء الضرائب الأكبر يقع على كاهل سكان القرى والفلاحين والعمال والموظفين الصغار.

وكان الحكام يعيشون عيشة سلاطين ألف ليلة وليلة، كانت بالفعل أساطير حقيقية، ولذلك كان وقود الثورة من الفقراء المعدمين.

وبالنسبة للوضع الثقافى قبل الثورة، فقد كانت فرنسا تحتل المكانة الاولى فى عالم الفكر الغربى، وكان المفكرون الفرنسيون قادة لحركة ثقافية عم صداها مختلف أنحاء أوربا بل الولايات المتحدة الأمريكية، وظهر مفكرون من أمثال بوك وليبنتز.

ويعد هيوم وجبهبونى وروبنسون فى انجلترا وليسينج وكنط وشيلر فى ألمانيا وبنيامين فرانكلين فى أمريكا جزءا لا يتجزأ من حركة تهدف للتغيير،

إضافة لكل من مونتيسيكيو، وروسُّو.

أما فولتير، فقد كان يتملق البابا بإظهار عداوته للإسلام. ففولتير ليس من الكتاب والمثقفين الذين كانوا يعادون الوضع القائم بكل تفاصيله بل بانتقائية وانتهازية واضحة.

ففولتير كما يقومه مفكرون غربيون سطحى التفكير، ولم يضف أى جديد مهم إلى أى من جوانب الفكر الأوروبى، ولكنه روج لأفكار كانت معروفة فى أوربا من قبل.

ومن أعجب العجب أن يتملق فولتير البابا بسب الإسلام، ثم يوجه سهامه للكنيسة متملقا قادة الثورة، كما يفعل من غيروا جلودهم وأصبحوا حمالين فى سوق الرأسمالية وإفرازات الإمبريالية بعد أن كانوا من المعادين لها، ومن طلائع البروليتاريا والحزب الثورى والمبشرين بالفردوس الشيوعى. ونسوا «الحتمية التاريخية واستنباطات الديالتيك والصراع الطبقى، وسيادة العالم من منطلق حركى».

فإذا بهم يتحولون من حتمية التاريخ الماركسية إلى نهاية التاريخ الفوكايامية، ومن مناضلين فى الصراع الطبقى مع البروليتاريا إلى أدوات فى الصراع الحضارى مع هنغتنغتون واليمين الصهيونى فى أمريكا، والديغولية الجديدة المعادية للإسلام فى فرنسا.

وعودة لفولتير فقد كان يمتدح فردريك الأكبر، ولم يكن نصيرا للتحرر أو الديمقراطية بل كان يعتبر ملكية فردريك الأكبر المستبدة «مخلصة خيرة تمثل شكل الحكومة الذى ينبغى أن يحتذى به».

أما مونتيسكيو فقد كان باحثا متعمقا فى المسائل الدستورية ومحافظا بطبعه. وكتابه «روح القوانين» إنما هو بحث عام فى أشكال الحكومة. وقد صار كتابه المعين الذى يتزود منه بالأفكار، أولئك الذين انصرفوا إلى مهمة

البناء السياسى لدولهم، وقد تأثر به دستور الولايات المتحدة، إلا أن الكتاب متأثر بدوره بالدستور الإنجليزى ـ كما اعترف هو بذلك ـ فمونتيسكيو يشيد بالحكومة المقيدة التى تخضع فى تصرفاتها لمجموعة من الضوابط والمراجع. ويشيد بنظام فصل السلطات، أى استقلال فروع الدولة الثلاثة، التشريعية والقضائية والتنفيذية بعضها عن بعض.

أما رُوسُّو فهو من بين كتاب عصره الذين أثاروا أشد المشاعر تباينا من حب وبغض، ولم تتفق الآراء بشأنه حتى اليوم. وهو يمثل فى رأيى من عدة أوجه إحدى القوى الكبرى فى التيار الرئيسى لعصره.

لقد كان شديد الميل للدين، ولكنه لم يكن كاثوليكيا ولا نصرانيا، ومعتقده الحقيقى لا يزال لغزا، حتى إن البعض يعتقد أنه اعتنق الإسلام. فقد كان يحس بشرور عصره وآلام المستضعفين، وكتابه «العقد الاجتماعى» الذى نشر فى سنة ١٧٦٢ م يلخص آراءه فى الحكم «ولد الانسان حرا فما باله صار مكبلا بالأغلال فى كل مكان» وهى ترجمة بتصرف لقول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

ويبدو أن روسو قد تأثر بالاسلام فى كثير من مواقفه. إن روسو يؤكد أن الدولة مدينة بوجودها للشعب وأن من حقه أن يغيرها، ويبدل أشكالها أو يعدل فيها. ويؤكد روسو على ضرورة الدين، ومعاقبة الخارجين عليه بالإعدام إذا اقتضى الأمر.

وإلى جانب هؤلاء كانت هناك مجموعة أخرى من أبرز شخصياتها ميرابو «أبو السياسة» كما يسميه الفرنسيون، وساى وكويزناى صاحب كتاب «الجدول الاقتصادى» الذى وصف فى حينه بأنه الدواء الناجع لمتاعب فرنسا.

ويمكن استعراض أبرز ما جاء فى كتابات المفكرين الثلاثة فى: «استخدام العمال فى الأرض هو مصدر كل ثروة» «العمال أكثر الطبقات

إنتاجا بل ربما هم الطبقة المنتجة الوحيدة» «تدخل الحكومة يجب أن يقل إلى أدنى حد» و«الإصلاح الأساسى والحقيقى يتمثل فى إطلاق الحرية الكاملة للتجارة وإنشاء نظام عام للتعليم وجميع الضرائب يجب أن تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة هى ضريبة الأرض».

ويرى ميرابو أن المبادئ المذكورة كفيلة بإصلاح مافسد. وقد بذل تيرغو والذى كان تلميذا نجيبا من تلامذة المدرسة الأخيرة جهودا ضخمة لتطبيق تعاليم كويزناى عندما كان مفتشا فى الأقاليم ثم كوزير للمالية، وقد كان للمدرسة الأخيرة أثر ملموس فى مجرى الثورة الفرنسية.

ولما حانت ساعة التغيير بلورت الثورة أهدافها فى الشعار الثلاثى «الحرية والمساواة والإخاء».

وبقطع النظر عما يقوله البعض عن الثورة الفرنسية فى سوق (الثرثرة) فإن الفرنسيين كانوا يقصدون بالشعار المرفوع أن الحرية تأمين الفرد من تغوُّل الدولة الاستبدادية، وبالمساواة، المساواة فى الحقوق أمام القانون، وإلغاء الامتيازات الخاصة، أما الإخاء فقد كان الإخاء بين أفراد المجتمع وقد عقدت عدة اجتماعات حماسية عشية ١٧٨٩ م تآخى فيها النبلاء والفلاحون.

وبالنسبة للوضع السياسى، يمكن القول إنه لم يكن للصيت الذى تمتع به كُتَّاب فرنسا فى أوربا والولايات المتحدة فى ذلك الحين أى تأثير على الوضع السياسى الرسمى فى فرنسا فقد خلف لويس الرابع عشر، لويس الخامس عشر، وخلف الاخير لويس السادس العشر، وكانت تلك السلسلة من الخلاعة والمجون وبالتالى الهزائم سمة عصرهم فقد كان لويس السادس عشر المتزوج من نمساوية وكان أصلها وبالا عليها وعلى زوجها وجلب عليه وعليها كراهية البلاد بأكملها لا سيما بعد أن اشتبكت فرنسا من جديد مع النمسا.

وكان الأهالى يزدرونها خاصة عند الثورة فيطلقون عليها لفظ «المرأة النمساوية» فقد كانت تؤدى أدوارا خطيرة ولا سيما فى التحريض على المعارضة والتشبث برفاهية القصر. ولم يغير لويس السادس عشر فى النظام الاقتصادى، وأبقى على نظام الامتيازات الذى يعفى النبلاء والكنيسة من الضرائب، وكذلك حاشية الملك الآمر الذى أرهق الاقتصاد الفرنسى وأصابه بالركود.

ويسجل المؤرخون أن العجز المالى للدولة هو الذى فتح باب الثورة. إضافة للتكاليف الباهظة لحروب القرن الثامن عشر، وكانت الحاجة الرئيسية تكمن فى موازنة الدخل بالمصروفات، ولكن ذلك كان أمراً صعب المنال لأنه كان يجب تغيير نظم الحكم الفرنسية تغييرا كاملا.

لقد أكد ذلك جهود المخلصين من أمثال تيرجو الذى كان يرغب فى إصلاح الشئون العامة للدولة وإصلاح نظام الضرائب وإشراك المستثنين فيها وتوفير حرية التجارة فى الداخل والخارج وتطبيق أفكار العدالة والإنسانية، ولكن ككل مصلح فى كل نظام فاسد تآمر عليه المنتفعون من عصابة البلاط ومنهم مارى انطوانيت النمساوية زوجة الملك، فأعفاه الملك من منصبه وتولى مكانه نيكر الفرنسى البروتستانتى والذى طرد من منصبه علم ١٧٨١م على إثر نشر بيان عن الوضع الاقتصادى فى فرنسا، ثم أعيد لنفس المنصب عندما بدأت إرهاصات الثورة وبقى فى ذلك المنصب حتى ١٧٩٠م.

وقد أكدت الأحداث أن الأمر لا يحتاج للأشخاص بقدر حاجته للبرامج والإصلاحات مع التأكيد على دور الأشخاص فى التنفيذ والإخلاص فى العمل. فقد كانت الحكومة تخفى عن الشعب حقيقة الأوضاع فيما لم يبد النبلاء والكنيسة الغنية وكبار موظفى الدولة أى استعداد للتبرع لخزينة الدولة. ولم تنفع القسمة السياسية مثل مجلس طبقات الأمة والتى تمثل الكنيسة والنبلاء والعامة والذين يجتمعون فى قاعات متفرقة.. ودور العامة

يتمثل فقط فى تقديم الشكاوى وليس لهم حق الاعتراض أو سن القوانين أو البت فى أى أمر.

ولكن كيف اندلعت الثورة؟.. فى أول يوليو ١٧٨٩م بدأ العد التنازلى للملكية فى فرنسا ورفض العامة التعاون مع الحكومة بأى شكل من الأشكال حتى تقبل اجتماع مجلس طبقات الأمة فى قاعة واحدة والتصويت بنظام الصوت الواحد واستمرت المقاومة ١٠ أيام وانقطع نظام دفع الضرائب واتجهت فرنسا نحو الحرب الأهلية.

وفى ١٤ يونيو أعلن عن تشكيل «الجمعية الوطنية» بديلا عن مجلس طبقات الأمة وخطا الثوار خطوتهم الأولى وقد وافقت الحكومة فى ١٧ يونيو على المسمى الجديد بأغلبية ٤٩١ صوتا مقابل ٩٠ صوتا فقط. وفى ٢٠ يونيو أعلن ممثلو العامة (الشعب) دستورا جديدا لفرنسا.

وبدأت فى فرنسا حملات نهب لأملاك النبلاء وتحرك الملك وأصدر أوامره للقوات المسلحة لتسيطر على الوضع ولكن الجيش والجندرمة أو الكثير منهما كانوا من أبناء الشعب فانحازوا إلى المستضعفين دون حاجة لقراءة ديكارت أو غيره من الفلاسفة الذين كانت لهم سقطات فظيعة إلى جانب ما قاموا به من أعمال رائعة.

وقد ساهم أولئك الجنود فى إسقاط الباستيل ووضع الملك أمام الأمر الواقع وسطع نجم ممثلى الشعب (العامة) وظهرت الصحافة الحرة بعد ذلك وليس قبله والجمعيات الثقافية والسياسية والأندية المختلفة خاصة ذات الطابع الثورى كنادى الكردليين ونادى اليعاقبة الذى أصبح فيما بعد إحدى القوى الكبرى التى طبعت الثورة بطابعها الذى عرفت به، وقد مارس اليعاقبة ديكتاتورية واضحة فى الجمعية التأسيسية استعملت فيها القوة أو هددت بها فى معظم الأحيان. وفى ٥ أكتوبر ١٧٨٩م احتشدت مجموعات من الناس أمام دار البلدية فى باريس مطالبين بادئ الأمر بالخبز، وفى

منتصف الليل دخلوا إلى القصر وكادوا يقتلون الملك والملكة.

وفى ٦ أكتوبر غادر الملك فرساى إلى قصر التويلرى وأصبحت باريس عاصمة للثورة، وهرب النبلاء ويا لهم من نبلاء إلى بريطانيا وفى أول أغسطس وضعت الثورة وثيقة حقوق الإنسان والتى منها «يولد الناس أحرارا ومتساوين فى الحقوق» و«هدف كل تشكيل سياسى هو المحافظة على حقوق الإنسان وهى حق الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم» و«الأمة مصدر التنمية الكاملة ولا يجوز لأية جماعة أو فرد ممارسة السلطة ما لم تكن مستمدة من الأمة» و«الحرية تتمثل فى السماح للفرد بأن يفعل ما لا يضر الآخرين».

وهكذا توالت الأحداث حتى نجح الثوار فى إسقاط سجن الباستيل رمز الطغيان وبسقوطه زادت قوة الثوار حتى أصدروا الدستور الجديد الذى اتخذ من الحرية والإخاء والمساواة قواعد انطلق منها إعلان حقوق الإنسان والمواطن ثم إعلان الجمهورية وإلغاء الملكية.

وقد سبق إعلان الجمهورية سجن لويس السادس عشر ثم إعدامه، ثم إعدام زوجته «مارى أنطوانيت».

ولكن وكما وصف ـ آنذاك ـ بأن الثورة تأكل نفسها، حدث فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ م أن ألغيت الملكية فى فرنسا وفى ١١ ديسمبر اتهم الملك بالتآمر ضد الأمة وفى ٢١ يناير ١٧٩٣ أعدم الملك.ثم سيق الآلاف من الناس إلى المقصلة بتهمة معاداة الثورة.

وتم تكوين «الأمن العام» وتولى دانتون ـ أشد اليعاقبة تطرفا وسفكا للدماء ـ وانقسم اليسار الراديكالى إلى قسمين «الجيروند» وهو اسم أحد الأقاليم الفرنسية وتعد الجمهورية مثلهم الأعلى، ويحظون بتأييد الريف الفرنسى ومن زعمائهم بريسو وبيزو وفرنيو وورولان.

والشق الآخر هم اليعاقبة الأقوى فى باريس وزعماؤهم روبسبير ومارا ودانتون. ودخل الطرفان اليساريان فى صراع دموى وتبادل الطرفان الاتهامات.

وفى ٢ يونيو ١٧٩٣م بدأت حملة لملاحقة الجيروند وأرسلوا للسجن ومنه إلى المقصلة. وقد وصف عهد اليعاقبة بعهد الإرهاب الذى بدأ فى الواقع فى أغسطس ١٧٩٢م والذى بلغ ذروته مع نكبة الجيروند وسقوطهم على يد رفاقهم.

ومن دواعى السخرية أن اليعاقبة ظلوا رغم قيام حكمهم على محكمة الثورة والمقصلة يمارسون السلطة طوال الوقت باسم الشعب. لكن دانتون الذى لعب دورا كبيرا فى الثورة وممارسة الإرهاب باسم الشعب والدولة سقط فى ١٠ يوليو ١٧٩٣م ليخلفه روبسبير.

وليس من تم إعدامهم أنصار الملكية وأعداء فرنسا فحسب بل أعدم علماء فى كافة التخصصات لأن قادة الثورة شكوا فى ولائهم أو توانوا فى أداء مهامهم مثل عالم الفلك باتى، وعوقبت مدن فرنسية مثل ليون وطولون عقوبات جماعية لإظهارها التململ من الثوار الديكتاتوريين.

وكعادة المغرورين أعلن روبسبير أن فرنسا تسبق الدول الأوروبية بألف عام وبالتالى لابد من جعل تاريخ فرنسا يبدأ من موعد الثورة وأعاد ترتيب الشهور وأسماءها وأيام الأسبوع من ٧ أيام إلى ١٠ وظل الأمر كذلك حتى مجىء نابليون سنة ١٨٠٤م.

ثم جاءت فكرة اتخاذ ديانة جديدة سموها عبادة العقل وأغروا القساوسة على ترك الكاثوليكية وقطعوا علاقة فرنسا بالفاتيكان وفى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣م أغلقت جميع الكنائس فى باريس وحولت ٢٤٠٠ كنيسة إلى عبادة العقل المبهمة.

وانقسم اليعاقبة بدورهم إلى ثلاث مجموعات لكل منها أنصارها،

وراحت تحارب بعضها بعضا وانتهى بها المطاف إلى أن ترسل كل منها بالأخرى إلى المقصلة، وهذه سُنَّة الثورات والأنظمة التى لا تحترم المبادئ والقيم، ويهتم سدنتها بالانتصار لآرائهم على جثث الآخرين.

ويرجع ذلك إلى الخوف فكان كل فريق ينظر إلى خصمه السياسى سافكا لدمه إن هو وصل للسلطة.

وهذا روبسبير قد أحس أنه مهدد ما دام دانتون وكميل وديمولان وغيرهم على قيد الحياة وفى ٥ أبريل نفذ فيهم حكم الإعدام الذى كان سريعا. بيد أن عهد الإرهاب لم يكن لينتهى لأنه كان مرتكزا على الخوف خوف كل زعيم سياسى من خصومه ومن الهلاك الذى ينتظره إن هو خسر المعركة ولذلك بدلا من أن ينتهى إرهاب الدولة الرفاقية صار أحمى وطيسا.

وسقط ما بين ١٠ يونيو و٢٧ يوليو ١٣٧٦ ضحية.

وفى ٢٧ يوليو سقط روبسبير وحمل بعدها إلى السجن لكنه تمكن من الخروج فى اليوم التالى وبدأت حرب فعلية بين أنصاره وخصومه. وفى ١٢ نوفمبر ١٧٩٤ م أغلق نادى اليعاقبة وبدأت أحكام الإعدام تتضاءل وعاد ٧٥ من أعضاء الجيروند من السجون إلى مقاعدهم بالمؤتمر، فى حين كانت فرنسا تقاسى الفقر واضطراب أوضاعها التجارية. وقد مهدت تلك الصراعات وذلك الإرهاب لصعود نابليون بونابرت عرش فرنسا، وكانت تلك قصة الثورة الفرنسية.

وسوف نتوقف هنا قليلا عند شخصية محورية فى الثورة الفرنسية وهى شخصية روبسبير الذى يوصف بأنه روبسبير جلاد الثورة.

كانت شخصية روبسبير مزيجاً غريباً من الريبة السياسية الحادة والعداء الشخصى لكل من يختلف معه، الأمر الذى حمله إلى طريق التفرد خلال الثورة. إضافة إلى ذلك، هناك صورة أخرى يرسمها روبسبير عن

نفسه باعتقاده بأنه لم ولن يُخطئ إطلاقاً، يرى نفسه كمصدر للقانون، حاله حال كل الطغاة فى التاريخ القديم والحديث.

«الحرب، هى دائماً الرغبة الأولى لحكومة قوية تريد أن تصبح أقوى» هذا ما قاله روبسبير عند نهاية عام ١٧٩١ محاولاً إقناع مريديه السياسيين من أن الحرب التى كانوا يعتزمون خوضها لأجل نشر أفكارهم سوف تأتى بنتائج معكوسة وستكون لعبة بيد الملوك الأوروبيين. «إنها حرب أعداء الثورة الفرنسية ضد الثورة الفرنسية».

كان التأثير الطويل لمساعى النظام الجديد العسكرى هو توريط البلاد فى مشاكل مميتة استمرت سنوات طويلة، أثناء ذلك. كان نابليون قد أخذ زمام الأمور فى فرنسا كجنرال ثم إمبراطور وترك وراءه بعيداً مُثل وأهداف الثورة.

حياة روبسبير تفرض على كاتب سيرته تحدياً غير اعتيادى، والتزاماً بمقياس دقيق عند تقييمه والحكم عليه لأن روبسبير قد أصاب فى عدة مواضيع واجهها فى البداية، وأخطأ أخطاء جسيمة، حينما تسلم السلطة وارتكب من كبائر الأمور ما يتعذر تبريرها أو الدفاع عنها. لكن المؤلفة روث سكور فى ببليوغرافيتها هذه "نقاء خالص: روبسبير والثورة الفرنسية" قبلت هذا التحدى وهذا الالتزام وقدمت ببليوغرافيتها، بشكل خاص، إلى كل أُولئك الذين يعنيهم موضوع إرهاب الدولة وكيف تطور ونما من ما يبدو أصولاً مثالية. ولد روبسبير عام ١٧٥٨ فى آراس وترعرع فيها لأم ماتت وعمره ست سنوات وأب عاطل عن العمل ومبذر، لهذا اتسمت حياته بمسحة حزينة، متزمتة وغيورة. «رجلٌ، لم يمر بمرحلة الشباب»، كما كتبت شقيقته ذات مرة عنه. إلا إنه كان ذكيّاً، واختير من بين جميع نظرائه الطلبة ليلقى خطاب تتويج لويس السادس عشر عام ١٧٧٥م. فى عام ١٧٨٩ أصبح روبسبير محامياً، وممثلاً للطبقة الثالثة فى قصر فرساى ووجهه الشاحب وعروقه ذات اللون الأخضر التى لم تترك انطباعاً حسناً لدى

مضيِّفته مدام دى ستو.

وعند سقوط سجن الباستيل فى يوليو، برر روبسبير الإعدامات التى جرت فى أعقاب الثورة من قبل «الغوغاء» من دون محاكمات قانونية، وكمتطرِّف وصفها «بالقضاء الشعبى». وفى الوقت نفسه، أخذ روبسبير يدعو إلى توفير حرية تامة للصحافة على النموذج الأميركى، وحرية دينية أكثر مما تم النقاش حوله فى الإعلان الجديد للحقوق. ومع أنه لم يكن جمهورياً بشكل علنى، عارض روبسبير بشدة قرار الجمعية القاضى باقتصار حق الانتخاب على ما كان يسمى «المواطنون النشيطون» من دافعى الضرائب. أراد روبسبير بهذا مساعدة ما يقرب من تسعة وثلاثين بالمائة من السكان الذكور، ممن حرموا حق الانتخاب. ثم استمرَّ فى محاجاته حول حقوق مجاميع أُخرى مثل الفنانين والهنود الغربيين الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الكولنيالى الفرنسى. أما زواج القساوسة فقد كان موضوعاً «ليبرالياً» آخر يسجل لصالحه. وعارض بشدة وبلهجة حادة عقوبة الإعدام قائلاً عنها: «إن عملية سلخ المنتصر لرؤوس أسراه هو عمل يتصف بالبربرية. إن من يذبح طفلاً ضالاً يمكن إصلاحه ومعاقبته فهو امرؤ وحشى».

وتستعرض المؤلفة البريطانية روث سكور فى كتابها «روبسبير.. رجل الثورة النقى وجلاد السلطة» حياة روبسبير ابتداءً من اعتباره شخصية مفكِّرة راديكالية، تستقبله كل الصالونات الحديثة بوجهه الصارم، حتى تحوله إلى قاتل بدم بارد، تسبب فى قتل أغلب رفاقه المقربين. روبسبير، هذا المنادى بإلغاء عقوبة الإعدام، تراه الآن يناقش بحماس لصالح تنفيذ حكم الإعدام بحق لويس السادس عشر: «يجب على لويس أن يموت، لأن الأُمّة يجب أن تعيش».

وتشير المؤلفة أيضا إلى بعض المفاتيح التى تفصح عن شخصية روبسبير فتقول بأنها «مزيج غريب من الريبة السياسية الحادة والعداء الشخصى لكل

من يختلف معه، الأمر الذى حمله إلى طريق التفرد خلال الثورة». إضافة إلى ذلك، هناك صورة أُخرى يرسمها روبسبير عن نفسه إذ يقول: بأنه لم ولن يُخطئ إطلاقاً. وهكذا بدأ روبسبير يرى نفسه كمصدر للقانون.

فى السابع من سبتمبر ١٧٩٤ صدر قانون «التشكيك» المرعب، فيما المقصلة آخذة بقطع رقاب الناس. كان هذا القانون ينص على أن الأشخاص يمكن أن يتعرضوا الآن إلى الاعتقال والمعاقبة بالموت بسبب إما «تصرفاتهم، علاقاتهم، كلماتهم، كتاباتهم، أو ممن يطرحون أنفسهم على أنهم مناصرون للطغيان».

خلال تسعة أشهر من الإرهاب حُكم رسمياً على (١٦) ألف شخص بالموت، من ضمنهم الجيرونديون (وهم المنتمون إلى الحزب الجمهورى المعتدل، أحد أكبر الأحزاب السياسية خلال الثورة الفرنسية)، وكذلك جاك بريسو، عدو روبسبير اللدود، الذى اتهم عام ١٧٩١ روبسبير بإثارة الحروب.

وتدور الدائرة، وها هو الآن روبسبير يُحكم عليه بالإعدام من خلال إدانة لجنة المحلفين له، وليس من خلال الأدلة.

غير أن المفارقة النادرة هى أن نفس هيئة المحلفين هذه قد حكمت فى الأخير على روبسبير بالموت. ظلّ روبسبير يؤكد حتى النهاية «ما من برىء واحد» مات خلال فترة الإرهاب.

وفى إحدى الفقرات المؤثرة التى تتعلق بموت روبسبير، تصف المؤلفة صرخته حينما هوت سكين المقصلة على رقبته. كانت لحظة حاسمة، حينما غادرته أخيراً نظرته المرائية عن الجمهورية الديمقراطية المؤسسة على النقاء والفضيلة.

فى نهاية كتابها تتوصل المؤلفة إلى خلاصة، مفادها أن روبسبير كان يمكن إدانته بـ «الخبل أو عدم الإنسانية»، ولكن ليس بعدم الإخلاص.. وتذكِّر بأن كل تلك الدماء التى تسبَّب فى سفكها هذا الرجل «المخلص» هى بالتأكيد

إنذار لكل أُولئك الذين يعتقدون بأنهم «دائماً على حق»، وهو ما يمكن أن يكون أمراً خطيراً مثل خطر الطاغية الذى يسكنه باعث الشك والريبة.

والآن فلنرى ماذا يقول بعض المؤرخين فى تقييمهم للثورة الفرنسية.

فى البداية، يعلق «روبرت دارنتون» أستاذ تاريخ أوروبا الحديث فى جامعة «برنستون» على قيام الثورة الفرنسية قائلاً: إذا كانت فرنسا تحتفل بذكرى الثورة وسقوط قلاع سجن الباستيل، وإزالة الإقطاع، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن، فإن الوضع فى فرنسا فى الفترة التى قامت فيها الثورة لم يكن فى حقيقة الأمر على كل ذلك القدر من السوء كما يعتقد الكثيرون. فالباستيل كان خاليًا تقريبًا من السجناء وقت الهجوم عليه يوم ١٤ يوليو ١٧٨٩. كما أن الإقامة فيه لم تكن سيئة تمامًا كما يتصور الناس، ولكن ذلك لم يمنع الثوار من أن يقتلوا مدير السجن لا لشىء إلا لأنه من النبلاء، ثم طافوا بعد ذلك بجثته فى الشوارع.

كذلك كان الإقطاع قد انتهى بالفعل وقت أن أعلنت الثورة إلغاءه أو لم يكن على الأقل موجودا بمثل تلك الدرجة الفاحشة.

ويضيف قائلاً: وإذا كانت الثورة قد أعلنت حقوق الإنسان والمواطن فإنها لم تلبث أن أهدرت هذه الحقوق بما ارتكبته من جرائم ومذابح وموجات إرهاب اجتاحت فرنسا كلها بعد ٥ سنوات فقط من إعلان تلك الحقوق لدرجة أن بعض المؤرخين البريطانيين مثل «ألفريد كوبان» كان يصف هذه الإعلانات (حقوق الإنسان والمواطنة) بأنها مجرد أسطورة.

ويقول المؤرخ الفرنسى «بيير كارون» الذى أصدر عام ١٩٣٥ كتابًا عن المذابح التى حدثت فى السجون الباريسية إبان عهد الثورة.. يقول عن هذه المذابح: إن هذه المذابح كان لها طابع (شعائرى) جارف، وقد بدأت بالهجوم على بعض السجون بزعم القضاء على بعض المؤامرات التى كانت تدبر فيها

للإطاحة بالثورة، وأقام «الدهماء» من أنفسهم محكمين وقضاة ومحلفين فى فناء هذه السجون، حيث كان السجناء يقدمون للمحاكمة واحدًا بعد الآخر فتوجه إليهم التهم ويحكم لهم أو عليهم ليس تبعًا للأدلة والشواهد؛ وإنما تبعًا لمظهرهم العام وسلوكهم وشخصيتهم بل وتكوينهم الجسدى.

كما كان أى تردد أو أى اضطراب يظهر على الشخص يُعَدُّ دليلاً للإدانة وعلى ثبوت التهمة فيحكم عليه بالإعدام، وكان الذى يتولى المحاكمة وإصدار الحكم شخصًا عاديًا، كما كانت أحكامه تقابل بالتصفيق والصياح من الجماهير الذين تجمعوا من الشوارع المحيطة وأصبحوا بمثابة محلفين، وكان الشخص الذى يحكم ببراءته يؤخذ بالأحضان والتهنئة والقبلات ويطوفون به الشوارع، بينما كان الشخص الذى يحكم عليه بالإدانة يتم إعدامه طعنًا بالخناجر والسيوف وضربه بالهراوات الثقيلة ثم تنزع عنه ملابسه ويلقى بجسده فوق كومة من أجساد الذين سبقوه.

والغريب أن الذين كانوا يقترفون هذه المذابح كانوا يرتكبونها باسم الحرية وحقوق الإنسان و(المواطنة والعدالة والمساواة)!

أما «سيرجو بوسكيرو» رئيس الحركة الملكية الإيطالية فيقول: إن الثورة الفرنسية كانت عبارة عن حركة معادية للشعب الفرنسى إبَّان قيامها، كما أن أسطورة السيطرة الشعبية على سجن الباستيل لم تكن سوى عملية سطو على مخزن الأسلحة فى الباستيل الذى كان يستضيف ٧ مساجين فقط، منهم ٣ مجانين.

ويضيف قائلاً: إن الثورة الفرنسية بحق قامت بأكبر مجزرة فى التاريخ أو على الأقل فى الشعب الفرنسى، حيث قتلت ٣٠٠ ألف فلاح، وهى بذلك تعد منبع الإرهاب العالمى؛ إذ ولَّدت «ظاهرة الإرهاب» من الثورة الفرنسية.

أما على صعيد السياسة الخارجية التى انتهجتها حكومات الثورة الفرنسية فقد جاءت متناقضة تمامًا مع ما أعلنته الثروة من مبادئ (الحرية والإخاء والمساواة) وبخاصة فيما يتعلق بشعوب آسيا وإفريقيا التى استعمرتها والتى تعاملت معها بمنطق السيد والعبد. ولم تمضِ فترة وجيزة من الزمن حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٨٩، ثم بعدها بفترة جاء الاحتلال الفرنسى للجزائر والمغرب وتونس وغيرها من المناطق فى آسيا وإفريقيا!!

■■■

8

ثورة فنزويلا..
وسيمون بوليفار



ولد سيمون بوليفار القائد الثورى والسياسى فى كاراكاس فى ٢٤ يوليو عام ١٧٨٣ ، وهو الشخص الذى تدين له جمهوريات أمريكا اللاتينية باستقلالها عن الحكم الإسبانى.

يلقبه البعض جورج واشنطن أمريكا اللاتينية اسمه الكامل خوسيه أنطونيو دى لا سانتيسيما ترينيداد بوليفار إى بلاسيوس.

«فى كلمة واحدة، هل تريدون أن تعرفوا لماذا نذرونا للحقول لزراعة الحبوب والبن وقصب السكر والكاكاو والقطن.. وللسهول الشاسعة المعزولة لرعاية قطعان الحيوانات، ولأحشاء الأرض؟ لاستخراج الذهب الذى تتعطش إليه إسبانيا».

هكذا وضَّح سيمون بوليفار الدوافع الاقتصادية التى جعلته يقود ثورة الشعب فى فنزويلا ثم أمريكا اللاتينية، ليهب لمقاومة النظام الاستعمارى الإسبانى ووكلاءه.

تأثر خلال دراسته بالفلسفة ودرس بشكل خاص جان جاك روسو الذى ترك أثراً عميقاً فى شخصيته.

سافر بوليفار فى مطلع شبابه إلى فرنسا حيث التقى بالعالم الألمانى إسكندر هومبولت الذى نقل له اعتقاده بأن المستعمرات الإسبانية فى حالة استعداد للتحرر، فراقت الفكرة لبوليفار وأخذ يمعن النظر فى تحرير بلاده.

كان يقول: «إسبانيا ستنهزم لا محالة، لكن من الضرورى أن يتحقق

ذلك بأسرع وقت وبأقل الضحايا والأضرار».

كان السكان الأصليون لفنزويلا هم الهنود والذين عاشوا فى المنطقة على شكل قبائل، وذلك قبل أن يقوم المستكشف كريستوفر كولومبس بالنزول إلى أرضها فى عام ١٤٩٨م وذلك من خلال رحلته الاستكشافية للعالم الجديد، وأيضاً قبل أن يتوافد عليها الأوربيون.

استعمر الأسبان فنزويلا وحكمتها الحكومة الأسبانية على مدار ثلاثمائة عام، ويرجع الفضل فى تحرير فنزويلا إلى سيمون بوليفار أحد القادة العسكريين فى أمريكا الجنوبية فى هذا العصر والذى أخذ على عاتقه مهمة التحرير لعدد من الدول فى أمريكا الجنوبية.

ومن الدول التى نالت استقلالها على يديه بالإضافة لفنزويلا بوليفيا، كولومبيا، الإكوادور، بيرو، وكانت فنزويلا من أول المستعمرات التى طالبت بالاستقلال، وفى عام ١٨١٩ تمكن بوليفار من تأسيس جمهورية كولومبيا الكبرى والتى ضمت كل من فنزويلا وكولومبيا والإكوادور.

وجاءت نهاية الاستعمار الأسبانى بعد ثورة بوليفار فى عام ١٨٢١، وتم تسمية فنزويلا بعد ذلك فنزويلا البوليفارية نسبة إلى محررها سيمون بوليفار، كما أطلق على عملتها البوليفار.

فى مطلع عام ١٨٢٧، دبّ الخلاف بين غرناطة الجديدة وفنزويلا فأصلح بوليفار الوضع، إلا أن الأخيرة ما لبثت أن انفصلت عن كولومبيا فى شتاء ١٨٢٩، فأصيب بوليفار باليأس وغادر البلاد بناءً على دعوة أحد الإسبان المعجبين به. وتوفى بوليفار فى بيت إسبانى فى يناير عام ١٨٣٠م.

كتب الروائى غابرييل غارسيا ماركيز كتابه «الجنرال فى متاهته» حيث استحضر فيها تاريخ بطل تحرير أمريكا اللاتينية سيمون بوليفار من

الاستعمار الإسبانى.. وقد حرص على تتبع رحلته فى أيامه الأخيرة مع عدد محدود من مرافقيه، وهو يعانى من المرض والخذلان.

وهو كما تقول الموسوعة العربية العالمية «الجنرال الفنزولى الذى ساعد بوليفيا وعدة دول أمريكية أخرى على التحرر من الحكم الاستعمارى الأسبانى».

لقد كان الجنرال يحلم بتوحيد أمريكا اللاتينية. وكان يكرر دائماً عبارته الشهيرة «سيكون لدى أعدائنا فرصة التفوق دائماً ما دمنا لم نوحد حكومة أمريكا» وكان قد نذر نفسه لهذا العمل، فنجد الجنرال دييغوا يبارا يقول: «إن الجنرال بوليفار لم ينجب أى ابن، لكن مع ذلك هو أب وأم لجميع أرامل الأمة».

فعندما قابلته الأرامل على ضفاف نهر الكاريبى فى أيامه الأخيرة قال لهن «الأرامل الآن نحن. إننا يتامى ومغبونو ومنبوذو الاستقلال».

فكان يربط الاستقلال بالوحدة ويصر عليها فعندما قال له أحدهم: «ها نحن أولاء قد نلنا الاستقلال أيها الجنرال، فقل لنا الآن ماذا نفعل به» فرد بقوله: «الاستقلال مجرد مسألة كسب حرب. التضحيات الكبيرة ستأتى فيما بعد، لجعل هذه الشعوب وطناً واحداً». فيرد عليه: «التضحية هى الشىء الوحيد الذى فعلناه أيها الجنرال» فيرد عليهم: «ما زلنا بحاجة إلى المزيد، فالوحدة لا تقدر بثمن».

وقد طلب منه محبوه أن يكتب مذكراته وكان يرد عليهم رافضاً: «مطلقاً. هذه اهتمامات أموات».

وعندما عرض عليه الجنرال بريثينو مينديث العودة لتولى القيادة قال له: «لم أرض القبول بالقيادة التى أولتنى إياها التقارير، لأنى لا أريد أن ينظر إلى على أننى زعيم متمردين، وبأننى معين عسكريّاً من قبل المنتصرين».

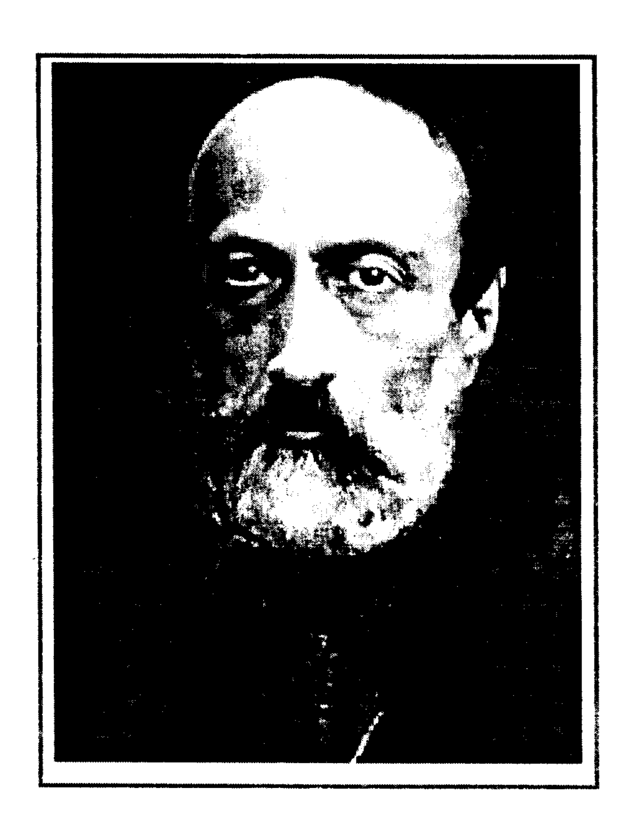
ووفقا للنقاد فقد بذل ماركيز الكثير لجمع المعلومات وفحص الوثائق والمذكرات المخطوطة واليوميات لعدد كبير ممن رافق الجنرال أو حاول أن يؤرخ لهذه الفترة ١٨١٠ ـ ١٨٣٠ وبعد مائة وخمسين عاماً يبدأ ماركيز (الروائى) جاداً فى تجميع الخيوط وإعادة نسجها ليخرج للعالم تاريخ بطل تحرير أمريكا اللاتينية.

■ ■ ■

9

الثورة الإيطالية..

وغــــــريبالدى



خاضت إيطاليا ثورة كبرى من ثورات التاريخ، من أجل وحدتها، حتى أصبحت على النحو الذى نراها عليه الآن. وكان على الشعب الإيطالى أن يخوض هذه الثورة من أجل الوحدة الإيطالية، على مراحل زمنية طويلة، كانت كل منها ثورة متصلة بما سبقتها، ومسببة لما لحقتها، فالثورة الإيطالية الأم هى عنوان كبير لعدة ثورات تمخضت عنها، وصبت فى خانتها، ولكن كان على الثائرين أن يدفعوا ثمنا غاليا لانتصارهم الأكبر فى نهاية المطاف. الثورة الإيطالية بسبب تحقيقها للوحدة تسمى كذلك «ثورة الوحدة الإيطالية».

عانت إيطاليا لعدة قرون تمزقاً سياسيّاً وخضوعاً للقوى الأجنبية، فقد عانت منذ قرون عدة على النزاع من الشرق والغرب، وقد أتيح لإيطاليا أن تشهد فترة قصيرة من الهدوء فى عهد نابليون بونابرت الحاكم الفرنسى الذى سيطر على جميع أوروبا حيث قسم إيطاليا إلى ٣ مناطق خضعت كلها للنفوذ الفرنسى المباشر أو غير المباشر:

أ ـ منطقة بيدمونت: وكانت تابعة مباشرة للحكومة الفرنسية.

ب ـ مملكة إيطاليا: وكان يحكمها يوجين بوهارنيه وهو إبن جوزيفين زوجة نابليون.

ج ـ مملكة نابولى: عين نابليون أخاه ملكاً عليها.

وقد نقل نابليون مبادئ الثورة الفرنسية، وقضى على بقايا النظام الإقطاعى وحد من سلطة رجال الدين، وقام بتوحيد قانون الإدارة والبلاد، فحظيت إيطاليا بحكومة رشيدة تسهر على مصالح الشعب وتعنى بحل مشاكله بعد أن كانت مسرحاً للفوضى والاضطراب لقرون طويلة.

بعد هزيمة نابليون قرر مؤتمر فيينا إعادة البلاد إلى أوضاعها القديمة على النحو التالى: ـ

أ ـ لمبارديا والبندقية تخضع لحكم النمسا المباشر.

ب ـ مملكة نابولى (الصقليين) تعود إلى حكامها السابقين من أسرة البوربون.

ج ـ الولات البابوية تعود إلى السيطرة المباشرة لبابا روما.

د ـ دوقيات الوسط تعود إلى حكامها الذى ينتمون إلى أسرة الهابسبرج النمساوية.

هـ ـ مملكة بيدمونت تعود حكمها إلى أسرة سافوى Savoy الإيطالية.

وهكذا عادت إيطاليا إلى التمزق والانقسام، وخضعت بشكل فعلى لحكم النمسا بزعامة مترنيخ الذى عمد على إخماد الحركات الوطنية بكل صرامة، واتسمت الحكومة التى تولت فى هذه الفترة بالرجعية والفساد، وألغيت القوانين المستنيرة التى أدخلها نابليون إلى إيطاليا، وقضى على حرية الصحافة وكممت الأفواه، وحرمت الاجتماعات وطورد دعاة الوحدة والتحرر فى كل مكان.

كان الشعب الإيطالى بعد أن هزت مشاعره مبادئ الثورة الفرنسية، قد أحس بمزايا الوحدة، لم يقبل للخضوع لحالة التمزق، وفى مواجهة بطش الحكومات المتحالفة مع النمسا، لجأ الشعب الإيطالى إلى تكوين الجمعيات السرية التى تسعى إلى تحقيق أهدافه القومية، من أشهر هذه الجمعيات جمعية الكاربونارى التى تأسست فى نابولى، وانتشرت بين صفوف العسكريين والمثقفين، وأنشئت لها فروع فى أنحاء إيطاليا.

وفى سنة ١٨٢٠ تمكن الكاريونارى من إشعال الثورة فى نابولى وأرغمت الملك على إنشاء دستور جديد وسرعان ما انتقلت إلى بيدمونت وجعلت الملك يتنازل عن حكمه لولى عهده ولكن تحركت جيوش النمسا وسرعان ما استعادت زمام الأمور وأخمدت الثورة فى كل مكان.

وعلى إثر قيام ثورة سنة ١٨٣٠ فى فرنسا تجددت ثورات الكاربونارى، وتركزت فى الولايات البابوية ودوقيات الوسط، وتمكن الثوار من السيطرة على بعض هذه الدوقيات لكن سرعان ما أن تحرك الجيش النمساوى وقضى على تجمعاتهم، ولم تقدم فرنسا بعد نجاح الثورة فيها على المساعدة التى كان ينتظرها الإيطاليون لكن ساعدت فى قمع الثورة بعد تجددها فى الولايات البابوية فى عام ١٨٣٢.

وكان سبب فشل ثورات الكاربونارى عدم انتشارها بين صفوف الشعب وطبقاته المختلفة، وأيضاً عدم وضوح أفكارها.

جمعية إيطاليا الفتاة

ومن بين أعضاء الكاربونارى السابقين برزت شخصية جوزيف ماتزينى الذى تعرض إلى السجن والنفى وصدر عليه حكم غيابى بالإعدام وأسس ماتزينى ١٨٣١ وهو فى المنفى فى مارسيليا جمعية إيطاليا الفتاة، وأشعل فى قلوب مواطنيه نار الوطنية وزودهم بقوة الأمل بأن «إيطاليا ملكة العالم، وأرض دانتى، مركز البابوية، مهد النهضة، ومبعث النور والحرية لن تموت، بل ستبعث وتعيد سيرتها الأولى» وقال ذلك لن يحدث إلا إذا قدم الإيطاليون أرواحهم فداء للوطن وعانوا من النفى والسجن بسبب المعتدى الغاصب النمسا وحدد ماتزينى الهدف الذى يسعى إليه وهو إقامة الجمهورية فى إيطاليا الموحدة.

وهكذا لم تكن إيطاليا الفتاة مجرد حزب أو جمعية إنما كانت روحا

سرت فى إيطاليا بعثت فيها الحيوية والإقدام ولهذا أطلق على ماتزينى «روح الثورة الإيطالية» و«نبى الوحدة الإيطالية».

إلى جانب إيطاليا الفتاة ظهرت بعض الأحزاب الأخرى التى سعت أيضاً إلى توحيد إيطاليا والنهوض بأبنائها، وإن اختلفت فى إيطاليا الفتاة عن عدم إيمانها بالاتجاه الجمهورى ومن أهم هذه الأحزاب:

الحزب البابوى الاتحادى: الذى تزعمه البابا بيوس التاسع الذى قام بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، ووافق على إنشاء مجلس استشارى من العلمانيين، وجيش أهلى يحل محل المرتزقة، وأنشأ مجلساً بلدياً لمدينة روما، وساوى القساوسة بالأهالى فى دفع الضرائب وقد أزعجت هذه الإصلاحات طاغية النمسا مترنيخ وصرح قائلاً: لقد كنا نتوقع كل شىء ماعدا ظهور بابا حر، والآن قد ظهر فلا حد لما سنراه فى المستقبل.

الحزب الملكى: الذى تزعمه المللك شارل البرت بيدمونت منذ ١٨٣١ وهو الذى أخذ يتجاوب مع الحركات الحرة ووافق على مراجعة القانون الجنائى وتخفيض الرقابة على المطبوعات، وتعديل قانون الاجتماعات العامة، وأعلن استعداده لخوض حرب ضد النمسا لتحرير إيطاليا

ورغم فشل الثورات التى سبق ذكرها إلا أن إيطاليا لم ترضخ للهزيمة، إذ وعت الحرب، وبدأت الاستعداد لجولة جديدة من الكفاح، وانعقدت الآمال فى هذه المرحلة على ملكها الجديد فيكتور عمانويل، الذى تولى العرش سنة ١٨٤٩ بعد تنازل والده شارل ألبرت نتيجة لهزيمته من النمسا، وقد أعلن فيكتور عمانويل استمرار تأييده للحكم الدستورى، وعمل على النهوض بالمملكة وتنمية ثروتها وتعزيز جيشها لتستطيع القيام بالمهمة المرجوة منها.

وفى هذه الفترة لمع النجم السياسى كافور (١٨١٠ ـ ١٨٦١) وقد تولى

كافور وزارة الزراعة سنة ١٨٥٠، وأصبح رئيساً للوزراء سنة ١٨٥٢، ورغم أنه كان ينتسب لطبقة النبلاء إلا انه كان يؤمن بالمبادئ الحرة والعدالة الاجتماعية والنظم الدستورية، وكان يتولى فى ذلك الوقت جريدة يومية ذات اتجاه حر، وإلى جانب ذالك كان كافور يتصف بالولاء والإخلاص الشديد لإيطاليا ولقضية الوحدة، وأهلته كل تلك الصفات ليلعب دورا أساسيا فى توحيد إيطاليا.

وضع كافور سياسة ذات شقين: داخلى وخارجى، حتى تتمكن بيدمونت من أن تلعب دورها التاريخى المنتظر.

أ ـ ففى مجال السياسة الداخلية:

اهتم كافور بالزراعة والصناعة وعقد المعاهدات التجارية وشجع على تأسيس الجمعيات التعاوينة والبنوك وأنشأ السكك الحديدية، كما أعاد تنظيم الجيش وتسليحه.

ب ـ وفى مجال السياسة الخارجية:

عمل على البحث عن حليف يساعد فى حربه القادمة مع النمسا وهذا الحليف هو فرنسا، لذلك انضم مع فرنسا وبريطانيا ضد روسيا فى حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦ بهدف كسب صداقة وتأييد فرنسا على وجه الخصوص.

وعقد اجتماعا سريا مع ملك فرنسا نابليون الثالث، واتفق الطرفان بصورة سرية أن تنضم فرنسا بجانب بيدمونت ضد النمسا بشرط أن تكون النمسا هى البادئة بالحرب، وبعد طرد النمسا من إيطاليا تنضم المقاطعات إلى بيدمونت وتكونت مملكة شمال إيطاليا، التى تدخل فى اتحاد مع مملكة إيطاليا الوسطى ومملكة نابولى وروما، ويتولى البابا زعامة هذه الدول الاتحادية وتكون مكافأة فرنسا الحصول على مقاطعتى نيس وسافوى من بيدمونت.

الحرب مع النمسا:

بعد أن عقد كافور هذا الاتفاق مع نابليون الثالث وعمد على استفزاز النمسا حتى أعلنت الحرب على بيدمونت فى أبريل سنه ١٨٥٩، وقامت بالهجوم على أراضى بيدمونت، ودخلت فرنسا الحرب، وهزم النمساويون واضطروا إلى الانسحاب، وقامت الثورات فى توسكانيا وموربنا وبارما وفى الولايات البابوية، ويبدو أن نابليون تخوف من الروح الثورية، فعقد هدنة منفردة مع النمسا، واتفق مع إمبراطورها فى يوليو ١٨٥٩على أن تتنازل النمسا عن لمبارديا لبيدمونت ويعاد الأمراء إلى إماراتهم بشرط العفو عن رعاياهم الثوريين (كان الشعب قد قام بطردهم وأعلن الانضمام إلى بيدمونت).

وعندما وجدت بيدمونت وحيدة فى مواجهة النمسا اضطر الملك عمانويل إلى قبول الشروط السابقة، واستقال كافور غاضباً من خيانة نابليون ومن تخاذل الملك، لأنه اعتبر الحصول على لمبارديا فقط لا يحقق الأمانى التى كان يعقدها على نتائج الحرب.

ولكن الشعب الثائر فى توسكانيا وبارما وموربنا وروما رفض الخضوع لحكامه السابقين، وأصر على الانضمام إلى بيدمونت، مما حدا بكافور إلى العودة إلى السلطة فى يناير ١٨٦٠، ودخل فى مفاوضات جديده مع نابليون الثالث ليحصل على موافقته على ضم تلك الإمارات إلى بيدمونت مقابل حصول فرنسا على نيس وسافوى (اللتين لم تحصل عليهما فرنسا نتيجة انسحابها من الحرب) ووافق نابليون بشرط إجراء استفتاء للأهالى، وفعلاً أجرى الاستفتاء ووافق الأغلبية على الانضمام لبيدمونت، وفى نفس الشهر حصلت فرنسا على الثمن وهما نيس وسافوى.

وهكذا خطت حركة الوحدة الإيطالية خُطوة كبيرة فى طريق النجاح، ولم يبق لتحقيق الوحدة الكاملة سوى ضم نابولى والبندقية والممتلكات البابوية (بما فيها روما).

لما كانت هناك صعوبات جمة تعترض ضم البندقية والممتلكات البابا وية، فقد آثر كافور البدء بضم نابولى، وعهد كافور بهذه المهمة إلى غاريبالدى.

ويعتبر غاريبالدى (١٨٠٧ ـ ١٨٨٢) من الشخصيات الفذة التى أنجبتها إيطاليا فى القرن التاسع عشر، ولقد لعب دورا عظيما فى حركة الوحدة الأيطالية لا يقل عن الدور الذى لعبه كل من ماتزينى وكافور، وإذا كان ماتزينى هو (روح الحركة)، وكافور هو عقلها المدبر، فإن غاريبالدى الجندى الشجاع والمقاتل الباسل كان يد الحركة الضاربة وسلاحها المشهر فى وجه أعدائها.

آمن غاريبالدى فى مطلع شبابه بأفكار ماتزينى واشترك فى الثورات والمؤامرات التى قامت سنة ١٨٣٥، وفر فى أثرها إلى أمريكا الجنوبية، حيث اشترك فى حرب العصابات هناك ضد الأسبان، ثم عاد إلى إيطاليا والتحق بقوات بيدمونت فى حربها ضد النمسا سنة ١٨٤٨.

وبعد هزيمة بيدمونت فى هذه الحرب ساهم مع ماتزينى فى تأسيس جمهورية روما سنة ١٨٤٩، وناضل نضال المستميت دفاعاً عن هذه الجمهورية ضد قوات فرنسا الغازية، ولكنه بعد هذه التجربة الفاشلة تراجع عن أفكاره الجمهورية وأيد سياسة كافور وفيكتور عمانويل، وكان هو بطل الحرب ضد النمسا ١٨٥٩م.

وفى مايو ١٨٦٠ كون غاريبالدى فرقة من ١٠٠٠ رجل عرفوا باسم القمصان الحمراء نزل بهم فى جزيرة صقلية واستولى على العاصمة «باليرمو» ثم عبر المضيق وتقدم شمالاً ودخل مدينة نابولى عاصمة المملكة فى سبتمبر ١٨٦٠ ولم يبق أمامه سوى بعض الحصون وتصبح المملكة فى قبضته.

وهنا أمر كافور أن تتحرك قوات بيدمونت لمعاونة غاريبالدى، لوقف مؤامرات البابا الغاضب على بيدمونت لضمها لروما، وهدد البابا بإعلان الحرب الدينية على بيدمونت وهزمت قوات البابا واحتل جيش بيدمونت

أملاك البابا ما عدا روما، ثم تقدموا فى أراضى نابولى وانضموا إلى غاريبالدى، وتعاون الجيشان فى إخضاع باقى أراضى نابولى، وفى أكتوبر سنو ١٨٦٠ أجرى استفتاء فى نابولى وصقلية ووافقوا على الانضمام إلى بيدمونت.

وفى ١٧ مارس سنة ١٨٦١ أعلن أول برلمان إيطالى قيام «مملكة إيطاليا» ونودى فيكتور عمانويل ملكاً عليها وقامت الحكومة على أساس دستور بيدمونت سنة ١٨٤٨م.

وفى ٦ يونيو من السنة نفسها توفى كافور بعد أن قدم لإيطاليا أجل الخدمات، وقد اتصف خلال الفترة التى تولى فيها الحكم بالجرأة مع الاعتدال، والصبر مع بعد النظر وبالمهارة السياسية الفائقة.

■ ■ ■

10

الثورة المكسيكية..

وإيمليانو زاباتا



في عام ١٩١٠، قبل قرن كامل تقريبا، اندلعت الثورة المكسيكية، أولى ثورات القرن العشرين الشعبية، ودامت فصولها، من غير انقطاع تقريباً، ٣٠ عاماً كاملة، فلم تستقر إلا في ١٩٤٠، وخلفت نظاماً حاكماً حزبيًّا دام بدوره ٦٠ عاماً، قاده الحزب الثوري النظامي (أو المؤسسي).

فلم يتخلَّ عن الحكم، ورئاسة الجمهورية رأسه ومفتاحه والقوة الراجحة فيه، إلا في العام ٢٠٠٠، مع انتخاب فيثينتي (فيسنت) فوكس إلى الرئاسة.

وخلفت الثورة مليون قتيل، وهي ثورة اجتماعية كان الفلاحون والعمال الزراعيون من أصل هندي أصحابَها والمنخرطين فيها وقادةَ بعض حوادثها وفصولها المحلية، وهي حرب أهلية وسياسية ووطنية استقلالية، قضى من أولئك المليون نحو مئة ألف في المجاعات وبالأنفلونزا الإسبانية، وقتل ٢٠٠ ألف في المعارك المتنقلة، نصفهم من المدنيين.

ولابست الثورة المكسيكية أسماءَ أعلام، بعضهم معروف ومشهور، مثل أميليانو زاباتا وبانشو فيللا، وهما من قادة الحركة الفلاحية، أو فرانشيسكو ماديرو وألفارو أوبريغون وألفارو كارديناس، وهم من الرؤساء الذين تعاقبوا على القيادة السياسية والعسكرية، وأرسوا المكسيك والحكمَ على أبنية سياسية استقرت بعض الوقت، وأسهمت في جلاء قسمات الأمة المكسيكية و«شخصيتها» التاريخية.

واتفق ابتداء الثورة، في ١٩١٠، مع الذكرى المئوية الأولى لاستقلال

المكسيك عن أسبانيا، فى ١٨١٠م. وفى ختام العقد الأول من القرن العشرين، انتخب الجنرال بورفيريو دياز رئيساً لولاية سابعة. وهو كان تربع فى سدة الرئاسة فى ١٨٧٦م. وانعطف المكسيك، ذلك البلد الشاسع المساحة (مليونا كيلومتر مربع) والكثير السكان (فوق ١٥ مليوناً منهم مليونان من الهنود)، إلى حرب دمرت أركان حكم دياز ونظامه، دام فصلها الأول عقداً من السنين (١٩١٠ ـ ١٩٢٠).

كانت فاتحة الحرب أزمة سياسية حادة أخرجت الجنرال المسن من الرئاسة فى ١٩١١، ليتولاها مرشح ديموقراطى خلفاً له، هو ماديرو، الذى اغتيل فى ١٩١٣، لتنشب بعدها حروب بين الفصائل الثورية والشعبية دامت ستة أعوام (١٩١٤ ـ ١٩٢٠).

وطوال العقدين اللاحقين، توالى على السلطة جنرالات ثوريون يشتركون فى انتسابهم إلى ولاية سونورا، على الحدود المكسيكية ـ الأميركية، خلف الجنرالات واحدهم الآخر، وتولّوا بناء المكسيك وإعماره وإرساء حكمه على أبنية سياسية واجتماعية قوية وتوحيد طبقاته الحاكمة فى كتلة مستقرة ومتجانسة.

وعشية انهيار نظام دياز، الذى اضطلع بالسلطة ٣٥ سنة، حكم المكسيك رؤساء ليبراليون، آخرهم بينيتو خواريث (خواريز).

وفى أثناء عهد خواريث، ١٨٦١ ـ ١٨٧٢، تقدَّمَ المكسيك دول أميركا الجنوبية وتصدَّرَها، وجمع السيادة الشعبية إلى الحكم المدنى، والفيديرالية إلى فصل الدولة عن الكنيسة والحرية الدينية. وردَّ بورفيريو دياز المكسيكَ فى غضون سنوات قليلة إلى النظام القديم والمحافظ، فسادت الأسر المتكتلة والمتحالفة، وغلبت شبكات الولاء وكتل «الزبائن»، واختصر الوجهاء القرى والمدن ونابوا عنها. وفاز دياز بولاياته الرئاسية المتعاقبة والمتصلة جرّاء لجْمِه مجلس الشيوخ والبرلمان، وسيطرتِه على حكام ولايات الاتحاد

الفيديرالى المكسيكى. ولعل عهده المتطاول مرآة أعراف وعادات سادت دول جنوب أمريكا.

وصدرت الأعراف والعادات هذه عن حمل المجتمع، إذا لم تَقُدْه نخبةٌ متنورة وحازمة، على غاب «شريعتُه» الاقتتال والفوضى والبربرية، وغلب على النخب السياسية والاجتماعية والثقافية مثال «حكومة العلماء»، وجدارتهم وحدهم بالسلطة وتصريفها، ونسبت النخب هذه إلى نفسها، وإلى من تندبهم وتنيبهم عنها، القدرةَ على ولاية السلطة والدولة، وعلى «تدجين» العامة الحرون.

وتضمن الكنيسة الكاثوليكية هرمَ المراتب الاجتماعية، وتؤيده بدالتها المعنوية. والحق أن دور المستثمرين الأجانب، الأوروبيين والأميركيين الشماليين، لا يستهان به كذلك. وتتصدر الإمبريالية الأميركية، المالية والتجارية والعسكرية، القوى الأجنبية الأخرى، تأثيراً وترجيحاً.

وشاغل الولايات المتحدة الأول هو السيطرة على مضيق تيهووينتيبك بين المحيطين الأطلسى والهادئ، ما دعا دياز إلى القول الشهير «يا لتعس حظ المكسيك، فهو بعيد من العناية الإلهية وقريب من الولايات المتحدة».

كان معظم سكان المكسيك فى ١٩١٠ من المزارعين (٦٢ فى المئة من العاملين)، وكان المزراعون غير متجانسين، ففيهم ملاّكو المزارع الشاسعة، وأصحاب المزارع المتواضعة، وملايين الفلاحين المعتاشين اعتياش الكفاف.

ورغم الحرب، بلغ نمو الاقتصاد المكسيكى ١٢ فى المئة فى السنة، وكانت الصادرات المنجمية والزراعية قاطرة النمو، وربطت السكة الحديد أنحاء البلاد الواسعة والمتباعدة برابط قوى، وقوت العلاقة بالولايات المتحدة.

واستصلحت الأراضى الاستوائية المهملة، وتأخرت الزراعات الغذائية، وعادت معظم عوائد الازدهار إلى الأسر المختلطة القديمة المتحالفة مع الليبراليين، بينما

تردَّت أحوال الطبقات المتوسطة التقليدية ومعها شطر من الريفيين.

وجنت الولايات الشمالية القريبة من الولايات المتحدة أرباحاً من قربها، وشهدت طفرة اقتصادية نجمت عن استغلال الموارد الطبيعية والخامات، مثل النحاس والمعادن الثمينة والنفط، ووُلدت الصناعات المحلية الكبيرة فى العشر الأول من القرن العشرين، على تواضع عدد العمال (١٩٥ ألفاً) قياساً على عدد الحرفيين (٥٠٠ ألف).

وتوالت حركات إضراب كبيرة قُمعت قمعاً قاسياً فى ١٩٠٦ (مناجم النحاس) و١٩٠٧ (صناعة النسيج). وحاول الفلاحون الهنود والخلاسيون استعادة أراضيهم المصادرة فى سلسلة جبال شيهواهويا، وقلما تخطت الحركات إطارها المحلى أو البلدى.

وتضافرت على طى حقبة بورفيريو دياز ثلاثة عوامل: الأول تذمر اجتماعى حاد، والثانى فراغ سياسى فاغر، والثالث بلورة المعارضة لغة سياسية مشتركة وجامعة، فأعراض التذمر الاجتماعى أصابت الطبقات الشعبية، والريفيين الذين خسروا الأرض، والطبقة العاملة الناشئة فى أحضان المراكز الصناعية الكبيرة. واشتركت النوادى الليبرالية التى يرتادها الماسونيون والمدرسون الابتدائيون والطلاب وأصحاب المهن الجامعية الحرة فى المبادرات والمناقشات.

وازن دياز الولايات المتحدة ومصالحها بالأوروبيين واليابانيين، وانحاز إلى مصالحهم، ومنحهم تسهيلات مرفئية.

وأدى انسحاب دياز من الحياة السياسية عشية ختام ولايته السابقة إلى أزمة سياسية، وتزاحم السياسيون على خلافته.

وفى أواخر ١٩٠٩، عاد الجنرال المسن عن انسحابه وقرر الترشح إلى ولاية سابعة، فلم يبق فى حلبة المنافسة غير مرشح شاب هو فرانشيسكو

ماديرو (٣٧ عاماً)، يتحدر من أسرة شمالية كبيرة.

وترك دياز ماديرو يقود حملة حسبها الرئيس خاسرة، فجمع ماديرو أنصار جنرال منسحب كان ترشح إلى الخلافة، إلى الليبراليين والنقابيين «الفوضويين» والعمال وأصحاب المزارع الصغيرة وفلاحى الجنوب، وعلى رأسهم إميليانو زاباتا (ثاباتا)، والكاثوليك. وجُدد انتخاب دياز، ولكن هذا أمر باعتقال منافسه، فهرب ماديرو إلى الولايات المتحدة، ودعا إلى التمرد والثورة. واستجاب عمال الشمال تحت لواء قائد عمالى محلى، باسكوالى أوروذكو، ولحق بهم بعد أشهر قليلة فلاحو ولايتى موريلوس ويوكاتان. وأعلنت الولايات المتحدة مساندتها ماديرو وتأييده، واستقال دياز فى منتصف ١٩١١، وغادر المكسيك إلى فرنسا، حيث وافته المنية.

ودخل ماديرو مكسيكو منتصراً، فلم تلبث الحزازات والخلافات أن حلت محل الإجماع السابق على معارضة تجديد ولاية دياز.

وقام النقابيون «الفوضويون» على الرئيس الجديد، وأعلنوا إنشاءهم جمهوريتهم فى كاليفورنيا. وانتفض الفلاحون تحت لواء زاباتا وأوروذكو، اللذين اشترطا تقسيم المزارع الكبيرة وتوزيعها على صغار المزارعين والضيع المجاورة.

وسرعان ما تخلى بعض أنصار ماديرو عنه، هو من حظى بـ٩٠ فى المئة من أوراق المقترعين، فبعض أنصاره خيَّبهم احترامه المتشدد الفصل بين السلطات، وإحجامه عن الاقتصاص من أنصار دياز.

وأثار ماديرو حفيظة قادة الفلاحين الثائرين، وفى مقدمهم زاباتا وفيللا (فيبا). ووثق بكبار الضباط، وأوكل حمايته إليهم. فتآمروا وانقلبوا عليه وعزلوه قبل أن يُقْدِم أحدهم، الجنرال فيكتور يانو هويرتا، على اغتياله فى أوائل ١٩١٣م. وهذا قرينة على ضعف التقاليد الديموقراطية فى مكسيك مطلع القرن.

وحمل تحفُّظُ الرئيس الأميركى ويلسون عن الجنرال القاتل، وأمْرُه بحجب السلاح عن القوات المكسيكية، أقرانَ الجنرال على الانفضاض عنه وطرْده من الرئاسة. واجتمع زاباتا فى الجنوب، وفيللا فى الشمال، والحاكم فينو ستيانو كارانذا على رأس «جيشه الدستورى»، اجتمعوا على محاربة هويرتا، وآذن ذلك بـ «زمن القلاقل»، على ما سمى المؤرخ المكسيكى، جان مايير، الأعوام ١٩١٤ ـ ١٩٢٠ (على مثال الزمن الروسى المضطرب الذى سبق عهد آل رومانوف)، فاحتربت الجماعات الثورية، وأسقطت الجنرال، فانحلت الدولة الوطنية ورابطتها الجامعة. وانتصب قائد كل فريق حكماً مرجحاً من غير امتلاك قوة على الحسم والتغلب على الخصوم.

وأراد كارانذا، ومعه الدستوريان وأوبريجو وكاييس (وهما جنرالان ورئيسان لاحقان)، إحياء سلطة مركزية جديدة.

وكان عليه مقارعة فيللا ورجاله الذين يعدون ٤٠ ألفاً (فى ١٩١٤)، وهم فلاحون ومزارعون معسرون. وإلى فيللا حليفه الجنوبى، أميلينو زاباتا، على رأس جيش من الفلاحين المحافظين، يعدون ٢٠ ألفاً.

وعقد مؤتمر ثورى، فى أواخر ١٩١٤، تداول مؤتمروه فى صلح فرق المقاتلين الثوريين. وأنكروا على كارانذا، وهو حظى فى هذه الأثناء بمساندة الأميركيين، استلام مقاليد الحكم. فخرج كارانذا من المؤتمر، وتبعه أوبريجون. واستولى الاثنان على أوريذابا، ثم على فيراكونذ.

وسيطرا تالياً على موارد النفط، بينما استولى زاباتا وفيللا على مكسيكو العاصمة، وبسطا سلطتهما أواخر ١٩١٤ على معظم أراضى المكسيك.

واستعاد أوبريجون العاصمة فى أوائل ١٩١٥، وهاجم وسط المكسيك، حيث تحصن فيللا.

وطاردت القوات الحليفة زاباتا وأنصاره فى موريليوس، فجمع كازانذا

قواته المنتصرة فى كويرتاروز.

وفى وفى ظرف أربعة أشهر صاغ دستوراً أعلنه فى أوائل ١٩١٧، وانتخب رئيساً فى الأول من أيار (مايو).

أفضى هذا إلى تقوية السلطة الرئاسية، وإلى إضعاف نظائرها كلها، الاقتراع الفعلى، الفيديرالية، الحرية البلدية، ومعارضة التجديد، فالسلطة التنفيذية هى صاحبة المبادرة التشريعية، ولا يسع المجلسان التشريعيان مراقبتها وتقييدها.

ولم يَحُلْ هذا دون الانقلاب على كاراندا واغتياله فى ٢٠ أيار ١٩٢٠م. وتفشى العنف فى المجتمع كله. فقمعت إضرابات العمال، وسحقت انتفاضات الفلاحين، واضطهد الصحافيون والسياسيون.

وباشرت هذا العنف فى ١٩١٤ ـ ١٩٢٠، عصابات كارّاندا وفيللا وزاباتا من غير تمييز. وحملت العصابات خصومها على أهل بلاد أجنبية محتلة. فدأبها إذلالهم وقهرهم وإنكار إنسيتهم وإرهابهم، شأن الضباط والجنود النظاميين فى العهد العسكرى السابق.

وتوسلت القوات الثورية إلى الاستيلاء والغلبة بالإعدامات والاغتيالات والاغتصاب والنهب، فالحرب ضرب من الغزو والغنيمة والسبى. والطبقات الشعبية، وفى مقدمها الفلاحون، هى ضحية الحرب.

وأودت فصول الحرب وجولاتها، بين ١٩١٤ و١٩١٩، بربع مليون قتيل فى ميادين القتال وجراء المجاعة والوباء. وتحدرت الطبقات السياسية الجديدة من الجنرالات والضباط الثوريين.

وهؤلاء معظمهم من الطبقات المتوسطة ومدرسيها وتجارها ومحاميها وموظفيها الإداريين والمكتبيين، فكانت الحروب الثورية مدرج هؤلاء إلى ارتقاء اجتماعى بدا فى عهد دياز مستحيلاً.

وفى ١٩٢٠، سطع نجم أوبريجون. فهو سبق إلى إدراك تعب السكان والحاجة إلى استمالة الأمريكيين الشماليين، وانتبه إلى غلبة الأفق المحلى على الحركات الفلاحية، وعجزها عن إنشاء أحلاف ثابتة وقوية، فمال إلى محالفة اتحاد العمال المكسيكيين.

وجند الاتحاد «السرايا الحمر» تحت لوائه، فوسعه الترجح بين هؤلاء، تارة، وبين القوات الدستورية، وهى حضنه الأول، تارة أخرى. وخوَّلَه انتخاب رئيس مؤقت فى يونيو ١٩٢٠، ادولفوادو لاهويرتا، من ولاية سونورا مثله، تجنب ارتكاب التجديد الذى يحظره الدستور.

فلما انقضى وقت الولاية المؤقتة، انتخب أوبريجون بـ ٩٠٪ من الأصوات.

وتجدد العنف فى أواخر عهده، فى ١٩٢٤، ولم يكن مصدره - هذه المرة - من الفلاحين وحركاتهم، فزاباتا اغتيل فى ١٩١٩م.

وقتل فيللا فى ١٩٢٣، فمصدر العنف، هذه المرة، هو الدولة، ركن النظام الاجتماعى.

وعندما اقترح أوبريجون ترشح الجنرال كاييس إلى خلافته، آملاً فى العودة إلى الحكم فى ختام ولاية مرشحه، قام عليه بعض كبار ضباط القوات المسلحة وراء الجنرال دولاهويرتا.

ولم يتردد أوبريجون فى إعدام نواب من أنصار خصومه، فى أثناء انعقاد الجلسة التشريعية، ترهيباً.

وانتصر أوبريجون على تكتل خصومه وسحقهم. وهرب دولاهويرتا إلى الولايات المتحدة. فأعدم أوبريجون ٥٠ جنرالاً وعدداً من السياسيين. ودجن المجلسين التشريعيين، وفاز مرشحه إلياس كاييس بالرئاسة، واعترض شطر من القيادة العسكرية على تجديد انتخاب أوبريجون، فى أواخر عهد كاييس، خليفته ومرشحه من قبل، فأقدم كاييس على تطهير الجيش.

وانتخب أوبريجون إلى ولاية جديدة اغتيل فى بدايتها (فى يوليو ١٩٢٨).

وانتفض الفلاحون على سياسة كاييس المناوئة للكنيسة. ودامت انتفاضتهم، وحربهم «المسيحية» ٣ أعوام.

وكبَّد الجيش المتمردين، وسانده الريفيون المستفيدون من الإصلاح الزراعى، ٣٠ ألف قتيل أحصوا فى ضحايا الثورة المكسيكية وخسائرها الكثيرة.

وفى العقد الرابع هذا، نجم العنف عن إرادة الرئيسين أوبريجون وكاييس، «تمدين» المكسيك عن يد الدولة وجهازها. وعمد الرئيسان إلى قتل معارضيهم، ثوريين كانوا أم «كريستيروس» (جنود المسيح). وهما من عمد إلى عقد حلف مع العمال، ثم مع الفلاحين المستفيدين من الإصلاح الزراعى. وتولى كاييس صوغ قانون مدنى جديد. وهو أرسى حلف المكسيك الوثيق والثابت بالولايات المتحدة.

والرئيسان داعيتان علمانيان. ويعود ختام عهد القادة العسكريين الانقلابيين إلى كاييس نفسه. وهو أنشأ، فى ١٩٢٩، الحزب الوطنى الثورى، سلف الحزب الثورى النظامى.

واحتفظ الرجل بنفوذه إلى حين انتخاب كارديناس، فى ١٩٣٤م. وعلى رغم قسوته، وعلى الرغم النظام الثورى ليس شمولياً، فهو لم يستقو بإيديولوجية، وإقراره حظر التجديد على الرؤساء قاد إلى تجدد الطاقم السياسى الحاكم وإلى «حراك» اجتماعى غير مسبوق.

ومكن الريع النفطى الدولة المكسيكية من انشاء ادارة متخمة بالموظفين، وتنظيم القطاعات الاجتماعية المتفرقة، وقسرها على الائتلاف.

ومن المؤكد أن فى تاريخ الثورة المكسيكية (١٩١٠ - ١٩٢٠) أحداثاً تفوق ما قدمه خيال منتجى السينما الأميركية فى هوليوود.

فما زالت الثورة المكسيكية إلى الآن تحمل فى طياتها الكثير من

التفاصيل المثيرة والمدهشة لم يتم بعد الكشف عنها.

إضافة إلى ذلك هناك أيضاً مادة غنية من الحقيقة تكمن فى ذلك العنف والتراث الرومانتيكى للثورة حيث إنها دفعت فرانك مكلاين مؤلف كتاب «فيللا وزاباتا» إلى أن يطلق على روايته اسم «الإلياذة» وأن يقارن شخصياتها الرئيسية مع الشخصيات التى وردت فى نص الملحمة الإغريقية الأصلى.

يصف فرانك مكلاين المكسيك بأنها بلد الغموض والتناقض ثم يحاول فى كتابه هذا أن يقتفى أثر الثورة المكسيكية من خلال حياة أهم شخصيتين فيها وأكثرهما بروزاً وشهرة: باتشو فيللا وأميليانو زاباتا.

وفى مقدمته للكتاب لا يخفى مكلاين استعانته أحياناً ببليوجرافيا فردريثى كاتس وجون دوماك وكذلك كتاب ألان نايت «الثورة المكسيكية» غير أن مكلاين على خلاف غيره ممن تناولوا الثورة المكسيكية يبدى حساسية شديدة وحذراً كبيراً إزاء بطليه وعالميهما وذلك بسبب أن فيللا وزاباتا هما شخصيتان مختلفتان رغم أنهما يشتركان بسِمَةٍ واحدة وهى عدم رغبتهما بالحكم.

الفلاح القائد كان كلاً من فيللا وزاباتا شخصين بسيطين، ليسا بسياسيين تقليديين.

ففيللا هو قاطع طريق بالطبيعة والتطبع لكنه كان يميل جدّاً ويعجب بالمثقفين أمثال مادريو الذى يعتبر الأب الروحى له. كذلك كان فيللا يخفى فى داخله بعض الطموحات الخارجة عن طبيعته المكسيكية الشمالية.

كانت الثورة تعنى عنده معركة ضد الحكومة المركزية الجائرة لأجل تحقيق الحقوق الإقليمية والمحلية.

كذلك معروف عنه أنه وقع عام ١٩١٤ عقداً هوليووديّاً خاصّاً مع شركة «موتوال» السينمائية بقيمة (٢٥) ألف دولار لتصوير كل معاركه تحت ضوء النهار أو إقامة الديكورات وأداء دوره بنفسه.

وكانت شهرة فيللا قد شاعت قبل ذلك فى كل من أميركا الشمالية والمكسيك باعتباره (روبن هوود) عصره.

أما زاباتا المتحدر من مدينة موريلون الجنوبية فقد كانت له أهداف وبرامج تقريباً. كان حلمه يتمثل بإعادة الأرض المسروقة إلى الفلاحين ولم يكن يقبل أى مساومة على ذلك.

■ ■ ■

11

الثورة الروسية..
وفلاديمير لينين



تعتبر الثورة الروسية من الأحداث المهمة التى عرفها القرن ٢٠ ، والتى أدت إلى وصول الاشتراكيين إلى الحكم، وتأسيس الاتحاد السوفياتى.

فما هى العوامل التى ساهمت فى حدوث الثورة؟وكيف حدثت الثورة وبناء دولة الاتحاد السوفياتى؟

هناك ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية مهدت لحدوث الثورة الروسية أهمها:

١ ـ تأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

ـ **ففى البوادى:** كانت الفلاحة عماد الاقتصاد الروسى، عرفت تحولات بإلغاء القيصر الكسندر الثانى (١٨٥٥ ـ ١٨٨١) نظام القنانة سنة ١٨٦١، وبيع بعض الأراضى للجماعات القروية قصد الانتفاع بها دون أن يكون لها الحق فى البيع أو التفويت فى إطار نظام المير (المشاعيات)، غير أن تدهور وضعية البوادى واستمرار انتفاضات الفلاحين جعل الدولة تلغى نظام المير، وسمحت سنة ١٩٠٦ ببيع الأراضى للنبلاء، وأدى إلغاء نظام المير إلى هجرة عدد هام من الفلاحين الفقراء (الموجيك) إلى المدن.

ـ **وفى المدن:** عرفت الصناعة خلال القرن ١٩ تطورا بفضل تشجيع الدولة (استخلاص الضرائب من الفلاحين، مد السكك الحديدية) وهجرة سكان البوادى إلى المدن، والانفتاح على الاستثمارات والقروض الأجنبية، وبرزت مدن صناعية كبرى كسان بيترسبورج (بتروجراد) وموسكو وأوديسا،

وظهرت طبقة عاملة محدودة العدد (٣ ملايين سنة ١٩١٣) لكن مطالبها من أجل تحسين وضعيتها الاجتماعية كانت كثيرة.

٢ - وجود نظام حكم فردى استبدادى وظهور أحزاب معارضة وبسبب المشاركة فى الحرب:

- نظام الحكم: خضعت روسيا لحكم قياصرة آل رومانوف، الذين مارسوا حكما فرديا استبداديا (أوتروقراطيا)، مدعمين من طرف النبلاء ورجال الدين الأرثوذكس والجيش، ونتج عن ذلك حدوث انتفاضات أبرزها انتفاضة ١٩٠٥ (بعد هزيمة روسيا أمام اليابان) بسبب كثرة الضرائب وارتفاع الأسعار، ورغم فشلها فقد جعلت القيصر نيقولا الثانى يدعو إلى انتخاب مجلس الدوما الذى تم حله بعد ذلك.

- الأحزاب المعارضة: شهدت روسيا ظهور تنظيمات سياسية ذات توجهات متباينة أبرزها:

■ **الحزب الاشتراكى الثورى:** تأسس سنة١٨٩٠، يمثل الفلاحين وكان هدفه الإطاحة بالقيصر وتحقيق اشتراكية فلاحية، ويرفض تصنيع البلاد.

■ **الحزب الدستورى الديمقراطى (الكاديت):** تأسس سنة ١٩٠٥ يمثل البرجوازية، تزعمه المؤرخ ميليوكوف، وهدفه إقامة نظام برلمانى وإقرار الحريات العامة.

■ **الحزب الاشتراكى الديمقراطى:** تأسس سنة ١٨٩٨ الذى انقسم بسبب الاختلاف حول سبل تطبيق الاشتراكية فى مؤتمر بروكسل سنة ١٩٠٣ إلى:

- المناشفة (الأقلية) تزعمه مارتوف، وهو حزب اشتراكى يرى إقامة نظام اشتراكى تدريجيا عبر ثورة ديمقراطية بتحالف مع البورجوازية.

- البلاشفة (الأغلبية) تزعمه لينين، وهو حزب ثورى يرى إقامة نظام

اشتراكى باستيلاء الطبقة العاملة (البروليتاريا) بالقوة على السلطة بتحالف مع الفلاحين والبرجوازية الصغرى، نشر أفكاره من خلال إصدار صحف سرية: إيسكرا (الشرارة) والبرافدا (الحقيقة).

■ واجه القيصر الأحزاب المعارضة بالقمع (الاعتقال والنفى)، فلجأ بعضها إلى العمل السرى.

- المشاركة فى الحرب: كان لمشاركة روسيا فى الحرب العالمية دور كبير فى تأزم الأوضاع الداخلية بسبب تعبئة ١٣ مليون مجند، وتراجع الإنتاج الفلاحى والصناعى، وحدوث عجز فى المواد الغذائية، وفى سنة ١٩١٦ تزايد عدد القتلى والجرحى، وكان الجنود يفرون من جبهات القتال.

وقد عرفت الثورة الروسية مرحلتين.. مرحلة فبراير، ومرحلة أكتوبر ١٩١٧:

١ - أدت ثورة فبراير ١٩١٧ إلى الإطاحة بالنظام القيصرى:

- المرحلة الأولى: بدأت الثورة فى ٢٣ فبراير (٨ مارس) ١٩١٧ بتظاهر نساء بتروجراد (الاحتفال باليوم العالمى للمرأة) بسبب ارتفاع الأسعار وقلة المواد الغذائية، ثم تظاهر فى (يوم ٢٤) ٢٠٠ عامل فى بتروجراد، ثم حدث إضراب عام، واحتل المتظاهرون الشوارع بمشاركة الجنود، وفى يوم ٢٧ تم تكوين السوفييتات (المجالس الثورية).

وتشكلت حكومة بورجوازية مؤقتة (برئاسة لفوف ثم كيرنسكيفى ٧ يوليو) من الكاديت والاشتراكيين الثوريين والمناشفة.

وفى ٢ مارس اضطر القيصر إلى التنازل عن الحكم. وعارض البلاشفة هذه الحكومة (معظم زعمائهم فى السجن أو المنفى)، خاصة أنها لم تعلن الانسحاب من الحرب العالمية.

٢ - نجح البلاشفة بعد ثورة أكتوبر فى إقامة نظام اشتراكى:

- **المرحلة الثانية:** استغل البلاشفة فشل الحكومة المؤقتة فى تحقيق مطالب الشعب، ورغبتها فى الحفاظ على مصالح البورجوازية، والاستمرار فى المشاركة فى الحرب، فسيطروا على السوفييتات المحلية، وأعلنوا انتفاضة مسلحة فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٧ وسيطروا على مقر الحكومة المؤقتة (قصر الشتاء)، وكونوا حكومة بولشفية برئاسة لينين الذى عاد من المنفى. وتم إصدار مرسوم حول تأميم المعامل والبنوك، ومرسوم حول مصادرة الأراضى الفلاحية، ومرسوم حول القوميات بمنح شعوب روسيا حق تقرير المصير، ومرسوم حول السلام، ولذلك تم توقيع معاهدة بريست ليتوفسك مع ألمانيا يوم ٣ مارس ١٩١٨ للانسحاب من الحرب العالمية.

- **الحرب الأهلية (الثورة المضادة):** واجهت الحكومة الجديدة معارضة الملاكين الكبار والبورجوازية وضباط الجيش، وتحولت المواجهة إلى حرب أهلية (١٩١٨- ١٩٢١) بين أنصار الثورة (الجيش الأحمر) والمعارضين (الجيش الأبيض) مساندين من طرف الدول الرأسمالية، التى احتلت مناطق من روسيا.

وتم تأسيس دولة اشتراكية بعد مواجهة مختلف الصعوبات:

١ - نهج لينين سياسة شيوعية الحرب والسياسة الاقتصادية الجديدة:

- **سياسة شيوعية الحرب:** طبق لينين خلال الحرب الأهلية سياسة شيوعية الحرب (١٩١٨ - ١٩٢١) بتأميم وسائل الإنتاج ومصادرة فائض الإنتاج الفلاحى من الكولاك (كبار ملاكى الأراضى الفلاحية) لضمان تموين الجيش بالمواد الغذائية. وأقر دستور ١٩١٨ نظام الحزب الوحيد (الحزب الشيوعى).

وتمكن الجيش الأحمر بقيادة تروتسكى من القضاء على الجيش الأبيض، وانسحبت الدول الرأسمالية من الأراضى الروسية، غير أن تطبيق سياسة شيوعية الحرب ساهم فى تأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

- **السياسة الاقتصادية الجديدة:** قام لينين بانتهاج السياسة الاقتصادية الجديدة ابتداء من ١٩٢١ التى مثلت تراجعا عن تطبيق الاشتراكية بتشجيع المبادرة الحرة والانفتاح على الرأسمال الأجنبى والتراجع عن مصادرة فائض الإنتاج الفلاحى، وتم تأسيس الاتحاد السوفياتى كاتحاد فيدرالى سنة ١٩٢٢ يضم مختلف القوميات.

وبفضل هذه السياسة ارتفع حجم الإنتاج الاقتصادى، واستفادت فئة الكولاك والبورجوازية.

٢ - نهج ستالين سياسة التخطيط لبناء دولة اشتراكية:

- سياسة التخطيط:

بوفاة لينين فى يناير ١٩٢٤ تسلم الحكم جوزيف ستالين بعد القضاء على معارضيه خاصة تروتسكى (الذى نادى بتصدير الثورة خارج روسيا وتطبيق الاشتراكية) مستخدما الاعتقال والنفى والاغتيال. انفرد ستالين بالسلطة، وركز نفوذه فى أجهزة الحزب الشيوعى والدولة. واستمر فى تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة إلى غاية ١٩٢٨حيث نهج سياسة التخطيط بوضع تصاميم خماسية تهم الميدان الاقتصادى والاجتماعى، وتكوين الكولخوزات (تجميع أراضى الفلاحين فى تعاونيات ويتقاضى الفلاح أجره ونسبة من الأرباح) والسوفخوزات (أراضى الدولة ويعتبر الفلاح العامل فيها أجيرا) وتأميم الصناعة والتجارة، وإعطاء الأولوية للصناعة الثقيلة، واستغلال مكثف للثروات الطبيعية، وتطوير شبكة المواصلات، والاهتمام بصناعة الأسلحة انطلاقا من التصميم الخماسى الثانى.

- **نتائج سياسة التخطيط:** بفضل سياسة التخطيط ارتفع الإنتاج الفلاحى والصناعى، وتمكن ستالين من القضاء على الكولاك، وبرزت أهمية الطبقة العاملة، وارتفعت نسبة سكان المدن، وتكونت طبقة مستفيدة

(الأباراتشيك) من أطر الحزب والدولة والأطر العليا.

وتمكن لينين وقادة الثورة الروسية من تأسيس أول دولة اشتراكية، ونجح ستالين بفضل سياسة التخطيط فى تكوين دولة عظمى سياسيا واقتصاديا سيكون لها دور أساسى على الساحة الدولية ولمدة عقود.

يعتبر فلاديمير لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) زعيم الثورة هو الذى واصل طريق ماركس وانجلز، وزعيم البروليتاريا الروسية والدولية، ومؤسس الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى والدولة السوفيتية.

وقد ولد فى سيمبرسك (تسمى الآن اوليانوفسك نسبة إلى اسم عائلة لينين: أوليانوف). وفى عام ١٨٨٧، بعد أن أنهى دراسته الثانوية، دخل كلية الحقوق فى كازان، ولكنه اعتقل بسبب نشاطه فى الحركة الطلابية، واختفى فى المدينة ووضع تحت رقابة البوليس فى قرية كوكوشيكتو. وفى عام ١٨٩١ تخرج كطالب منتسب (من الخارج) فى جامعة سان بطرسبرج. وفى كازان (٨٨ ـ ١٨٨٩) وسمارى (٩٨ ـ ١٨٩٣) درس الماركسية وأصبح ماركسيا، ونظم أول جماعة ماركسية فى مدينة سمارى. وعندما وصل على سان بطرسبرج عام ١٨٩٣ أصبح زعيم الماركسيين فيها، وكان نشطا فى الدعاية لتعاليم الماركسية بين العمال. وفى عام ١٨٩٤ كتب أول مؤلف رئيسى له، وهو «من هم أصدقاء الشعب وكيف يحاربون الديمقراطيين الاشتراكيين»، و فيه دحض النظرية الزائفة للشعبويى ومناوراتها. وبيّن أن للطبقة العاملة فى روسيا الطريق الحق للنضال. وفى عام ١٨٩٥ وحّد الجماعات الماركسية فى سان بطرسبورج فى «عصبة النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة». وبعد ذلك مباشرة اعتُقل لينين وسجن ثم نفى إلى سيبيريا وفى أوائل عام ١٩٠٠ هاجر. وفى الخارج أسس مجلة «اسكرا» (ومعناها الشرارة)، وهى أول صحيفة ماركسية توزع على نطاق واسع فى روسيا. وقد لعبت دور هائلا فى تكوين حزب ماركسى من نوع جديد، وفى وضع برنامج هذا الحزب، وفى

الصراع ضد الإصلاحيين والانتهازيين. وقد شهد المؤتمر الثانى لعصبة النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة عام ١٩٠٣ تدشين الحزب البلشفى، الذى قاد البروليتاريا والفلاحين الكادحين ـ تحت قيادة لينين ـ فى الصراع للإطاحة بالأوتوقراطية القيصرية وإقامة نظام اشتراكى محلها. ولقد كانت علامات الطريق فى هذا الصراع الثورة الديمقراطية البورجوازية عام ١٩٠٥، وثورة فبراير الديمقراطية البورجوازية عام ١٩١٧، ثم ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧م. والفضل العظيم الذى قدمه لينين أنه طور التعاليم الماركسية تطويرا خلاقا، بالإشارة إلى الظروف التاريخية الجديدة، وأعطاها شكلا محددا، على أساس الخبرة العملية للثورات الروسية والحركة الثورية الدولية بعد وفاة ماركس وانجلز. وقد واصل لينين، فى كتابه «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» (١٩١٦) تحليل أسلوب الإنتاج الرأسمالى الذى كان ماركس قد قام به فى «رأس المال»، واكتشف لينين القوانين إلى تحكم التطور الاقتصادى والسياسى للرأسمالية فى عصر الاستعمار. وقد خلق نظرية حزب البروليتاريا باعتباره الحزب القائد والقوة المنظمة، التى لا يمكن بدونها قيام دكتاتورية البروليتاريا أو بناء المجتمع الشيوعى. وقد أصبح لينين زعيم أول دولة بروليتارية، وهى الدولة التى استطاعت أن تتغلب فى الصراع ضد الأعداء الداخليين والخارجيين، وأن تطلق البناء السلمى للاشتراكية. وقد طور لينين أفكار ماركس وإنجلز، فوضع برنامجا محددا للبناء الاشتراكى فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية. ويرتبط اسم لينين بتطور كل جوانب الماركسية، بما فيها الفلسفة. فقد وجه منذ البداية اهتماما عظيما إلى تطوير المادية الجدلية والمادية التاريخية. وكانت الفلسفة الماركسية وسيلة لحل كل مشكلة تواجه الطبقة العاملة وحزبها فى المرحلة الجديدة. وقد أثرى تلك الفلسفة بكثير من الأفكار الجديدة. ففى عام ١٩٠٨ كتب مؤلَّفه الفلسفى الرئيسى «المادية والتجريبية النقدية» الذى قدم فيه تحليلا عميقا لآخر إنجازات العلم الطبيعى فى ضوء المادية الجدلية، وطور المبادئ الأساسية

لفلسفة الماركسية، وخاصة نظريتها فى المعرفة. وأدرك لينين فى مذهب ماخ الاتجاه فى الفلسفة المعاصرة الذى يحاول، بمناهج جديدة، أن يدمر نفوذ المادية وأن يدافع عن المثالية، بالتركيز على مبحث المعرفة والمنطق. ولم يفقد نقده لمذهب ماخ شيئا من أهميته اليوم، وهو يعلم الماركسيين كيف يحاربون الفلسفة الرجعية. إن لينين قد طرح ـ بقدر من الإلحاح لم يسبق له مثيل فى هذا المجال التساؤل عن الالتزام فى الفلسفة، وطالب بأن يحارب الماركسيون بكل تمسك ضد أى ضرب من ضروب المثالية أو الميتافيزيقا. وعمل بكد شديد لتطوير واستكمال المادية الجدلية، التى وصفها بأنها «روح الماركسية»، و بأنها «الأساس النظرى الأساسى» للماركسية. وبين تعدد جوانب الجدل، كنظرية فى التطور، ودعم المصادرة ذات الأهمية القصوى والمثمرة عن وحدة الجدل والمنطق ونظرية المعرفة. وإذ يشير لينين إلى كتاب ماركس «رأس المال» كنموذج لمثل هذه الوحدة، فانه يقدم سلسلة من الأفكار القيمة حول هذا الموضوع (انظر «الدفاتر الفلسفية»)، التى يمكن أن تعتبر برنامجا لمزيد من العمل فى الجدل. وتقدم أعماله ـ التى تغطى أكثر المجالات تنوعا، الاقتصاد والسياسة والإستراتيجية والتكتيك ـ نماذج لا يمكن تجاوزها لتطبيق الجدل على الحياة الواقعية. وقد شرح لينين فى مقاله «حول أهمية المادية المناضلة» (١٩٢٢) ـ المهام الحيوية التى ينبغى الاضطلاع بها من أجل مزيد من تطوير الفلسفة الماركسية بما فى ذلك الصراع ضد الآراء الدينية فى العالم. وتحتفظ هذه التوجيهات بأهميتها إلى اليوم. وقد كان لينين يعتبر الفهم المادى للتاريخ أعظم إنجاز للفلسفة الماركسية. كما اعتبر نظرية المادية التاريخية أساسا علميا لوصول إلى معرفة قوانين التطور الاجتماعى، وللنضال الثورى من أجل التحويل الاشتراكى للمجتمع. ودراسته الخلاقة للتطور الاقتصادى والسياسى والروحى للمجتمع فى العصر الجديد، قد طورت كل جوانب علم الاجتماع الماركسى. ومن الأمور ذات الأهمية الخاصة بحثه فى مشكلات الطبقات والصراع الطبقى والدولة والثورة (انظر كتابه

«الدولة والثورة»)، ودور الجماهير فى عصر الثورة الاشتراكية وبناء المجتمع الشيوعى؟ وفى العلاقة بين الجماهير والحزب والقادة، وأفكاره فيما يتعلق بالأشكال الجديدة التى تتخذها القوانين الاقتصادية لتطور الاجتماعى أثناء البناء الاشتراكى، وعن العلاقة بين علمى الاقتصاد والسياسة، وعن الثقافة والثورة الثقافية، وعن الأخلاقيات الاشتراكية ومبادئ الفن الاشتراكى. كذلك كانت للينين أفكار قيمة فى مجال العلم التاريخى الفلسفى الماركسى، وقد أعطى لنا تقديرات دقيقة نفّاذة لكثير من فلاسفة الماضى (فلاسفة العالم القديم والماديون الفرنسيون وكانط وهيغل وغيرهم). وقيّم أعمال المفكرين الديمقراطيين الثوريين الروس (بيلنسكى وهيرزن وتشيرنشيفسكى). ويشكل ما قاله عنهم وعن عمليات تطور الحركة الثورية والفكر الاجتماعى فى روسيا أساسا نظريا لتاريخ علمى للفلسفة المادية الروسية.

ويعتبر ليون تروتسكى (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) أحد أبرز قادة الثورة الروسية عام ١٩١٧ وهو الرجل الثانى بعد لينين، وكان من المتوقع ان يخلف لينين فى قيادة الدولة والحزب، لكن سيطرة ستالين على مقاليد الحزب ثم بعد ذلك الدولة، مستخدما كل الوسائل الغير مشروعة، ومن ضمنها إخفاء وصية لينين بابعاده من قيادة الحزب، أدى إلى إبعاد تروتسكى ثم نفيه خارج البلاد، فظل مطاردا حتى استقر فى المكسيك التى اغتيل فيها على يد عميل لستالين بطريقة بشعة عام ١٩٤٠م.

كتب تروتسكى عدة كتب ودراسات وعدد كبير من المقالات، وقد أسهمت إبداعاته الفكرية بالاضافة الى مشاركته البارزة فى الثورة الروسية، إلى تأسيس تيار فكرى سياسى كبير فى الحركة الشيوعية، سمى باسمه ومازال تياره موجودا، بينما لايوجد أى تيار فكرى بأسم قاتله ستالين، رغم وجود من يسمون أنفسهم بالستاليين، وهم أقلية ضئيلة جدا لا يُعْتَنَى بها، ومن الأسباب المهمة فى ذلك هو الضعف الفكرى والتنظيرى لجوزيف ستالين.

بالإضافة إلى جرائمه الكبيرة التى تبعد كل من يجرؤ على القول إنه مؤيد له.

يعتقد تروتسكى ومعه الكثيرون من الماركسيين، أن الثورة تعنى تغييرا فى النظام الاجتماعى، بمعنى أنها تنتقل من طبقة نافذة إلى طبقة متعبة منهكة، والثورة تشكل اللحظة الحاسمة فى الصراع بين الطبقتين، ولكى تنتصر الطبقة المسحوقة، فلابد لها من وجود مجموعة طليعية مثقفة تقود تيار الثورة وتستطيع أن تجمع تحت قيادتها كل طبقات الشعب المسحوقة.

ولذلك فى رأيه أن الثورة ليست فقط تغييرا سياسيا أو اقتصاديا، وإنما تغيير شامل فى المجتمع فى بنائه الفوقى والتحتى. فالثورة ليست كالطبيعة بل إنها تختلف عنها لأنها من صنع البشر، إلا أن البشر فى الثورة يتصرفون تحت ظروف اجتماعية قاهرة ليست من اختيارهم بل موروثة من الماضى، وبذلك تكون القوة الخفية المسيرة للثورة، ولهذا السبب لوحده للثورة قوانينها الخاصة.

الفعل الحماسى للشعب الثائر هو المسير للثورة، وهو تعبير عن الغضب الشعبى من السلطة الحاكمة التى تفشل فى حل مشاكل الشعب، ولذلك يجب على الطبقة التقدمية طرح نفسها لحل مشاكل السلطة.

تنتظم الطبقة التقدمية فى حزب، ويقصد بها المجموعة المثقفة التى تنظر للعمل المسلح أو المعارضة، وإذا لم تنتظم سياسيا فى تنظيم فلا يتوقع للثورة أن تنجح، فالحزب هو المحرك الفعلى للثورة، والذى يكسب الجماهير إلى جانبه فى صراعه ضد النظام، ومن خلال عمله يستطيع قيادة الثورة إلى النصر وبناء نظام سياسى جديد مرتكز على أسس تختلف جذريا عن السابق.

انتصار الثورة الروسية يعتبر بحق تحديا للفكر الماركسى كون الثورة انتصرت فى بلد متخلف ويشكل الفلاحون غالبية سكانه، وقد حاول تروتسكى مع لينين حل ذلك بالقول إن روسيا هى جزء من النظام

الاقتصادى العالمى، وهو على شكل سلسلة وروسيا تشكل أضعفها مما أدى إلى انتصار الثورة، وفى رأيى أن ذلك عجز فكرى لأن الثورة تخضع لعوامل عديدة، والتفسير الماركسى السابق بأن الثورة تنجح بعد أن تصل الرأسمالية إلى أعلى مراحلها، لم يتحقق مما أدى إلى وجود ضعف واضح فى التفسير الماركسى الذى يبرر اتباعه حسب الظروف المستجدة ويخضعون نظرياتهم تبعا لذلك، وليس العكس، والوصول إلى الحكم لم يتم إلا بالقوة والبطش والإرهاب، لأنه يصعب عليهم الوصول إلى الحكم عن طريق الاقتراع الشعبى نظرا لديكتاتورية الحزب الشيوعى.

ومن أبرز أفكار تروتسكى هى الثورة الدائمة والتى وضعها قبل الثورة بوقت طويل، بمعنى أن النظام الاشتراكى لا يستقر فى بلد ما إذا لم يقم بواجبه فى مساعدة الشعوب الأخرى للسيطرة على الحكم، لأن الأنظمة المعادية سوف لن تهدأ إذا لم تسحق الثورة الاشتراكية، ولذلك فإن نجاح الثورة فى بلد واحد سوف لن يكون المحطة الأخيرة فى قطارها، بل هو المحطة الأولى.

الثورة الروسية خضعت لعوامل عديدة مما سهل عليها انتصارها، ورغم محاولة الشيوعيين إخضاعها لنظريتهم المتحركة، فإن ظروفها الموضوعية يمكن من خلالها معرفة الحقيقة وراء نجاحها، فالحرب ضد ألمانيا قد استنزفت النظام القيصرى ماديا وبشريا، وجعلت غالبية الشعب فى تذمر وسخط شديدين من النظام، وساعد فى ذلك تخلف روسيا الاقتصادى قبل الحرب، وتحويل عدد كبير من الفلاحين إلى جنود مما تسبب فى تخلف الإنتاج الزراعى، والذى سبب مجاعة مدمرة، كذلك احتلال ألمانيا لمساحات شاسعة من البلاد، وتدهور معنويات الجيش، واستشراء الفساد فى الدولة، وخاصة سيطرة المشعوذ راسبوتين على أسرة القيصر، من أبرز العوامل، وكذلك ضعف الأحزاب غير الاشتراكية والصراع الداخلى فيما بينها، وأيضا

ضعف التنظيم وسريته كما هو موجود لدى البلاشفة، ساعد فى استغلال فرصة تدهور الوضع الأمنى والسياسى فى القفز على الحكم، ولم يشكل الحزب سوى أقلية ولكنَّ لها مؤيدين فى الجيش والمجالس المحلية فى العاصمة والمدن الكبرى ومنظمين جيدا مستخدمين أسلوب السرية فى العمل السياسى، كذلك وجود المشكلة القومية نظرا لتعدد قوميات الشعب وسيطرة القومية الروسية عليها مما سبب فى نقمة شديدة من قبل الأغلبية، كل هذه الأسباب وأسباب أخرى لا يتسع المجال لها، أدت إلى نشوب الثورة وسيطرة البلاشفة عليها، ورغم ذلك لا يمكن للثورة أن تتحقق إلا بفضل الوحشية المفرطة مع الخصوم، وبعد استقرارها، أقامت دولة بوليسية تُحكم بالإرهاب والقوة دولة متعددة الأطراف.

تروتسكى كبقية الشيوعيين يحول تبرير الثورة وفق منطقهم ولكن وفق مساحة قليلة من الاختلاف، وهو فى نفس الوقت يعترف بأخطاء الثورة وخاصة المجاعات المروعة التى راح ضحيتها الملايين، ثم حملات التطهير السياسى والعرقى التى ترقى إلى الإبادة الجماعية.

يبقى تروتسكى المفكر الأبرز بعد لينين فى الثورة، وطرده من الحزب بأمر من ستالين ثم نفيه واغتياله بعد ذلك، ساعد على بقاء صورته بيضاء أمام العديد من الشيوعيين وغيرهم، ورغم الثغرات فى نظرياته كبقية المفكرين إلا أنها تبقى محاولة فكرية لتفسير الثورة.

■ ■ ■

12

الثورة الألمانية..
وفيلهلم الثانى

الثورة الألمانية أو ثورة نوفمبر ـ كما اشتهرت ـ هى ثورة بدأت فى ألمانيا فى شهر نوفمبر عام ١٩١٨ واستمرت حتى أغسطس ١٩١٩ ، وأدت إلى تحويل ألمانيا من قيصرية إمبراطورية إلى جمهورية برلمانية ديمقراطية. فقدم القيصر فيلهلم الثانى تنازله عن العرش، وأعلنت الجمهورية الألمانية التى عرفت بجمهورية فايمار.

ترجع أسباب قيام ثورة نوفمبر إلى ضيق الشعب بالأحوال الاقتصادية السيئة التى عمت ألمانيا، التى كان يحكمها نظام قيصرى ذو دستور رجعى وغير ديمقراطى، ونخبة حاكمة فاسدة.

وكان من أهم الأسباب التى أشعلت الثورة هو السياسة التى اتبعتها قيادة الجيش، التى أدت إلى هزيمة الأسطول الحربى الألمانى فى الحرب العالمية الأولى. مما أدى إلى قيام ضباط البحرية بالتمرد فى ميناء فيلهلم وكيل، وتطور التمرد إلى ثورة عارمة امتدت إلى ألمانيا كلها.

وخرج الشعب للمطالبة بالجمهورية وإسقاط القيصر. ورضخ القيصر فيلهلم الثانى ووقع وثيقة التنازل عن العرش فى ٩ نوفمبر ١٩١٨م.

غير أن الأحزاب التى قادت الثورة رأت أن القضاء الكامل على النخبة التى كانت تحكم فى عهد القيصر المخلوع، قد يقود البلاد إلى حافة حرب أهلية، فقررت الإبقاء عليها وإقامة علاقات طبيعية معها.

وهكذا فقد تحالف قادة الثورة مع قيادة الجيش، مما أدى إلى نشوب أعمال شغب واسعة عرفت باسم «انتفاضة سبارتاكوس» تم القضاء عليها بتحالف الجيش وقيادة ثورة نوفمبر وبعض القوى اليمينية.

وفى ١١ أغسطس ١٩١٩ تم وضع دستور جديد للجمهورية عرف بدستور فايمار. وتم انتخاب فريدريش إبرت أول رئيس للرايخ.

وتُعرف جمهورية فايمار أبرز ثمار الثورة هى الجمهورية التى نشأت فى ألمانيا فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٣٣ كنتيجة الحرب العالمية الأولى وخسارة ألمانيا الحرب.

وسميت الجمهورية الناشئة باسم مدينة فايمر الواقعة بوسط ألمانيا والتى اجتمع بها ممثلو الشعب الألمانى فى العام ١٩١٩ لصياغة الدستور الجديد للجمهورية والذى اتبعته الجمهورية حتى العام ١٩٣٣ حين تمكن الزعيم النازى أدولف هتلر من إحكام سيطرته على مقاليد الحكم فى برلين بعد توليه منصبى المستشارية ورئاسة الجمهورية. اعتبر المؤرخون هذا الحدث نهاية جمهورية فايمر.

وقد واجهت جمهورية فايمر على مدى الأربعة عشر عاما التى عاشتها العديد من المشكلات مثل السياسات العدائية والعقوبات التى فرضت على ألمانيا من قبل حكومات الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى، ظهور أحزاب وحركات متطرفة مثل الحزب النازى، ومشكلات اقتصادية معقدة تمثلت فى معدلات بطالة مرتفعة ونسب عالية جدا للتضخم.

إلا أن جمهورية فايمار تمكنت من التغلب على العديد من تلك المشكلات وحققت إصلاحات اقتصادية هامة تمكنت من خلالها من السيطرة على التضخم وتقليص نسب البطالة وتطوير قوانين الضرائب.

وتميزت جمهورية فايمر بدستور حديث لم تشهده ألمانيا فى تاريخها واعتبر وقتها واحدا من أفضل الدساتير فى العالم. مثلت جمهورية فايمار فترة من التطور الاقتصادى والرقى الحضارى فى التاريخ الألمانى المعاصر إلا أنها وبسبب كونها قد مهدت لظهور النازية فيما بعد فإن معظم المؤرخين فى أوروبا يعتبرونها مثالا كلاسيكيا لديمقراطية فاشلة.

13

الثورة التركية..
وكمال أتاتورك



هذه الثورة هى ثورة شعبية خاضها الشعب التركى بين عامى ١٩٢٠ و١٩٢٣، وهذه الثورة تعرف أيضاً فى الفكر السياسى التركى بثورة «الكماليين» نسبة إلى قائد هذه الثورة وهو مصطفى كمال «أتاتورك».

وأساس قيام هذه الأول هو سخط وغضبة الشعب التركى على القوى الأجنبية التى احتلت بقايا الدولة العثمانية المنهارة والمهزومة فى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، ومناسبة انطلاقتها كانت تتمثل فى معاهدة سيفر عام ١٩٢٠ التى سعى المحتلون الأجانب ممثلون فى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان إلى فرضها على الخليفة العثمانى الضعيف والمتهالك والموالى لهم.

وكانت تلك المعاهدة تهدف إلى تمزيق ما تبقى من أوصال الدولة العثمانية فى آسيا الوسطى والجزء المتبقى فى أوروبا «تراقيا» وحصر بقية وجود الدولة التركية فى وسط الأناضول، وتقييدها بسلسلة من الالتزامات المالية والامتيازات الأجنبية المجحفة فى حق الشعب التركى وسيادته.

وتركز محور الثورة الرئيسى فى الأناضول وكان وقودها وعمادها هو دم البسطاء من أبناء الشعب ومن الفلاحين والجنود المسرحين بوجه خاص، وقد قاد هذه الثورة بنجاح واقتدار مصطفى كمال الضابط التركى الذى اشتهر فى معارك الحرب العالمية الأولى بالإقدام والبسالة والشجاعة!!

ونجح الثوار الأتراك فى إنزال العديد من الهزائم بجحافل الجيش اليونانى الذى توغل فى العديد من مدنهم الساحلية والداخلية ووصل إلى مشارف أنقرة حاضرة الدولة التركية الحالية وتم لهم طرده ودحره إلى

خارج بلادهم وتمكنوا بموجب معاهدة لوزان عام ١٩٢٣م من تحقيق استقلالهم وانتزاعه من القوى الأجنبية وفرض سيادة بلادهم على حدود تركيا الحالية.

وكان للثورة التركية تأثيراتها المهمة على الدول المجاورة وهى تقدم مثالاً للآخرين فى النضال الشعبى وقدرة الشعب بتضحياته ودمائه على نزع حقوقه وحرياته من أعدائه فى الداخل والخارج، ولن نتعرض هنا للتحولات الراديكالية فى فكر ونهج وفلسفة زعيم تلك الثورة أتاتورك ومواقفه المناهضة للهوية الإسلامية التركية وللتراث الإسلامى التركى بعد أن أحكم قبضته وسلطته على البلاد «١٩٢٣ ـ ١٩٣٨».. وهل هدفه هو تحديث وعصرنة تركيا وإلحاقها بالدول القوية المتقدمة أم أن له أجندة خاصة لها خلفيات اجتماعية وعنصرية ودينية أخرى فهو يتهم من قبل أعدائه بأنه من يهود الدونمة فهذا الموضوع شائك وكبير ولا مجال له هنا فى هذه الزاوية المحدودة المساحة.

وقد كانت هناك شعارات الثورة التركية، وهى كما تستنبط من الفكر السياسى التركى من كتابات الكتاب والمفكرين الأتراك الموالين للثورة الكمالية تدور حول عدة شعارات هى باختصار شديد كالتالى:

ـ **الثورة أو الانقلابية:** والمراد بهذا التغيير الجذرى لأوضاع البلاد السياسية والدستورية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتصفية كل المعوقات المتوارثة، وإنهاء مظاهر تركيا العثمانية سلطنة وخلافة إذ لا مصلحة للبلاد فيها.

ـ **المواطنة:** وتعنى أن الوطنية التركية تقوم على فكرة المواطنة الواحدة، وهى حق لجميع أبناء تركيا من غير تمييز بسبب اللون أو العرق أو الجنس أو الدين وقوامها اللغة التركية والانتماء لتركيا حياة ومصيرا ومصلحة.

- **الجمهورية:** ويراد بها وجوب الارتباط بالنظام الجمهورى لأنه النظام السياسى الأفضل لتوحيد حكم وسلطة الشعب والأمة.

- **الشعبية:** ويقصد بها أن مصدر السيادة والإرادة فى الدولة هو الأمة وأن المواطنين هم أمام القانون متساوون تماماً فلا طبقية وأن الانقسام أساسه المهنة لا غير.

- **العلمانية:** وهى تعنى أن القوانين تقوم على أساس العلم والفن وقواعد وأسس الحضارة المعاصرة والدين فى نطاق القانون وفصل الدين عن الدولة لتحقيق التقدم للأمة.

- **الدولية:** ومؤداها أن الدولة هى المسؤولة عن قيادة المجتمع والتوفيق بين أبنائه وحماية الصالح العام.

ولكن من هو أتاتورك الذى قاد هذه الثورة؟.. ولد مصطفى كمال سنة (١٢٩٩هـ = ١٨٨٠م) بمدينة «سالونيك» التى كانت خاضعة للدولة العثمانية، أما أبوه فهو «على رضا أفندى» الذى كان يعمل حارسًا فى الجمرك، وقد كثرت الشكوك حول نسب مصطفى، وقيل إنه ابن غير شرعى لأب صربى، أما لقب «كمال» الذى لحق باسمه فقد أطلقه عليه أستاذه للرياضيات فى المدرسة الثانية، ويذكر الكاتب الإنجليزى «هـ. س. أرمسترونج» فى كتابه: «الذئب الأغبر» أن أجداد مصطفى كمال من اليهود الذين نزحوا من إسبانيا إلى سالونيك وكان يطلق عليهم يهود الدونمة، الذين ادعوا الدخول فى الإسلام.

وبعد تخرجه فى الكلية العسكرية فى إستانبول عين ضابطًا فى الجيش الثالث فى «سالونيك» وبدأت أفكاره تأخذ منحنى معاديًا للخلافة، وللإسلام، وما لبث أن انضم إلى جمعية «الاتحاد والترقى»، واشتهر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى حين عين قائدًا للفرقة ١٩، وهُزم أمامه

البريطانيون مرتين فى شبه جزيرة «غاليبولى» بالبلقان رغم قدرتهم على هزيمته، وبهذا النصر المزيف رُقِّى إلى رتبة عقيد ثم عميد، وفى سنة (١٣٣٧هـ ـ ١٩١٨) تولى قيادة أحد الجيوش فى فلسطين، فقام بإنهاء القتال مع الإنجليز ـ أعداء الدولة العثمانية ـ وسمح لهم بالتقدم شمالاً دون مقاومة، وأصدر أوامره بالكف عن الاصطدام مع الإنجليز.

غادر مصطفى كمال إستانبول فى (شعبان ١٣٣٧هـ ـ مايو ١٩١٩) بعدما عهد إليه السلطان العثمانى بالقيام بالثورة فى الأناضول، واختار معه عددًا من المدنيين والعسكريين لمساعدته، وبعدما استطاع جمع فلول الجيش حوله هناك بدأ فى ثورته، فاحتج الحلفاء على هذا الأمر لدى الوزارة القائمة فى إستانبول المحتلة، وهددوا بالحرب، فاضطرت الوزارة إلى إقالته، وعرضت الأمر على السلطان، الذى أوصى بالاكتفاء بدعوته إلى العاصمة، لكنه اضطر بعد ذلك إلى إقالته فلم يمتثل أتاتورك لذلك وقال فى برقية أرسلها للخليفة: «سأبقى فى الأناضول إلى أن يتحقق استقلال البلاد».

وبدأ يشعل ثورته التى يحميها الإنجليز، وانضم إليه بعض رجال الفكر وشباب القادة الذين اشترطوا عدم المساس بالخلافة، واستمر القتال عاما ونصف العام ضد اليونانيين، استعار خلالها أتاتورك الشعار الإسلامى ورفع المصحف، وأعلن الحلفاء أثناءها حيادهم، أما الإنجليز فكانوا يعملون جهدهم لإنجاح هذه الثورة، فبعد تجدد القتال بين أتاتورك واليونانيين فى (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) انسحبت اليونان من أزمير ودخلها العثمانيون دون إطلاق رصاصة، وضخمت الدعاية الغربية الانتصارات المزعومة لأتاتورك، فانخدع به المسلمون وتعلقت به الآمال لإحياء الخلافة، ووصفه الشاعر أحمد شوقى بأنه «خالد الترك» تشبيهًا له بخالد بن الوليد خالد العرب.

وعاد مصطفى كمال إلى أنقرة حيث خلع عليه المجلس الوطنى الكبير رتبة «غازى»، ومعناه الظافر فى حرب مقدسة، وهو لقب كان ينفرد به

سلاطين آل عثمان، فتعزز موقفه الدولى والشعبى، ووردت عليه برقيات التهانى من روسيا وأفغانستان والهند والبلدان الإسلامية المختلفة، وسار العالم الإسلامى فخورًا بثورة مصطفى كمال سنوات عدة، استغلها فى كسب عواطف المسلمين وأموالهم بعدما كسا ثورته لباسًا إسلاميّاً سواءً فى أحاديثه أو فى معاملته للزعماء المسلمين مثل الزعيم الليبى أحمد السنوسى يرحمه الله تعالى.

وبعد انتصارات مصطفى كمال انتخبته الجمعية الوطنية الكبرى رئيسًا شرعيّاً للحكومة، فأرسل مبعوثه «عصمت باشا» إلى بريطانيا (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) لمفاوضة الإنجليز على استقلال تركيا، فوضع اللورد كيرزون - وزير خارجية بريطانيا - شروطه على هذا الاستقلال وهى: أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامى، وأن تلغى الخلافة الإسلامية، وأن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة، وأن تختار تركيا لها دستورا مدنيّاً بدلاً من الدستور العثمانى المستمدة أحكامه من الشريعة الإسلامية.

نفذ أتاتورك ما أملته عليه بريطانيا، واختارت تركيا دستور سويسرا المدنى، وفى (ربيع أول ١٣٤١هـ - نوفمبر ١٩٢٢م) نجح فى إلغاء السلطنة، وفصلها عن الخلافة، وبذلك لم يعد الخليفة يتمتع بسلطات دنيوية أو روحية، وفرض أتاتورك آراءه بالإرهاب رغم المعارضة العلنية له، فنشر أجواء من الرعب والاضطهاد لمعارضيه، واستغل أزمة وزارية أسندت خلالها الجمعية الوطنية له تشكيل حكومة، فاستغل ذلك وجعل نفسه أول رئيس للجمهورية التركية فى (١٨ربيع أول ١٣٤٢هـ - ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م) وأصبح سيد الموقف فى البلاد.

وفى (٢٧ رجب ١٣٤٢هـ = ٣ مارس ١٩٢٤م) ألغى مصطفى كمال الملقب بأتاتورك الخلافة العثمانية، وطرد الخليفة وأسرته من البلاد، وألغى وزارتى الأوقاف والمحاكم الشرعية، وحوّل المدارس الدينية إلى مدنية، وأعلن أن

تركيا دولة علمانية، وأغلق كثيرًا من المساجد، وحوّل مسجد آيا صوفيا الشهير إلى كنيسة، وجعل الأذان باللغة التركية، واستخدم الأبجدية اللاتينية فى كتابة اللغة التركية بدلاً من الأبجدية العربية.

وكانت هذه الإجراءات المتتابعة منذ إسقاط الخلافة تهدف إلى قطع صلة تركيا بالعالم الإسلامى بل وصلتها بالإسلام، ولم يقبل المسلمون قرار أتاتورك بإلغاء الخلافة؛ حيث قامت المظاهرات العنيفة التى تنادى ببقاء هذا الرباط الروحى بين المسلمين، لكن دون جدوى.

وبعد عقودٍ طويلة على وفاته، لم يتحول مصطفى كمال أتاتورك إلى جزء من التاريخ الماضى بعد، فهو عند كل منعطف يعاد استذكاره لنراه فى صلب النقاشات التى تعالج حاضر تركيا ومستقبلها.

هذه المرة كان مجرد فيلم وثائقى عن أتاتورك، كفيلا بأن يشعل الجدل ويعيد المتاريس بين المتشددين العلمانيين والإسلاميين.

فمن هو أتاتورك بالنسبة للأتراك اليوم؟ وما هى دلالات استذكار رمز العلمانية فى بلد حكم العالم الإسلامى؟

أراد أحد الشبان الأتراك العاطلين عن العمل لفت الأنظار إلى حالته، فاشترى مسدساً وتوجه إلى أقرب هيكل لأتاتورك فى المدينة، مصوباً السلاح نحوه ومهدداً بإطلاق النار. طوقت الشرطة المكان، وبعد ساعات من المحاولات نجحت فى إقناعه بالعدول عن فعلته هذه. فى اليوم التالى يقصد الشاب نفسه المكان ليضع إكليلا من الورد أمام الهيكل مبدياً أسفه واعتذاره.

نقابات العمال التركية، من ناحيتها، عندما تشعر أنها وصلت فى مفاوضاتها مع الحكومة لتحقيق مطالبها إلى الطريق المسدود، تقصد ضريح أتاتورك فى أنقرة لتقدم شكواها هناك. وهو ما يترك المسؤولين عرضة لانتقادات لاذعة، بسبب إيصالهم الأمور إلى هذا الحد.

هكذا ينظر الأتراك اليوم إلى أتاتورك، مؤسس الدولة الحديثة ودوره وموقعه، كمنقذ وملجأ دائم رغم مرور عشرات السنين على وفاته.

«مصطفى» هو عنوان الفيلم السينمائى الوثائقى الذى اختاره الإعلامى التركى الناجح جان دوندار، لتقديم جوانب جديدة، غير معروفة لدى الكثيرين من الأتراك، حول حياة أتاتورك، ففجر أزمة سياسية ثقافية داخلية، لا يعرف أحد أين ستتوقف، وكيف ستنتهى؟

فيلم وثائقى استغرق العمل عليه ٩ أشهر كاملة، أوجزت فى ساعتين.. مشاهد الفيلم صورت بين أنقرة واسطنبول وسيلانيك اليونانية. أخرج هذا الفيلم وأشرف عليه دوندار إلى جانب نخبة من الفنانين الشباب، شاركهم الموسيقى لغوران بريغوفيتش بموازنة تزيد عن المليون يورو قدمتها أسرة صابانجى المعروفة بغناها وامتلاكها لأهم المؤسسات والشركات التجارية والتعليمية فى تركيا والتى أعلنت أنها غير نادمة على دعم مثل هذا المشروع.

المنتقدون يصرّون على أن المشرفين على الفيلم تعمدوا إبراز نقاط ضعف أتاتورك والجوانب السلبية فى حياته، فيما هم اختصروا وأوجزوا فى تقديم النواحى الإيجابية البطولية المؤثرة فى مواقفه الشخصية والقومية. تحريفات كثيرة فى حياة أتاتورك لم تبق لنا منه أى شىء. الغاية كانت تحويل أتاتورك إلى «مصطفى» بصورة مفتعلة مقصودة مدروسة من الداخل والخارج.

«صفعة من معلم المدرسة الابتدائية وتتغير حياة أتاتورك ويقرر التوجه إلى المدرسة الحربية» التى كان اختيارها، كما يلمح المخرج انتقاماً من مدارس ذلك الوقت.

النقمة لها علاقة مباشرة طبعا بتصفية الحسابات السياسية التى لم تحسم بين العلمانيين المتشددين وحزب العدالة والتنمية الحاكم الذى دخل

الكثير من القلاع، وكان آخرها قلعة رئاسة الجمهورية مع عبد الله جول وزوجته المحجبة.

الأكاديمى المعروف يشار نورى أوز تورك هو بين المنتقدين الذين يرون أن دوندار أصر على تقديم أتاتورك وحيداً منزوياً منعزلاً، مدمنا على التدخين وشرب الكحول وعاشقاً دائماً يتجنب النوم فى العتمة.

دوندار اختار تقديم السنوات الأخيرة من حياة أتاتورك، مركزاً على النواحى الشخصية، محاولاً إبراز جوانب التردد والخوف والقلق والحزن، متجاهلاً حروب الاستقلال والتضحيات والمواقف البطولية الشجاعة التى قادت إلى إعلان الجمهورية.

«عام ١٩٣٠ استدعاه صديقه فتحى اوكيار وسأله: ماذا يقولون بشأننا فى الخارج.. لا معارضة سياسية، حزب واحد، شخص واحد يقود البلاد. علينا أن نفعل شيئاً، ستقود أنت حزباً للمعارضة، وهكذا نصبح نظام الحزبين».

أكاديميان تركيان قدما بالأمس القريب رسالة شكوى إلى مدعى عام اسطنبول، يطالبونه بالتدخل المباشر لوقف عرض هذا الفيلم ومعاقبة مخرجه دوندار، أولاً، لأنه يطال من سمعة أتاتورك، وثانياً، لأنه قدمه على أنه مدمن شرس على شرب السجائر، محاولاً بذلك استخدام اسم أتاتورك للترويج لهذه المادة، رغم كل قوانين حظر الدعاية للتدخين فى الإعلام والصحافة.

المدارس الابتدائية التى كانت تتسابق على حمل صغارها لمشاهدة هذا النوع من الأفلام مترددة هذه المرة، وهى تنتظر أن تحسم المعركة لتعطى قرارها على ضوء ذلك.

فيلم تتجنب أهم الوزارات الاقتراب منه، فهو قد يتحول فى أية لحظة إلى حبات كستناء ساخنة تحرق الأصابع، ولا أحد من قيادات العدالة والتنمية يريد التضحية ودخول هذه المغامرة، على مرأى ومسمع المدعى

التركى العام والمحكمة الدستورية التى ترصد كل شاردة وواردة.

الإعلامى مصطفى أوزديل المنتقد هو الآخر يقول: ذهبت ورأيت ولم يخبرنى أحد.. رأيت مصطفى المدمن على الخمر الذى تنهمر دموعه كلما سكر. البارد بلا روح بلا قلب.

الشخصية التى يهمها التعرض لمحيطها وتهديد كل من يعصى الأوامر. المتخلى عن أصدقائه فى أحلك الظروف، فاتح قلب النساء والمحب لحياة اللهو والتسلية. الفيلم يستحق جائزة حتماً، أقلها ان تكون نوبل مثلاً، وهو يغمز من قناة الكاتب أورهان باموك.

الابنة المعنوية لأتاتورك اولكو اده تابه، قالت: «إن مدخل الفيلم كان جيداً، لكن القسم الثانى منه لم يعجبها، إذ أظهر أتاتورك وكأنه عاجز لا يستطيع فعل أى شىء، بينما الحقيقة هى غير ذلك. أتاتورك حتى فى سنواته الأخيرة كان سعيداً يقرأ ويكتب ويواصل ثورته وإصلاحاته».

الإعلامى الليبرالى إحسان داغى يقول: «أن دنيز بيقال زعيم حزب الشعب الجمهورى، وهو الحزب الذى أسسه أتاتورك هو الذى أعطى إشارة إعلان الحرب على مخرج الفيلم دوندار الذى نعت بأكثر من صفة وتعرض لأكثر من هجوم وحملة كان بينها وصفه برجل أميركا وأحد أنصار الجمهورية الثانية». وهى التسمية التى تطلق على مجموعة من المفكرين والإعلاميين الأتراك التى تدعو لقراءة أكثر واقعية وعملية فى التعامل مع الفكر الأتاتوركى فى البلاد.

«مشكلة دوندار هى أنه أخرج أتاتورك من الصورة الرسمية الكلاسيكية المعروفة التى تم تبنيها ويجرى الاعتراف بها والتعامل معها ووضعه فى قالب جديد فاجأ الكثيرين، خصوصا جناح العلمانيين المتشددين كونه أقحم أتاتورك فى عالم واقعى آخر، يقولون إنه ينال مباشرة من شخصية الرجل

الرمز والقائد وحولها إلى شخصية رجل عادى. ويكفى أن نقول إنه جعل منه «مصطفى» دون أى تردد».

قائد الجيش الأسبق يشار بيوك أنيت قال إنه «من المستحيل أن نحصر حياة أتاتورك فى فيلم وثائقى، يعرض لمدة ساعتين لكن حسب الطاقات والإمكانات المتوفرة هو فيلم أرشيفى جيد».

عايشة أرمان، الإعلامية التى حاورت دوندار مطولاً حول فيلمه استغربت أن يحظى مثل هذا الفيلم العادى جداً بكل هذا الضجيج، وهذه الإثارة التى لا يستحقها. هل يضحك دوندار فى سره، لأنه نجح فى تفجير كل هذا السجال السياسى الإعلامى الفكرى بين الأتراك ودفعهم مجدداً إلى الاصطفاف وراء المتاريس والخنادق الدائمة الجهوزية، للاستخدام عند أبسط خضة من هذا النوع؟ وهى خضات عاشتها تركيا فى السنوات الأخيرة على المستويات الأمنية والسياسية والثقافية.

خطأ دوندار هو أنه بالغ فى عملية عزل أتاتورك عن محيطه التاريخى والسياسى القائم وقتها، وقدم لنا صورة منسلخة عن الواقع المحيط.

رئيس حزب «الديمقراطية والحرية» أفق أوراس قال إنه فيلم غنى بالعبر والدروس، فيما وصفه الصحافى غونارى جيفا أوغلو أنه يستحق أن يحمل إلى العالمية.

جان دوندار يعرف تماماً أنه تجاوز حدود الخط الأحمر واقترب من موضوع يعتبر من المسائل الحساسة فى تركيا.

ومع ذلك فالمدافعون عن فيلمه هذا يصرون على أن كفة دوندار هى التى سترجح عنما يحاول البعض وزن ثقل المحبة التى يكنها المخرج لمصطفى كمال بالمقارنة مع الكثير من المتهجمين والناقمين.

أصحاب الأقلام والمواقف الداعمة لدوندار يصرون على أنه ساهم فى

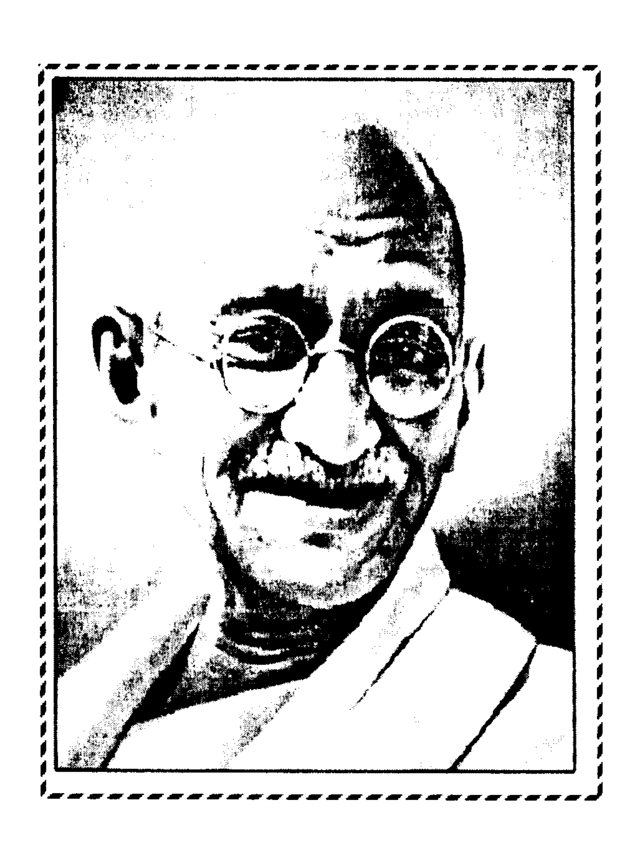
فتح علبة الباندورا التى نجح البعض فى إخفائها وإحكام إغلاقها لحقبة طويلة من السنين، وأنه لم يعد بعد الآن ممكناً إغلاق هذه العلبة التى سقطت على الأرض، وتحطمت وتبعثرت محتوياتها التى ستتسبب فى مواجهة مفتوحة بين العلمانيين والأتاتوركيين المتشددين والليبراليين الذين أخذوا يتحصنون وراء قلاع قدمها الاتحاد الاوروبى على طريق العضوية الكاملة لتركيا. وقد حاول دوندار الدفاع عن نفسه وقال «أنا وحدى أتحمل مسؤولية اختيار النص والمشاهد والحبكة السينمائية، هكذا رأيت أتاتورك، وهكذا أردت تقديمه من خلال ما وصلت إليه من وثائق ومعلومات. هم لا يفعلون أى شىء، كل همهم هو انتقادنا عندما نقوم بعمل ما، فليتفضلوا هم لإنجاز ما يستحق أن نكتب عنه».

دوندار الإعلامى المتواضع المحترف الذى عرف بمصداقيته ورصانته المهنية هو حقا وسط حقل من الألغام، لا يعرف أحد كيف سينجو منه هذه المرة. هل سيغفر له إشرافه على الكثير من الأفلام الوثائقية التلفزيونية الناجحة والتى احتل صدارتها فيلم «صارى زيبك» الذى يوجز حياة أتاتورك بشكل وأسلوب مختلفين تماما؟

■ ■ ■

14

الثورة الهندية..
والمهاتما غاندى



لا تُذكر ثورة الهند التاريخية على الاستعمار البريطانى، إلا ويذكر المهاتما غاندى زعيم الثورة وأبوها الروحى، مفجرها وباعثها، وسر نجاحها المذهل.

تاريخ هذه الثورة السلمية، أو «ثورة اللاعنف» كما تسمى، هو تاريخ غاندى نفسه، فقد وهب حياته للثورة، فكانت سنوات عمره هى تقريبا سنوات الثورة !

وسائل الراحل العظيم غاندى دائماً من أجل استعادة حقوق شعبه لا تنادى بالعنف على الإطلاق ولكن كانت تعتمد على وسائل أخرى كثيراً ما تؤدى لنتائج أفضل ومنها المقاطعة والاعتصام والامتناع عن الطعام والعصيان المدنى وغيرها من وسائل الضغط السلمى والتى يجب أن يكون المناضل على اقتناع كامل بها حتى لو أدى هذا إلى موته فى سبيل قضيته، ولا يعنى هذا بشكل أو بآخر الخوف من المواجهة المباشرة واستخدام العنف، لأنه أحياناً عندما تفشل أساليب الضغط السلمى يضطر المناضل للجوء للعنف، وكان غاندى من خلال أسلوب اللاعنف الذى اتبعه يحاول إبراز ظلم المحتل ومحاولة كسب الرأى العام فى صفه، كل هذا كخطوة مبدئية للقضاء على العدو وإبعاده تماماً.

ويعتبر غاندى هو من بعث الحياة فى حركة المقاومة الوطنية مرة أخرى بما كان له من دور فعال فى جمع شتات الهنود ودفعهم من أجل هدف واحد، فقام بشحذ هممهم من أجل هدف قوى وهو تحرير وطنهم وإيجاد حل لمشاكلهم ومعاناتهم، فذابوا جميعاً فى بوتقة واحدة على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم وكان هذا فى حد ذاته أول طريق النجاح فى مشوار

غاندى أنه حقق الوحدة بين الهنود على الرغم من الاختلافات بينهم.

والمهاتما غاندى (٢ أكتوبر ١٨٦٩ ـ ٣٠ يناير ١٩٤٨) كان السياسى البارز والزعيم الروحى للهند خلال حركة استقلال الهند. كان رائداً للساتياغراها وهى مقاومة الاستبداد من خلال العصيان المدنى الشامل، التى تأسست بقوة عقب (أهمسا) أو اللاعنف الكامل، والتى أدت إلى استقلال الهند وألهمت الكثير من حركات الحقوق المدنية والحرية فى جميع أنحاء العالم.

غاندى معروف فى جميع أنحاء العالم باسم المهاتما غاندى أى «الروح العظيمة»، وهو تشريف تم تطبيقه عليه من قبل رابندراناث طاغور، وأيضاً فى الهند باسم بابا أى «الأب». تم تشريفه رسميّاً فى الهند باعتباره أبا الأمة؛ حيث إن عيد ميلاده، ٢ أكتوبر، يتم الاحتفال به هناك كغاندى جايانتى، وهو عطلة وطنية، وعالميّاً هو اليوم الدولى للاعنف.

قام غاندى باستعمال العصيان المدنى اللاعنفى حينما كان محامياً مغترباً فى جنوب أفريقيا، فى الفترة التى كان خلالها المجتمع الهندى يناضل من أجل الحقوق المدنية. بعد عودته إلى الهند فى عام ١٩١٥، قام بتنظيم احتجاجات من قبل الفلاحين والمزارعين والعمال فى المناطق الحضرية ضد ضرائب الأراضى المفرطة والتمييز فى المعاملة.

بعد توليه قيادة المؤتمر الوطنى الهندى فى عام ١٩٢١، قاد غاندى حملات وطنية لتخفيف حدة الفقر، وزيادة حقوق المرأة، وبناء وئام دينى ووطنى، ووضع حد للنبذ، وزيادة الاعتماد على الذات اقتصاديّاً.

قبل كل شىء، كان يهدف إلى تحقيق (سواراج) أو استقلال الهند من السيطرة الأجنبية. قاد غاندى أيضا أتباعه فى حركة عدم التعاون التى احتجت على فرض بريطانيا ضريبة على الملح فى مسيرة ملح داندى عام

١٩٣٠، والتى كانت مسافتها ٤٠٠ كيلومتر.

تظاهر ضد بريطانيا لاحقاً للخروج من الهند. قضى غاندى عدة سنوات فى السجن فى كل من جنوب أفريقيا والهند.

وكممارس للأهمسا، أقسم أن يتكلم الحقيقة، ودعا إلى أن يفعل الآخرون الشىء ذاته. عاش غاندى متواضعا فى مجتمع يعيش على الاكتفاء الذاتى، وارتدى الدوتى والشال الهنديين التقليديين، واللذين نسجهما يدوياً بالغزل على الشاركا.

كان يأكل أكلاً نباتيّاً بسيطاً، وقام بالصيام فترات طويلة كوسيلة لكل من التنقية الذاتية والاحتجاج الاجتماعى.

ولد المهاتما غاندى فى بوربندر بولاية غوجارات الهندية من عائلة محافظة لها باع طويل فى العمل السياسى، حيث شغل جده ومن بعده والده منصب رئيس وزراء إمارة بوربندر، كما كان للعائلة مشاريعها التجارية المشهورة.

وقضى طفولة عادية ثم تزوج وهو فى الثالثة عشرة من عمره بحسب التقاليد الهندية المحلية ورزق من زواجه هذا بأربعة أولاد.

سافر غاندى إلى بريطانيا عام ١٨٨٢ لدراسة القانون، وعاش فى الشهور الأولى من إقامته فى لندن فى حال من الضياع، وعدم التوازن، والرغبة فى أن يكون رجلاً إنجليزياً نبيلاً.

غير أنه سرعان ما أدرك أنه لا سبيل أمامه سوى العمل الجاد، خاصةً أن وضعه المالى والاجتماعى لم يكونا يسمحان له باللهو وضياع الوقت.

وسرعان ما عاد غاندى إلى تدينه والتزامه وسعيه إلى الحقيقة والأخلاق. فأخذ يتعلم القانون، ويعمل على تفسير النصوص بطريقة تناسب عقلية شعبه، ويقبل ما يشبع العقل، ويوحِّد عقله مع دينه، ويطابقه بما يملى عليه ضميره.

بدأت ملامح شخصية غاندى تتضح؛ وكانت نباتيته مصدراً دائماً لإحراجه، فهذه النباتية موروث ثقافى تحول عنده إلى قناعة وإيمان، فأنشأ نادياً نباتيّاً، رأسه الدكتور أولدفيلد محرِّر مجلة «النباتى»، وصار السيد أدوين آرنولد نائباً للرئيس، وغاندى أميناً للسر.

ويبدو أن حياة غاندى فى إنجلترا، وتجاربه فيها، كانتا تتقيدان بوجهة نظره الاقتصادية ومفهومه للصحة.

عاد غاندى إلى الهند فى يوليو عام ١٨٩٠، بعد حصوله على الإجازة الجامعية التى تخوله ممارسة مهنة المحاماة إلا أنه واجه مصاعب كثيرة، بدأت بفقدانه والدته التى غيبها الموت، واكتشافه أن المحاماة ليست طريقاً مضموناً للنجاح. وقد أعاده الإخفاق من بومباى إلى راجكوت، فعمل فيها كاتباً للعرائض، خاضعاً لصلف المسئولين البريطانيين.

ولهذا السبب لم يتردد فى قبول عرض للتعاقد معه لمدة عام، قدَّمته له مؤسسة هندية فى ناتال بجنوب إفريقيا.

وبدأت مع سفره إلى جنوب إفريقيا مرحلة كفاحه السلمى فى مواجهة تحديات التفرقة العنصرية.

أسس غاندى ما عرف فى عالم السياسة بـ «المقاومة السلمية» أو فلسفة اللاعنف (الساتياغراها)، وهى مجموعة من المبادئ تقوم على أسس دينية وسياسية واقتصادية فى آن واحد ملخصها الشجاعة والحقيقة واللاعنف، وتهدف إلى إلحاق الهزيمة بالمحتل عن طريق الوعى الكامل والعميق بالخطر المحدق وتكوين قوة قادرة على مواجهة هذا الخطر باللاعنف أولا ثم بالعنف إذا لم يوجد خيار آخر.

وتتخذ سياسة اللاعنف عدة أساليب لتحقيق أغراضها منها الصيام والمقاطعة والاعتصام والعصيان المدنى والقبول بالسجن وعدم الخوف من

أن تقود هذه الأساليب حتى النهاية إلى الموت. واللا عنف لا تعنى السلبية والضعف كما يتخيل البعض بل هى كل القوة إذا آمن بها من يستخدمها.

يشترط غاندى لنجاح هذه السياسة تمتع الخصم ببقية من ضمير وحرية تمكنه فى النهاية من فتح حوار موضوعى مع الطرف الآخر.

وبعد هذا قام غاندى بالاعتصام وزيادة عمل نسبة الكلكلى فى الهند لأن الكلكى هو من أحد الآثار التربوية فى الهند.

وقد تأثر غاندى بعدد من المؤلفات كان لها دور كبير فى بلورة فلسفته ومواقفه السياسية منها «نشيد الطوباوى» وهى عبارة عن ملحمة شعرية هندوسية كتبت فى القرن الثالث قبل الميلاد واعتبرها غاندى بمثابة قاموسه الروحى ومرجعا أساسيا يستلهم منه أفكاره.

إضافة إلى «موعظة الجبل» فى الإنجيل، وكتاب «حتى الرجل الأخير» للفيلسوف الإنجليزى جون راسكين الذى مجد فيه الروح الجماعية والعمل بكافة أشكاله، وكتاب الأديب الروسى تولستوى «الخلاص فى أنفسكم» الذى زاده قناعة بمحاربة المبشرين المسيحيين، وأخيرا كتاب الشاعر الأميركى هنرى ديفد تورو «العصيان المدنى». ويبدو كذلك تأثر غاندى بالبراهماتية التى هى عبارة عن ممارسة يومية ودائمة تهدف إلى جعل الإنسان يتحكم بكل أهوائه وحواسه بواسطة الزهد والتنسك وعن طريق الطعام واللباس والصيام والطهارة والصلاة والخشوع والتزام الصمت يوم الاثنين من كل أسبوع.

وعبر هذه الممارسة يتوصل الإنسان إلى تحرير ذاته قبل أن يستحق تحرير الآخرين.

يقول غاندى عن الإسلام: «أردت أن أعرف صفات الرجل الذى يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.

لقد أصبحت مقتنعا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التى من

خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة فى ربه وفى رسالته.هذه الصفات هى التى مهدت الطريق. وتخطت المصاعب وليس السيف».

ويقول أيضا: «بعد انتهائى من قراءة الجزء الثانى من حياة الرسول محمد «ﷺ» أجد نفسى بحاجة أكثر إلى التعرف على حياته العظيمة».

سافر غاندى وعائلته إلى جنوب إفريقيا عام ١٨٩٣، وسكن ولاية «ناتال» الواقعة على المحيط الهندى، مقيماً فى أهم مدنها «دوربان» التى عُرفت بصناعة السكر والتبغ، ويوجد الفحم فيها فى المرتفعات الداخلية.

عمل غاندى فى جنوب إفريقيا مدافعاً عن حقوق عمال الزراعة الهنود والبوير العاملين فى مزارع قصب السكر.

وكان مجتمع العمال فى جنوب إفريقيا منقسماً إلى جماعات مختلفة: جماعة التجار المسلمين «العرب»، وجماعة المستخدمين الهندوس، والجماعة المسيحية، وكانت بين هذه الجماعات الثلاث بعض الصلات الاجتماعية.

لم يكن غاندى يعرف معلومات كثيرة عن الاضطهاد والتمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا، ولكن مع مرور الأيام على وجوده فى جنوب إفريقيا؛ اطلع على العديد من الحقائق والوقائع المفزعة الخاصة بممارسة التمييز العنصرى. حيث شجعت حكومة جنوب إفريقيا على الاضطهاد العرقى، وعملت على تنفيذ إجراءات جائرة لمنع هجرة المزيد من الآسيويين إليها، وإكراه السكان المقيمين منهم فى جنوب إفريقيا على الرحيل عنها، من خلال فرض ضرائب باهظة عليهم، ومطاردتهم من الشرطة، إضافة إلى أعمال النهب وتدمير المحلات والممتلكات تحت سمع حكومة البيض وبصرها.

دافع غاندى عن العمال الهنود والمستضعفين من الجاليات الأخرى،

واتخذ من الفقر خياراً له، وتدرب على الإسعافات الأولية ليكون قادراً على إسعاف البسطاء، وهيّأ منزله لاجتماعات رفاقه من أبناء المهنة ومن الساسة، حتى إنه كان ينفق من مدخرات أسرته على الأغراض الإنسانية العامة. وقاده ذلك إلى التخلى عن موكليه الأغنياء، ورفضه إدخال أطفاله المدارس الأوربية استناداً إلى كونه محامياً، يترافع أمام المحاكم العليا.

كان تعاقده مع المؤسسة الهندية لمدة عام قابلة للتمديد إن رغب. وقد رغب فى مغادرة جنوب إفريقيا، ولكنّ حادثة شهيرة وقعت جعلته يصمم على البقاء للدفاع عن حقوق الهنود هناك. فقد أعلنت حكومة جنوب إفريقيا نيتها إصدار تشريع يحظر حق الاقتراع العام على الهنود.

وكان هؤلاء من الضعف والعجز بحيث لا يستطيعون الدفاع عن حقوقهم، كما افتقروا إلى القيادة القوية. وكان ذلك الأمر إيذاناً ببدء كفاح غاندى غير العنيف، فى مواجهة السلطة البيضاء العنصرية. وقد مكنته معرفته بالقوانين من البرهنة على عدم شرعية قانون الاقتراع العام، وتمكن من أن يكسب معركته.

بدأ غاندى كفاحه السلمى بتحرير آلاف العرائض وتوجيهها إلى السلطة البيضاء فى جنوب إفريقيا. وقام بتنظيم «المؤتمر الهندى» فى الناتال، وأسس صحيفة «الرأى الهندى» التى صدرت باللغة الإنجليزية وبثلاث لغات هندية أخرى. وعمل على إقامة مستعمرة «فينيكس» الزراعية قرب «دوربان» فى العام ١٩٠٤ وهى مستعمرة صغيرة أسسها مع قليل من أصدقائه الذين شاركوه أفكاره بأهمية الابتعاد عن صخب المدن وتلوثها، وعن طمع وكراهية وحقد البشر فى المدن، فانسحب الهنود من المدن الرئيسية، مما أصاب الأعمال الصناعية بالشلل التدريجى.

ولقد اعتقل غاندى أكثر من مرة، ولكن فى عام ١٩٠٦ بعد أن أصدرت حكومة إقليم الترانسفال قانوناً جديداً سمى بالقانون الآسيوى الجديد، وهو

قانون يفرض على من يريد من الهنود من الرجال والنساء والأطفال، فوق سن الثامنة، الإقامة فى الترانسفال أن يعيد تسجيل نفسه من جديد، ويحصل على إقامة جديدة. ومن يخالف القانون يكن مذنباً ويتعرض للسجن أو الترحيل.

ووصلت العنصرية إلى حد اقتحام قوات البوليس منازل الهنود للتفتيش. فاندلعت مظاهرات فى جوهانسبورغ، وتعاطف الصينيون مع الهنود وانضموا إلى حركتهم. ولقد امتلأت السجون بالمعتقلين. فأرسل غاندى وفداً من ممثلى الهنود فى جنوب إفريقيا إلى إنجلترا وكان اقترح ثلاثة شروط فى مجال المقاومة القانونية، واعتبر هذه المهمة تكليفاً، وهذه الشروط هى:

١ ـ يجب على من هم مستعدون للمقاومة ضد القانون، فى حال تنفيذه، أن يجددوا تعهدهم بالمقاومة.

٢ ـ ينبغى جمع تبرعات لتغطية نفقات سفر الوفد وإقامته فى لندن.

٣ ـ يجب أن يكون عدد الوفد ثابتاً.

وقد التقى الوفد بوزير المستعمرات البريطانى، حيث كانت الترانسفال مستعمرة تابعة للتاج البريطانى. فأظهر الوزير الإنكليزى عدم رضاه علناً عن القانون، فى حين أوعز فى السر إلى حكومة إقليم الترانسفال بأن بريطانيا ستمنح الإقليم الحكم الذاتى إذا ما نفذت القانون.

وألقت قوات الشرطة القبض على غاندى وقادة آخرين بعد تطبيق القانون، وأطلق سراحه بعد مدة قصيرة، ثم قبض عليه مرة أخرى عام ١٩٠٨، واقتيد إلى قلعة جوهانسبورغ بملابس السجن.

ووصلت أنباء الاضطرابات الواسعة والاجتماعات الجماهيرية والمسيرات السلمية إلى الهند، ففرضت على نائب الملك فيها اللورد «هاربنك» تقديم

احتجاج إلى حكومة جنوب إفريقيا لمعاملتها المشينة للهنود.

وجد غاندى وجماعته أنفسهم هدفاً لهراوات الشرطة التى عملت على تفتيت إرادة المقهورين من خلال تكسير العظام، فخرج إلى العالم بالإخلاص للحقيقة (الساتياغراها) على أنه سلاح يغير بوساطته المظالم. يتحمل الألم، ويقاوم الأعداء بلا ضغينة، ويحارب الخصوم بلا عنف.

واستمر نضال غاندى على هذا النحو طوال تلك السنوات. قطع معه الألوف الشوط حتى النهاية، مضحين بالعمل والحرية، دخلوا السجون، وتعرضوا للجوع والجلد والمهانة والرصاص، حتى رأت السلطات أن تقلل من تعسفها، فعرضت على غاندى تسوية بين الجانبين وافق عليها، وغادر بعدها جنوب إفريقيا متوجهاً إلى الهند فى يوليو ١٩١٤م.

وقد حققت حركة اللاعنف التى قادها غاندى النصر والحياة الكريمة، وضمنت كرامة الهنود فى جنوب إفريقيا وحقوقهم، بعد عشرين عاماً من الكفاح.

كانت جنوب إفريقيا مستعمرة بريطانية كالهند وبها العديد من العمال الهنود الذين قرر غاندى الدفاع عن حقوقهم أمام الشركات البريطانية التى كانوا يعملون فيها.

وتعتبر الفترة التى قضاها بجنوب أفريقيا (١٨٩٣ ـ ١٩١٥) من أهم مراحل تطوره الفكرى والسياسى حيث أتاحت له فرصة لتعميق معارفه وثقافاته والاطلاع على ديانات وعقائد مختلفة، واختبر أسلوبا فى العمل السياسى أثبت فعاليته ضد الاستعمار البريطانى. وأثرت فيه مشاهد التمييز العنصرى التى كان يتبعها البيض ضد الأفارقة أصحاب البلاد الأصليين أو ضد الفئات الملونة الأخرى المقيمة هناك. وكان من ثمرات جهوده آنذاك:

■ إعادة الثقة إلى أبناء الجالية الهندية المهاجرة وتخليصهم من عقد

الخوف والنقص ورفع مستواهم الأخلاقى.

■ إنشاء صحيفة «الرأى الهندى» التى دعا عبرها إلى فلسفة اللاعنف.

■ تأسيس حزب «المؤتمر الهندى الناتال» ليدافع عبره عن حقوق العمال الهنود.

■ محاربة قانون كان يحرم الهنود من حق التصويت.

■ تغيير ما كأن يعرف بـ «المرسوم الآسيوى» الذى يفرض على الهنود تسجيل أنفسهم فى سجلات خاصة.

■ ثنى الحكومة البريطانية عن عزمها تحديد الهجرة الهندية إلى جنوب أفريقيا.

■ مكافحة قانون إلغاء عقود الزواج غير المسيحية.

عاد غاندى من جنوب أفريقيا إلى الهند عام ١٩١٥، وفى غضون سنوات قليلة من العمل الوطنى أصبح الزعيم الأكثر شعبية. وركز عمله العام على النضال ضد الظلم الاجتماعى من جهة وضد الاستعمار من جهة أخرى، واهتم بشكل خاص بمشاكل العمال والفلاحين والمنبوذين واعتبر الفئة الأخيرة التى سماها «أبناء الله» سبة فى جبين الهند ولا تليق بأمة تسعى لتحقيق الحرية والاستقلال والخلاص من الظلم.

وقرر غاندى فى عام ١٩٣٢ البدء بصيام حتى الموت احتجاجا على مشروع قانون يكرس التمييز فى الانتخابات ضد المنبوذين الهنود، مما دفع بالزعماء السياسيين والدينيين إلى التفاوض والتوصل إلى «اتفاقية بونا» التى قضت بزيادة عدد النواب «المنبوذين» وإلغاء نظام التمييز الانتخابى.

تميزت مواقف غاندى من الاحتلال البريطانى لشبه القارة الهندية فى عمومها بالصلابة المبدئية التى لا تلغى أحيانا المرونة التكتيكية، وتسبب له تنقله بين المواقف القومية المتصلبة والتسويات المرحلية المهادنة حرجا مع

خصومه ومؤيديه وصل أحيانا إلى حد التخوين والطعن فى مصداقية نضاله الوطنى من قبل المعارضين لأسلوبه، فعلى سبيل المثال تعاون غاندى مع بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ضد دول المحور.

وشارك عام ١٩١٨ بناء على طلب من الحاكم البريطانى فى الهند بمؤتمر دلهى الحربى، ثم انتقل للمعارضة المباشرة للسياسة البريطانية بين عامى ١٩١٨ و١٩٢٢ وطالب خلال تلك الفترة بالاستقلال التام للهند.

وفى عام ١٩٢٢ قاد حركة عصيان مدنى صعدت من الغضب الشعبى الذى وصل فى بعض الأحيان إلى صدام بين الجماهير وقوات الأمن والشرطة البريطانية مما دفعه إلى إيقاف هذه الحركة، ورغم ذلك حكمت عليه السلطات البريطانية بالسجن ست سنوات ثم عادت وأفرجت عنه فى عام ١٩٢٤م.

وتحدى غاندى القوانين البريطانية التى كانت تحصر استخراج الملح بالسلطات البريطانية مما أوقع هذه السلطات فى مأزق، وقاد مسيرة شعبية توجه بها إلى البحر لاستخراج الملح من هناك، وفى عام ١٩٣١ أنهى هذا العصيان بعد توصل الطرفين إلى حل وسط ووقعت معاهدة غاندى - إيروين.

وقرر غاندى فى عام ١٩٣٤ الاستقالة من حزب المؤتمر والتفرغ للمشكلات الاقتصادية التى كان يعانى منها الريف الهندى، وفى عام ١٩٣٧ شجع الحزب على المشاركة فى الانتخابات معتبرا أن دستور عام ١٩٣٥ يشكل ضمانة كافية وحدا أدنى من المصداقية والحياد.

وفى عام ١٩٤٠ عاد إلى حملات العصيان مرة أخرى فأطلق حملة جديدة احتجاجا على إعلان بريطانيا الهند دولة محاربة لجيوش المحور دون أن تنال استقلالها، واستمر هذا العصيان حتى عام ١٩٤١ كانت بريطانيا خلالها مشغولة بالحرب العالمية الثانية ويهمها استتباب أوضاع

الهند حتى تكون لها عونا في المجهود الحربي.

وإزاء الخطر اليابانى المحدق حاولت السلطات البريطانية المصالحة مع الحركة الاستقلالية الهندية فأرسلت فى عام ١٩٤٢ بعثة عرفت باسم «بعثة كريبس» ولكنها فشلت فى مسعاها، وعلى أثر ذلك قبل غاندى فى عام ١٩٤٣ ولأول مرة فكرة دخول الهند فى حرب شاملة ضد دول المحور على أمل نيل استقلالها بعد ذلك، وخاطب الإنجليز بجملته الشهيرة «اتركوا الهند وأنتم أسياد»، لكن هذا الخطاب لم يعجب السلطات البريطانية فشنت حملة اعتقالات ومارست ألوانا من القمع العنيف كان غاندى نفسه من ضحاياه حيث ظل معتقلا خلف قضبان السجن ولم يفرج عنه إلا فى عام ١٩٤٤م.

بانتهاء عام ١٩٤٤ وبداية عام ١٩٤٥ اقتربت الهند من الاستقلال الذى تحقق لها أخيرا فى عام ١٩٤٧، بعد مقاومة شعبية ونضال قاده غاندى.

بعد الاستقلال تزايدت المخاوف من الدعوات الانفصالية الهادفة إلى تقسيمها إلى دولتين بين المسلمين والهندوس، وحاول غاندى إقناع محمد على جناح الذى كان على رأس الداعين إلى هذا الانفصال بالعدول عن توجهاته لكنه فشل.

وتم ذلك بالفعل فى ١٦ أغسطس ١٩٤٧، وما إن أعلن تقسيم الهند حتى سادت الاضطرابات الدينية عموم الهند وبلغت من العنف حدا تجاوز كل التوقعات فسقط فى كلكتا وحدها على سبيل المثال ما يزيد عن خمسة آلاف قتيل. وقد تألم غاندى لهذه الأحداث واعتبرها كارثة وطنية، كما زاد من ألمه تصاعد حدة التوتر بين الهند وباكستان بشأن كشمير وسقوط العديد من القتلى فى الاشتباكات المسلحة التى نشبت بينهما عام ١٩٤٨/١٩٤٧ وأخذ يدعو إلى إعادة الوحدة الوطنية بين الهنود والمسلمين طالبا بشكل خاص من الأكثرية الهندوسية احترام حقوق الأقلية المسلمة.

لم ترق دعوات غاندى للأغلبية الهندوسية باحترام حقوق الأقلية المسلمة، واعتبرتها بعض الفئات الهندوسية المتعصبة خيانة عظمى فقررت التخلص منه، وبالفعل فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ أطلق أحد الهندوس المتعصبين ثلاث رصاصات قاتلة سقط على أثرها المهاتما غاندى صريعا عن عمر يناهز ٧٩ عاما.

تعرض غاندى فى حياته لخمس محاولات لاغتياله، وقد لقى مصرعه فى المحاولة السادسة.

■ ■ ■

15

الثورة الإسبانية..
والجنرال فرانكو



اندلعت، منذ ٧٥ عاما، الحرب الأهلية الإسبانية فى يوليو عام ١٩٣٦، وكانت وقبل كل شىء، ثورة اجتماعية كبرى قام بها الشعب.

فى عام الثورة كانت إسبانيا تخضع لسيطرة شبه مطلقة للكنيسة الكاثوليكية على المجتمع، وكان هناك تخلف ثقافى كبير: فمن بين ٢٣ مليون نسمة كان ١٢ مليونا أميين، ولا يكاد يتجاوز عدد الطلبة ٣٥,٠٠٠ فى حين يصل عدد رجال الكنيسة إلى ١٣٠,٠٠٠ !! كان رجال الدين يمتلكون عدة أراض، عقارات، بنوك ومناجم... من جهة أخرى، كانت فى إسبانيا عدة صناعات عصرية وطبقة عاملة كبيرة (٢٧٪ من السكان) منظمة فى نقابات قوية وممركزة فى أكبر المراكز الصناعية فى البلد (كاطالونيا، بلاد الباسك، مدريد، أستورياس). إسبانيا سنة ١٩٣٦ كانت بلد الفوارق الاجتماعية والبؤس: ٨ ملايين فقير، مليونا فلاح دون أرض. وبالتالى كانت مسألة إصلاح زراعى من أجل «امتلاك الأراضى لمن يزرعها» مسألة مركزية.

وكانت البرجوازية الإسبانية ضعيفة جدا، وذلك ما يفسر أن البلاد كانت عمليا تحت سيطرة رجال الدين الكاثوليك وفئة الضباط وملاكى الأراضى الكبار وكانت إيديولوجيا هؤلاء «الأسياد» الجديرين بالفيودالية كانت مركبا من الأصولية الدينية والعنصرية والقومية والعداء الأولى للاشتراكية.

كان الوضع ينذر بالانفجار وكان الصراع الطبقى سيؤدى، لا محالة، إلى مواجهة عنيفة ما بين الفلاحين الفقراء والعمال من جهة، والطبقات المسيطرة الجائرة من جهة أخرى.

بدأت إرهاصات الثورة منذ أوائل الثلاثينيات، وعرفت عدة مراحل.

ففى سنة ١٩٣٠، بعد عشر سنوات من نظام دموى، وأمام استعصاء حل الأزمة الاقتصادية التى تضرب البلاد بقسوة، قدم الديكتاتور بريمو دى ريفيرا استقالته إلى الملك ألفونسو.

وفى سنة ١٩٣١، وبعد أول انتخابات ديمقراطية نسبيا تشهدها البلاد، تم إعلان الجمهورية بعد تنحى الملك. استيقظت الطبقة العاملة والفلاحون الفقراء الذين كانت قد سحقتهم سنوات الديكتاتورية، فبدأوا فى خوض المعركة تلو الأخرى لأن المستفيدين من النظام القديم كانوا لايزالون قائمين ينظرون غير راضين لسقوط الملكية والفوضى السائدة.

فى سنة ١٩٣٤، وبعد مناورات سياسية، دخلت الكونفدرالية الإسبانية لليمين المستقل، حزب اليمين المتطرف، الحكومة وحاولت الإجهاز على المكاسب الهزيلة المنتزعة سنة ١٩٣١م. فكان غضب العمال مباشرا.

واندلعت إضرابات كبرى فى كل مكان تقريبا. ففى منطقة أستورياس، وهى منطقة منجمية بشكل خاص، قام العمال بانتفاضة واستولوا على السلطة خلال ١٥ يوما، لكن بقية البلاد لم تساير الانتفاضة مما أدى إلى سحق العمال، الذين ظلوا معزولين، من طرف فيالق كولونيل يدعى فرانكو أُرسل هناك لاستتباب النظام، فكان القمع وحشيا، حيث سقط خمسة آلاف قتيل وتم إلقاء ٣٠ ألفا آخرين فى السجن.

كانت هذه الانتفاضة بمثابة «تدريب عام» للثورة الشعبية الحقيقية لسنة ١٩٣٦ والتى سمحت للطبقة العاملة باستخلاص الدروس.

فقد تشكلت الجبهة الشعبية، خلال انتخابات فبراير ١٩٣٦، من القوى العمالية اليسارية الأساسية: الحزب الاشتراكى، الحزب الشيوعى، نقابة الاتحاد العام للشغيلة وحزب العمال للتوحيد الماركسى.

لكن احتوت هذه الجبهة أيضا على أحزاب برجوازية وجمهورية

«يسارية». لم تشارك الكونفدرالية الوطنية للعمال، والتى تضم أكثر من مليون فلاح وعامل، لم تشارك فى الانتخابات رغم أنها لم تدعُ إلى المقاطعة. كان برنامج الجبهة الشعبية، بحكم تواجد أحزاب برجوازية، جد معتدل بحيث يغيب الحديث تماما عن تأميم الأراضى ولا حتى البنوك، لاشىء بخصوص المستعمرات ولا عن الحكم الذاتى لبعض مناطق البلاد.

اكتسبت الجبهة الشعبية تعاطفا لأنها طالبت، على وجه الخصوص، بالعفو الشامل على المنتفضين سنة ١٩٣٤ وإعادة إدماج الذين تم تسريحهم لأسباب سياسية إلى عملهم. فى المقابل، تحالف اليمين واليمين المتطرف كذلك وشكلوا «الجبهة الوطنية» التى ضمت الملكيين، الكونفدرالية الإسبانية لليمين المستقل والفيالق الفاشية.

كانت النتائج واضحة يوم ١٦ فبراير: انتصرت الجبهة الشعبية. ومع ذلك كان الوزراء الذين شكلوا أول حكومة الجبهة الشعبية كلهم من الأحزاب البرجوازية، أما بالنسبة للجماهير، فقد كان الفوز الانتخابى ضد اليمين بمثابة حافز لهم. كان البرنامج المعتدل أبعد ما يكون عن مستوى تطلعاتها، وبالتالى كانت تعتزم المضى إلى أكثر من ذلك.

وهذا ما جعل آلاف المتظاهرين يقتحمون السجون ويحررون المعتقلين السياسيين منذ عام ١٩٤٤ وذلك حتى قبل أن يتم التصويت على قانون العفو.

كما تم خوض إضرابات جماهيرية للمطالبة بالزيادة فى الأجور وتحسين ظروف العمل. واحتل آلاف الفلاحين ضيعات كبار مالكى الأراضى، وفى كل مكان فى البلاد تعرضت الكنائس والأديرة، رموز الاضطهاد الهمجى لرجال الدين، للإحراق. وغداة الانتخابات، بدأت الرجعية تتنظم وسط قوات اليمين واليمين المتطرف حيث قام كل من الفاشيين ورجال الشرطة والجنود باغتيالات سياسية ضد المناضلين.

وفى أوساط الجيش، بدأ التآمر بشكل مكشوف من أجل قلب نظام الجمهورية حيث قام بعض الجنرالات باتصالات مع الديكتاتوريات الفاشية لسالازار بالبرتغال وهتلر وموسولينى الذين وعدوهم بالدعم السياسى والمادى. وبالفعل، كانت ستكون لثورة ظافرة بإسبانيا تداعيات كبيرة على هذه البلدان ومن ثم بقية أوروبا. رغم ذلك لم تتخذ حكومة الجمهورية البرجوازية أية إجراءات دفاعية رغم علمها بالمآمرة العسكرية.

وخلال ليلة ١٦ و١٧ يوليو، تمرد جنود فرانكو، بالمغرب، ضد الجمهورية واتجهوا نحو الشمال، فكانت بذلك الإشارة. تحرك العسكريون يومى ١٧ و١٨ يوليو فى كل ثكنات شبه الجزيرة. فقط ١٠٪ من الضباط من بقوا أوفياء للجمهورية. لم توجه الحكومة المرتبكة أى نداء للشعب، حاولت عكس ذلك، فى الكواليس، التفاوض مع الجنرالات المتمردين. وعبثا، ظلت قيادات أهم الأحزاب العمالية صامتة هى الأخرى.

ومع ذلك، أدى الانقلاب العسكرى الذى كان من المفترض أن يَحُول دون قيام ثورة اجتماعية، أدى إلى عكس ذلك، إلى إيقادها. كانت بذلك واحدة من أكبر الثورات الشعبية فى التاريخ حيث نزل مئات الآلاف من العمال إلى الشوارع وأعلنت نقابتا الاتحاد العام للشغل والكنفدرالية الوطنية للعمال الإضراب العام.

وقامت مجموعات العمال بالتسلح قدر ما استطاعوا واستولوا على مخازن الأسلحة كما اقتحموا الثكنات وقاموا بتحييد العسكريين الانقلابيين. فأُجهض بذلك الانقلاب فى معظم أرجاء البلاد.

وفى أهم المدن الصناعية، تمت تصفية العسكريين. وحيث يسيطر الانقلابيون، شُنت حملة قمع وحشى مصحوبة بإعدامات جماعية للمعارضين. انطلقت بالتالى الحرب الأهلية والثورة كذلك.

ما بين الجيش المتمرد والشعب المسلح المطالب بتغيير اجتماعى راديكالى، بدأت السلطة الرسمية للجمهورية البرجوازية فى التلاشى: فقد ظلت المؤسسات قائمة لكن بدأت تُفرغ من مضمونها. بدأت تظهر عوضا عنها سلطة جديدة: سلطة العمال والفلاحين.

ففى كل مكان حيث قام الشعب بدحر العسكريين، كانت تتشكل لجان بشكل شبه تلقائى وبدأت تسير الحياة والتنظيم الاجتماعى لبقية المجتمع. تكلفت هذه اللجان، بشكل فورى، بتسليح العمال وبتشكيل الميليشيات التى ستهب لمواجهة فيالق فرانكو والجنرالات المتمردين الآخرين. لا وجود للترسيمات العسكرية فى الميليشيات، كان الضباط فى الغالب قد تم انتخابهم من طرف رجال الميليشيات، كما أن العمليات العسكرية كانت موضوع شرح ونقاش من طرف رجال ونساء الميليشيات.

احتلت النساء كذلك مناصب مهمة، قامت هذه اللجان كذلك بتنظيم الرقابة على المقاولات حيث كان العمال أنفسهم يشرفون على سير الإنتاج (فى كاتالونيا، ستخضع ٧٠٪ من المقاولات إلى التسيير الذاتى).

كما قامت اللجان باسترجاع الخدمات العمومية وبالإشراف على العدالة، تم اتخاذ أيضا إجراءات مساواة راديكالية ضد البطالة والبؤس حيث تم، فى برشلونة، تشغيل كل المتسولين فى المنظمات النقابية، وأقيمت تعاونيات فى كل مكان.

فى البوادى قامت اللجان المحلية بإصلاح زراعى حقيقى. لقد تم تغيير الحياة اليومية نفسها بحيث أصبحت رياح الحرية الرائعة تهب فى المناطق «الجمهورية». خيضت أيضا تجارب اجتماعية فريدة، ففيما يخص القضية النسائية، كانت النساء الفوضويات، بشكل خاص، وراء بعض المبادرات فى بلد متخلف سابقا بدأ يمشى بخطوات كبيرة.

باختصار، دخلت ركائز النظام الاقتصادى والاجتماعى الرأسمالى طور التفكك مسجلة بذلك بداية ثورة أصيلة.

ثم بدأت وضعية ازدواجية السلطة فى النشوء من خلال السلطة المهتزة والمضعفة للبرجوازية ومؤسسات الدولة من جهة، ومن جهة أخرى، السلطة الناشئة والقوية للطبقات المستغَّلة. كان مخرج الوضع مصيريا: فلا يمكن لهتين السلطتين أن تتعايشا جنبا إلى جنب للأبد.

كانت السلطة الأولى تعبيرا عن نظام استبدادى، الرأسمالية، و كانت الثانية التعبير عن مجتمع جديد قيد النشوء، محرر من كل استغلال. كان محتما على إحداهما أن تزول.

ومن بين المميزات الأساسية لازدواجية السلطة هذه هو اللاتكافؤ بين القوى الاجتماعية والقوى السياسية فى كل من السلطتين حيث كانت السلطة الثورية الناشئة تتمتع بقوة اجتماعية وعسكرية هائلة مستندة على الجماهير فى حين أن السلطة البرجوازية «الرسمية»، التى تفتقد لأية قاعدة اجتماعية شعبية والتى جُردت من جزء هام من قوى القمع (اصطف الجيش والشرطة، بشكل واسع، إلى جانب الفاشيين)، كانت بالمقابل أقوى من الناحية السياسية، كانت قوتها السياسية تكمن فى أنها كانت تقدر جيدا وضعها الكارثى مما جعلها تتهيأ لتجاوزه.

وقد بدأت، بذكاء، فى استعادة ما فقدته، ساعدها فى ذلك الثوريون، وخصوصا الفوضويين، الذين لم يدركوا جيدا أبعاد ازدواجية السلطة وضرورة إزاحة الدولة البرجوازية. فى شهرى يوليو - غشت، كان بإمكان الثوريين، إذا ما أرادوا، المدعمين من طرف الجماهير، كان بإمكانهم قلب السلطة السياسية للبرجوازية بدون صعوبة.

ليس فقط لم يقوموا بذلك، بل سمحوا لهذه السلطة أن تصمد

بمشاركتهم فيها (على الصعيد الوطنى كان هناك مثلا ٣ وزراء... فوضويين).

وفى الأخير كانت هذه السلطة ذاتها هى مَن وضع حدّاً لازدواجية السلطة بتجريد اللجان الشعبية من مهامها شيئا فشيئا، إلى أن أزالتها نهائيا. ففى كاتالونيا مثلا، حيث كانت الثورة أكثر تقدما، شارك الثوريون فى الحكومة الرسمية، التى كانت أغلبيتها مشكلة أساسا من الوزراء الاشتراكيين، من الشيوعيين الستالينيين ومن الجمهوريين البرجوازيين حيث بدأت بتفكيك المكتسبات الاجتماعية وبإصدار مراسيم وقوانين لإعادة حق الملكية الخاصة، وبالأخص ملكية الأراضى مما كان يعيق أى إصلاح زراعى، كما تمت إعادة بعض المعامل إلى مالكيها...إلخ.

هكذا، فى كاتالونيا، دخل حزب العمال والاتحاد الوطنى للعمال الحكومة الكاتالونية.

فتم حل اللجنة المركزية للميليشيات فى الأول من أكتوبر، فأنجزت بذلك الثورة المضادة وبهدوء.

لكن الثورة المضادة النهائية تمت فى مايو ١٩٣٧ وهذه المرة بشكل دموى. حيث أُثير نقاش هام داخل قوى اليسار: فهناك من جهة من يقول بوجوب قيام ثورة اجتماعية كشرط أساسى للانتصار ضد الفاشية، ومن يريد تأجيل الثورة لاحقا بعد الحرب ضد الفاشية (الحزب الاشتراكى والحزب «الشيوعى»).

كان أصحاب الرأى يريدون قلب النظام البرجوازى، وفى نفس الوقت النضال ضد الفاشية، أما أصحاب الرأى الثانى فكانوا يطالبون بوقف كل انفجار اجتماعى، ويدعون إلى الوحدة مع البرجوازية ضد الفاشيين وبـ «كل شىء من أجل الحرب».

كان خيار البرجوازيين والستالينيين هو الذى فُرض بالقوة. فكانت نتيجة

هذا الخيار الهزيمة العسكرية وهزيمة كل أمل ثورى. لأن الحرب ضد الفاشية لم تكن فقط حربا عسكرية بل، وبالخصوص، حربا سياسية وإيديولوجية.

ومنذ بداية الحرب الأهلية، اتجه المعسكران نحو الخارج. لكن إذا كانت قوات فرانكو قد لاقت سريعا إمدادات من الأسلحة وحتى الجنود من طرف الدكتاتوريات الفاشية (ألمانيا، إيطاليا، البرتغال). فى المقابل لم يلاق الجمهوريون عمليا أى دعم، سياسيا كان أم عسكريا، من قبل «الديمقراطيات» الغربية.

فقد كانت البرجوازيات الغربية تتخوف أكثر من أية ثورة اشتراكية أخرى ظافرة بأسبانيا. ستكون لمثل هذه الثورة تداعيات فورية فى البلدان المجاورة وخصوصا فرنسا التى كانت تهزها أكبر الإضرابات والمظاهرات فى تاريخها، وكذلك إنجلترا. استحق فعلا بذلك الحفاظ على النظام البرجوازى جثة الجمهورية الأسبانية الديمقراطية.

لم يكن توقيع الدكتاتوريات الفاشية للمعاهدة، هى الأخرى، ليمنعها، طبعا، من مساعدة إخوانها. بَلدان فقط من قدما الدعم إلى إسبانية المعادية للفاشية: المكسيك، بإمكانياته المتوسطة، لكن بشكل مبدئى وسخى وكذلك الاتحاد السوفياتى. لكن مساعدة هذا الأخير لم تكن لا سخية ولا مجانية: فقد كانت لأولى إمدادات السلاح (الذى لم يصل حتى أكتوبر ١٩٣٦ كمقابل إجمالى احتياطات الذهب فى البنك الإسبانى)!

وكانت هذه المساعدة مشروطة بأن تضع الحكومة حدا لكل توجه ثورى. ستالين هو الأخير لم يكن يريد قيام ثورة فى إسبانيا، وكان يسعى لكسب «صداقة» البرجوازيات «الديمقراطية» الغربية، فلا مجال إذن لإزعاجهم بثورة، كانت الفترة الممتدة ما بين أكتوبر ٣٦ إلى مايو ٣٧ بمثابة نهاية المسلسل الثورى الذى ابتدأ فى يوليو ١٩٣٦، لتدخل البلاد بعد ذلك مباشرة النفق المظلم للحرب الأهلية التى بدت نتيجة من نتائج الثورة التى لم تنه نهاية سعيدة تعيد الاستقرار للبلاد.

بدأت الحرب الأهلية فى أسبانيا ١٩٣٦م.. وقد أعلن كالفو سوتيلو فى المجلس التشريعى أنه فى الفترة بين فبراير ويونيو من عام ١٩٣٦، حدث ١١٣ إضرابا عاما، ٢١٨ إضرابا جزئيا، بينما أحرقت ٢٨٤ بناية و١٧١ كنيسة، و٦٩ ناديا و١٠ مكاتب صحيفة، كما ارتكبت ٣٣٠٠ عملية اغتيال.

وبسبب هذا الإعلان، قفز رئيس الوزراء كساريس كويروغا على قدميه وأجابه بغضب: «ستكون أنت المسؤول شخصيا عن الانفعالات التى سيسببها خطابك».. أما الشيوعية دولوريز إباروري فقد وقفت فى المجلس وأشارت إلى سوتيلو صارخة: «لقد لفظ هذا الرجل خطابه الأخير».

وبالفعل كان هذا خطاب سوتيلو الأخير، لأنه سحب من منزله على يد جنود يقودهم الكابتن دون أنجل مورينو، وجره هؤلاء إلى باحة إحدى الكنائس القريبة وقتلوه.. ولقد كان هذا الحادث السبب وراء ترك بعض الجنرالات لمحفل الشرق الأكبر، وطلبهم من فرانكو أن يتسلم قيادة البلاد.. ويجب أن نعلم أن دولوريز إباروري كانت عميلة لستالين، وكانت مهمتها إفساد ضباط الجيش، وتنظيم وتدبير غارات على القوات الحكومية.. وقد أدت مهمتها المتعددة الجوانب على الوجه الأكمل.

وبعد اغتيال سوتيلو أغار حرس الطوارئ على منازل العديد من الشخصيات البارزة المعادية للشيوعية، ولكن أكثرهم تمكن من الفرار بعد أن تم إخطارهم بالأمر مسبقا.

وفى يوم الانتخابات (فبراير ١٩٣٦)، اتصل فرانكو تلفونيا بالجنرال بوزاس - قائد الحرس الشعبى - وأخطره بأن الشيوعيين المنتخبين للمجلس التشريعى يخططون لإثارة الشغب وأعمال العنف، بهدف الإطاحة بالحكومة الجمهورية.. ثم اتصل بالجنرال موليرو وزير الحربية، وأخبره بالأمر وبالخطر الداهم.. واقترح فرانكو أن يُسمح له بإعلان الأحكام العرفية فى البلاد.. وقد استطاع فرانكو أن يحصل على موافقة أكثر القيادات للعمل على إيقاف موجة

العنف والشغب، ولم يبق عليه إلا توقيع مجلس الوزراء، ليستعيد النظام وليمنع قيام الحركة الثورية ضد الحكومة الجمهورية.. ولم يتمكن فرانكو من الحصول على هذا التوقيع، لأن رئيس الوزراء طلب إعفاءه من مهمة تصديق مثل هذا القرار.. وكانت إجابة فرانكو له صريحة، إذ قال: «أنت السبب فيما آلت إليه الحالة فى أسبانيا.. وعليك الآن أن تحاول إنقاذها».

عندئذ صدرت الأوامر للجنرال فرانكو أن يذهب إلى جزر الكنارى.. وكان هذا بمثابة نفى له من أسبانيا.

وقبل أن يغادر فرانكو البلاد، اجتمع بالجنرالين مولا وفاريلا، اللذين أكدا له أن بقية الجنرالات سيتركون المحافل الماسونية العسكرية عندما يعرفون الحقيقة.

وقبل أن ينتهى الاجتماع، تم الاتفاق على طريقة اتصال سرية بين مولا وفرانكو.. وما أن غادر فرانكو أسبانيا إلى جزر الكنارى، حتى جدد عملاء ستالين نشاطهم فى البلاد.

وفى ٢٣ يونيو ١٩٣٦، بعث فرانكو برسالة مطولة إلى وزير الحربية، يعيد فيها تحذيره من أخطار محددة.. ولكن هذه التحذيرات لم تنل إلا الإهمال، لأن الوزراء الشيوعيين فى الحكومة الجمهورية كانوا يسيطرون على سياستها وتحركاتها.

حتى إذا جاء مقتل كالغو سوتيلو فى ١٣ يوليو، قرر فرانكو أن يبدأ العمل، فأرسل رسائل بالشفرة إلى بعض الجنرالات، الذين أقسموا أن يحاربوا من أجل إنقاذ أسبانيا من براثن الشيوعية ومن الانخراط فى فلك الروس.. ومن بين الذين اتصل بهم فرانكو، مولا وغوديد وفانجول وسانجورجو وساليكويت، وبعض الضباط فى البحرية الأسبانية.. كما اتصل بكويبو دى.. وبعد إرسال الرسائل، طار فرانكو من جزر الكنارى إلى تطوان، حيث يمكنه الاعتماد على القوات المغربية.

وفى ٢١ يوليو، أصدر فرانكو بيانه الذى حدّد القضية بأقل عدد من الكلمات: «من واجب الجميع أن يدخلوا هذا الصراع الواضح بين روسيا وأسبانيا».. وهكذا بدأت الحرب الأهلية، فانقسمت البلاد إلى فئتين: الموالين وهم جميع الفئات اليسارية التى جمعتها الجبهة الشعبية تحت لوائها، والوطنيين وهم جميع الفئات التى انضمت تحت قيادة فرانكو، وضمّت كل الأحزاب اليمينية.. وكانت الدعاية التى سرت فى ذلك الوقت قد أقنعت الرجل الإسبانى العادى، أنّ مجموعة صغيرة من الجنرالات قد دبرت انقلابا عسكريا لتحويل، حكومة الجبهة الشعبية الجمهورية إلى ديكتاتورية عسكرية.

وانقسم الشيوعيون إلى مجموعتين.. الأولى تريد تحويل ديكتاتورية البروليتاريا إلى حكم مطلق على الطريقة التى اتبعها ستالين، والثانية كانت ترغب فى جعل أسبانيا جزءا لا يتجزأ من الجمهوريات السوفياتية التى تدعو لها الماركسية.

وأما القوميون الأسبان فقد ضموا فيمن ضموا، الحركة الملكية التى كانت تنادى بإعادة الملك إلى أحفاد دون كارولز منذ ١٨٣٧م.. وقد ساعد هؤلاء فرانكو، فقط لأنهم لا يتحملون أن يروا الشيوعية تنتشر فى أسبانيا.. وإلى جانب الملكيين ضم جيش فرانكو حزب الكتائب الأسبانية، وهو حزب يمينى متطرف كان يضم مجموعة من النازيين الألمان، الذين يؤمنون بالحرب الشاملة لإبادة أعدائهم اليساريين.. وفى حالة من الانقسام كهذه، كان لابد من أن يتهم اليمينيون جميع اليساريين بالشيوعية، وأن يتهم اليساريون جميع اليمينيين بالفاشية.

ومن جراء هذا الانقسام أيضا، صارت البلاد عرضة لأعمال الإرهاب، وخصوصا التى ارتكبها الشيوعيون، الذين عذبوا واغتصبوا وأعدموا الآلاف، كجزء من خطة إرهابية للسيطرة على الوضع.. ولكن بعض الفئات

المتطرفة التى عملت مع فرانكو لم تسكت، وعاملت أعداءها بالمثل.. وهكذا نجد أن الحروب الأهلية تنخفض بالإنسان إلى درجة أحط من الوحوش.. وهنا يقع اللوم كله على أولئك الذين يثيرون مثل هذه الحروب.

والعجيب أن خطة فرانكو ومحاولته هزيمة الشيوعيين لم تفشل، مع العلم بأن التحريات التى تلت الحرب الأهلية أثبتت أن مجموعات كبيرة من الخونة كانت قد تسربت إلى الجيش وتسلمت مراكز حساسة، وذلك بمساعدة عملاء موسكو من أعضاء حكومة الجبهة الشعبية فى إسبانيا.

وقبل قيام الحرب الأهلية، كان جوليو الفيريز ديل فايو، وزيرا للخارجية فى حكومة الجمهوريين ورئيسا عاما لشؤون الجيش الأسبانى، وكانت الأغلبية العظمى من هؤلاء تنتمى إلى الحزب الشيوعى، فعملت على إجبار الجنود على الانضمام للحزب.. وقد نشر السفير السابق للجمهورية الأسبانية فى باريس هذه الحقيقة، فى مجلة «نيويورك تايمز» فى ١٩ مايو ١٩٣٩م.

وهناك دليل آخر نورده على لسان انداليكو بريتو، أحد النواب الاشتراكيين، الذى كان يشغل أيضا منصب وزير الدفاع أيام الحرب الأهلية، وهو نفسه الذى كان يوجه الحرب ضد فرانكو.

يقول فى تقرير نشرة فى باريس عام ١٩٣٩ بعنوان: «كيف ولماذا تركت وزارة الدفاع الوطنى؟»: «لقد كان تحمل المسؤولية صعبا جدا، وذلك لأن الشيوعيين كانوا يشغلون مراكز حساسة، وقد أخفوا بسرية تامة حقيقة أمرهم وانتماءاتهم، وتمكنوا من دخول الأحزاب الأخرى».

وأذكر على سبيل المثال واحدا منهم، وهو الدكتور جوان، الذى كان له سلطة قوية خلال الحرب الأهلية.. ولأننى رفضت إطاعة الأوامر الصادرة من موسكو، طردنى جوان نرجن من الحكومة التى ترأّسها فى الخامس من نيسان ١٩٣٨م.. واستطاع طردى من مركز وزير الدفاع الوطنى، بعد أن وجه

ضدى مؤامرتين فى وقت واحد.. الأولى قامت بها قوات البوليس السرى الروسى ورجاله العسكريون فى بلادنا، والثانية تم تنفيذها على يد الشيوعية الأسبانية.. فالروس كانوا يأمرون والشيوعية الأسبانية كانت تنفذ.

ويدعى الدكتور جوان هذا أنه ليس شيوعيا وأنه لم يكن يوما من الأيام كذلك، ولكنه هو الذى أمر بتسليم سبعة آلاف صندوق من الذهب الأسبانى إلى ستالين.. وقد حملت هذه الصناديق على السفن: كين، ونيف وفولجيلز التى رفعت العلم الروسى.. ورافق هذه السفن جوزية فيلاسكو وأرتورو كانديلا كأمناء ورجال ثقة، حتى وصلت السفن الثلاث إلى أوديسا فى روسيا.. وتم كل شىء فى الخفاء.. حتى أعضاء حكومة الجبهة الشعبية لم يكونوا على علم بذلك.. وفى عهد جوان أيضا تم تعيين ثلاثة من الشيوعيين فى مناصب مساعدى «سكرتيريى» الدفاع، وكانوا هم المسيطرون الفعليون على القوات الإسبانية، برا وبحرا وجوا.

ومع أن لارغو كاباليرو كان شيوعيا، إلا إنه لما رفض إطاعة الأوامر الصادرة إليه من الموفدين العسكريين، تجاهل الشيوعيون أوامره وهو فى مركز الرئاسة.. وكان كاباليرو يحاول أن يكفر عن أخطائه التى ارتكبها، ولكنه وجد أن الوقت أصبح متأخرا جدا.

وهناك إشارة لثيو روجرز فى كتابه «أسبانيا فى الرحلة المأساوية»، إلى وقوع وثائق فى يد فرانكو والجنرال مولا، عن قيام ثورة واسعة النطاق، أكيدة الوقوع.. يقول روجرز: «تم العثور على وثائق وخطط من بعض الشيوعيين والفوضويين.. وهى تظهر أن هناك خطة مدروسة بدقة قد وضعت للانقلاب على الحكومة المركزية فى مدريد، وإنشاء ديكتاتورية سوفياتية».

وقد تأجل تنفيذ الخطة الشيوعية ثلاث مرات، حتى تستكمل القوات العميلة ترتيباتها النهائية الأخيرة.

وكان على العالم بأسره أن يلم بالخطة التى أعدتها موسكو ضد أسبانيا، لأن الوثائق التى كانت تحمل الأمر النهائى بالثورة من الكومنترن إلى الحركة الثورية الأسبانية، تم كشفها ونشرت فى «صدى باريس» فى أبريل ١٩٣٦م.

وجاء فى هذه الجريدة ما يلى:

«نص التعليمات الموجهة إلى الميليشيا الحمراء».

«هذه التعليمات الموجهة إلى الميليشيا الحمراء الأسبانية، ليست صادرة من تنظيم مركزى أسبانى، ولكنها صادرة من فرع الخدمات التكنيكية التابع للحزب الشيوعى الفرنسى، الذى يتعاون مع الكومنترن وموفديه فى فرنسا.. هذه الوثيقة التى ننشرها الآن قد وقعت فى أيدى الحكومة، ونحن مقتنعون بأن المسيو دالادير وزير الحربية والدفاع قد أعطى الأوامر لأخذ الاحتياطات الدفاعية والوقائية اللازمة».

وجاء فى النص الذى اختصرناه ما يلى:

١ ـ تقوية فرق الصدام والحرس فى الثكنات وتزويدهم بالمسدسات الأوتوماتيكية.. هذه الفرق هى أفراد الحزب الشيوعى التى تخدم فى القوات العسكرية الدائمة وفى القوات الاحتياطية.

٢ ـ سيتم الاتصال بين هذه الفرق وبين من سيهاجمون الثكنات.. وسيلبس المهاجمون اللباس الموحد، ويكونون تحت إمرة ضباطنا الذين نثق بهم كل الثقة.

٣ ـ عندما يبدأ القتال، سيتم إدخال ضباطنا وجنودنا إلى الثكنات سرا.. وعندما تستقبلهم لجنة خاصة ويعملون سوية معنا داخل الثكنات حسب الخطة المتفق عليها.

٤ ـ ستقوم اللجنة المؤمّنة داخل الثكنات، بإعداد لوائح كل يومين، تشمل

العناصر المعادية والحيادية والمؤازرة والخبراء.. وعندما تقع الثكنات فى أيدينا، سنتخلص بسرعة وبدون تردد من المصنفين كأعداء لنا، وخصوصا الضباط والقادة.

٥ ـ سيزود كل عنصر من عناصر اللجان بلائحة تشمل أسماء الأفراد الذين يجب عليه قتلهم شخصيا.

٦ ـ بعد التخلص من الأعداء، يتعرض الحياديون لامتحانات قاسية للتخلص من التردد الذى يصيب هؤلاء عادة.

٧ ـ تعمل اللجنة المسؤولة عن الحياديين، الترتيبات اللازمة للسماح لمجموعات الحراسة الموجودة خارج الثكنات بالدخول إليها، بحجة المساندة لوضع حد للثورة.

٨ ـ تتألف المجموعات المكلفة بتصفية الجنرالات المعادين المسجلين على اللوائح، من عشرة رجال مسلحين بالمسدسات الحربية.. ولكل جنرال مساعدان وسكرتير يجب أولا قتلهم فى بيوتهم.. وعلى هذه المجموعة المكلفة بتنفيذ هذه العملية المهمة ألا تتراجع أمام أىّ صعوبة كانت وإن اضطرت للتخلص ممن يقف فى وجهها مهما كان عمره أو جنسه.

٩ ـ أما الجنرالات المسرحون من الخدمة والذين تشملهم اللوائح، فتجرى تصفيتهم بمجموعات تتألف من ثلاثة عناصر، تقوم بمهمتها على الشكل المذكور فى المقطع السابق.

١٠ ـ تفاصيل عن كيفية احتلال بعض البيوت والعقارات فى المراكز الإستراتيجية وتحصينها بالأسلحة، بحيث تتمكن الميليشيا الشيوعية من نصب كمائن للقوات الهاربة من الثكنات.. وجاء فى التعليمات «بينما يقوم ضباط الميليشيا بحماية السيارات، تقوم مجموعات الميليشيا بالتقدم إلى المراكز الإستراتيجية كمفارق الطرق بسياراتهم ودباباتهم،

وهم يحملون الأسلحة الرشاشة لمنع أى مساعدة من أن تصل إلى المدن.. ستحمل الشاحنات كميات من القنابل اليدوية».

١١ - عندما تبدأ الثورة، تقوم مجموعات الميليشيا وهى ترتدى لباس الحرس الأهلى والحرس الهجومى، باعتقال رؤوس الأحزاب السياسية، بحجة الاحتياطات الضرورية لحمايتهم.. وبعد الاعتقال تتم عملية تصفية الجنرالات المسرحين.. وتقوم هذه المجموعات ذات اللباس الموحد باعتقال الرأسماليين البارزين الواردة أسماؤهم فى اللائحة «ب» من القرار المعمم رقم ٣٢.

١٢ - يجب ألا يستعمل العنف مع هؤلاء الرأسماليين، إلا عندما يبدون مقاومة.. ولكن يجب إجبارهم على تسليم أموالهم الموجودة فى البنوك وسنداتهم المالية.. بعدها يتم التخلص منهم ومن عائلاتهم ولا يترك منهم أحد.

١٣ - يستعمل نفس الأسلوب الذى استعمل فى روسيا، فى معاملة أفراد القوات المسلحة الذين يظهرون ولاءهم وتعاطفهم معنا.. فنستغل خدماتهم أولا، ثم يتم التخلص منهم كالأعداء تماما.. لأنه حتى تتكلل مساعينا بالنجاح ويكون لها صفة الدوام، يجب أن ننظر إلى الجندى المحايد على أنه أفضل من الذى يخون القوانين العسكرية عندما يواجه الخطر، فهذا لا يمكن أن نتوقع منه إلا الخيانة إذا تركنا له الفرصة المناسبة.

١٤ - تتم عمليات الاتصال ونقل الأوامر بواسطة سيارات صغيرة أو دراجات نارية تكون مسلحة بمسدسات حربية.

١٥ - يجب وضع تقارير دقيقة جدا عن حياة المحايدين والمؤازرين، تشمل كل شىء عنهم، حتى أمورهم العائلية، والأفراد الذين تربطهم بهم روابط الحب والتعلق.. هذه الأشياء تهمنا عند الضرورة.. وإذا حدث أن أظهر أحد عناصرنا أو أحد الموالين أو الحياديين ضعفا أو مقاومة للأوامر أو

رفضا لها، عندئذ يجب أن تنقل فورا الشكاوى بحقه إلى اللجنة العليا.

١٦ - يجب تنظيم الميليشيا وتوزيع عناصرها، بشكل يبعد الفرد عن منطقة سكنه أو المحلة التى يوجد له فيها أقارب، لأن التجارب الماضية علمتنا أنه فى اللحظة الأخيرة كان الأفراد يرفضون الأوامر الصادرة إليهم بسبب العاطفة التى تربطهم بأقاربهم وأهليهم.. كما أن الصداقات كانت السبب فى كثير من التلكؤ فى تنفيذ الأوامر حسب الخطط التى كنا نعدها. (يذكرنى هذا بقوات الأمن المركزى التى تطلق الرصاصات على شعبها فى الانتخابات!).

١٧ - يجب اعتبار أصحاب عنابر البضائع والمخازن التجارية من الفئة الرأسمالية المهمة.. ويتم تنظيم هذه العنابر والمخازن لخدمة الحكومة العمالية عن طريق لجان إدارية.

١٨ - يتطرق هذا المقطع لقضية استعمال المجاعة كوسيلة للقضاء السريع على المعارضة.. وفى النص ما يلى: «يمنع تزويد الطبقة البرجوازية بالطعام والشراب خلال الأسبوع الأول، وحتى تتشكل اللجنة التأسيسية بشكل طبيعى.. أما الأطعمة المخزنة فى الثكنات والتى لا يمكن الاستيلاء عليها فيجب إفسادها بالبرافين وغيره من المواد المفسدة للأطعمة».

ومنذ أن صدرت هذه التعليمات، بدأت القيادات الثورية فى جميع الدول بوضع الخطط اللازمة للتصرف مع رجال البوليس والطوارئ، لأن التجارب أظهرت أن أفراد هذين التنظيمين الرسميين «يبقون مخلصين لسادتهم البورجوازيين».. وشملت هذه الخطة الخطوات الثلاث التالية:

١ - التسرب داخل هاتين القوتين.

٢ - إفساد التنظيم الداخلى فى هذين التنظيمين.

٣ - يطلب من أفراد الحزب أن يشتروا أو يستأجروا الأماكن المشرفة على مراكز البوليس وسرايا الطوارئ، حتى يتم القضاء على الأفراد وهم

يبدلون الدوريات.. وبهذا يأتى توقيت بدء الثورة، فى الوقت الذى يتم فيه تبديل الدوريات.

وهكذا حددت هذه المعلومات التفاصيل اللازمة حتى تتمكن قيادة الحزب الشيوعى من الاستيلاء على المرافق العامة والإدارات الرسمية فى أسبانيا.. وكان الغرض من هذا هو السيطرة التامة بأقصر وقت على جميع مخازن المواد الغذائية ووسائل المواصلات.

استعمل القادة الثوريون خلاياهم السرية، لكى يسيطروا على مراكز رئيسية فى السجون والمعتقلات ومستشفيات الأمراض العقلية، لإطلاق سراح العناصر المخربة فى المجتمع واستعمالها فى الصدامات التى تجرى عند قيام الثورات، لإثارة الرعب بين الجماهير وإراقة الدماء، تمهيدا لقيام «حكم إرهابى» يمكن القادة الثوريين من السيطرة على عامة الشعب فى أسرع وقت ممكن.

هذا وكانت سياسة سجن مدريد تتأثر بنصائح الجنرال كلبير - وهو الكندى الذى تم تدريبه تدريبا نظريا فى مؤسسة لينين فى موسكو - ثم أرسل إلى أسبانيا ليخدم ستالين وليحصل على التدريب العملى فى الحرب الثورية.

وما إن تسلمت حكومة الجبهة الشعبية أعمالها فى مارس ١٩٣٦، حتى أصر اليساريون المتطرفون على إصدار عفو عام يمنح الحرية لجميع الذين اعتقلوا إبان الثورة الاستورانية.. وهكذا أطلق سراح هذا الجيش الصغير - ثوار أستوريا - ومعه سراح أربعين ألفا من المجرمين العاديين، شرط أن يحملوا السلاح مع جيش الموالين.. وقد تخلص القادة الثوريون من معظم هؤلاء المجرمين بعد أن أدوا خدماتهم.. وبذلك استطاعوا إقناع الناس بأن الأعمال الإرهابية التى رتبت إبان الثورة، كانت أعمالا إجرامية فردية، وليست حسب خطة إرهابية مدروسة مسبقا.

هذه هى الأحوال التى واجهها فرانكو عندما عزم على إنقاذ أسبانيا من الظلم الشيوعى.. ولقد صنفت العديد من الكتب التى تروى كيف استطاع فرانكو مع حفنة قليلة من الجنرالات، من إحباط المخطط الشيوعى... فما إن أصدر فرانكو بيانه، حتى صدرت الأوامر من المسئولين الشيوعيين فى سكرتيرتا الجيش البرى والبحرى والجوى، إلى الخلايا الشيوعية، بتصفية جميع الضباط الموجودة أسماؤهم على اللائحة كأعداء.. وقد نفذت هذه الأوامر بدقة متناهية، لأن الخلايا الشيوعية السرية كانت قد ركزت نفسها وسيطرت على وسائل الاتصال بأنواعها الميكانيكية والسلكية واللاسلكية.

وهكذا اغتيل ثلثا ضباط أسبانيا على حين غِرة، وببرود متناهٍ، فى المراحل الأولى للهجوم.. وكان المتمردون يقنعون المسؤولين وبقية الرتباء بأنهم ينفذون أوامر الحكومة، وأنهم يتخلصون ممن ثبتت إدانتهم كأعداء.

وقد حدثت أشياء لا يمكن تصديقها عندما نشبت الحرب الأهلية.. فقد أصبح مألوفا أن ترى سفينتين حربيتين تتبادلان إطلاق النيران وهما على بعد أمتار فقط.. وفى إحدى المرات كانت إحدى السفن تتلقى المدافع الشيوعية فى مقدمتها، وفى نفس الوقت تتلقى مدافع خصوم الشيوعيين من الخلف.. وامتدت المجازر من السفن إلى الموانى ثم إلى المدن القريبة منها.

وقد يبرر البعض هذه المجازر، على أنها كانت أعمالا ضرورية ضد من يمكن أن ينضموا إلى فرانكو، ولكن ليس بوسع أحد أن يبرر الإرهاب الشيوعى الذى فرضوه على الشعب الآمن الأعزل من السلاح.. ولكن الواقع برهن بمقتل مئات الآلاف من الأبرياء، إن سياسة لينين هى التى اتبعت.. فلينين يصر على أن الإرهاب يجب أن يتبع كل محاولة للإطاحة بالحكومات عن طريق القوة، لأن الإرهاب هو الوسيلة الاقتصادية للسيطرة على الجماهير بسرعة وبشكل كامل.. وأيضا قال ستالين: «الأفضل أن يموت مئة

من الأبرياء من أن يهرب مناهض واحد».. ونفذ هذا الأمر بعناد شيطانى.

فى السابع عشر من يوليو ١٩٣٦، وصلت فرقة من الشيوعيين الذين يلبسون الزى الحكومى إلى دير الراهبات الدومينيكان فى برشلونة.. وأخبر قائد الفرقة رئيسة الدير أنه نظرا لخوف السلطات من أن تصل أعمال العنف إلى الدير، فإنه يحمل الأوامر بمرافقة الراهبات إلى مكان أمين.. وجمعت الراهبات ممتلكاتهن الدنيوية القليلة، ورافقن الجنود بدون ارتياب إلى ضواحى المدينة، حيث لقين حتفهن جميعا.. وأعلن القادة بعد ذلك ببرود: «لقد كنا بحاجة إلى هذا البناء، ولم نشأ أن ندمره قبل أن نقوم باحتلاله».

وهناك أيضا قصة السنيور سالفانز، الذى عرف بعدائه للشيوعية.. لقد زارت سرايا التطهير منزله فى برشلونة ثلاث مرات.. ولما يئست فى المرة الثالثة من استقاء معلومات عن مكانه، قام الشيوعيون بقتل جميع أفراد عائلته المؤلفة من ثمانية أشخاص!

ومن أكثر الأعمال وحشية وعنفا التى ارتكبت تحت شعار «الحرية والمساواة والأخوة» هو مقتل ستة عشر رجلا تطوعوا كممرضين فى أحد مستشفيات برشلونة.. وكانت الجريمة الوحيدة التى ارتكبها هؤلاء، أنهم ينتمون إلى تنظيم دينى، جعلهم يعاملون جميع المرضى بالمساواة، دون مراعاة للطبقة أو اللون أو الطائفة!!

ويقول ى. م. غودن فى الصفحة ٧٢ من كتابه «الصراع فى أسبانيا»: «وتبع ذبح الأحياء تمثيل بالأموات.. ففى الأسبوع الأخير من يوليو ١٩٣٦، أخرجت جثث الراهبات من القبور وأسندت إلى حيطان الأديرة، وعلقت على أجسادهن لوحات تحمل عبارات بذيئة ومهينة».

وكان لى ابن عم، هو توم كار، كان يعمل مهندس مناجم فى أسبانيا بين عامى ١٩١٩ و ١٩٣٨م.. وقد تزوج بابنة القنصل الأميركى فى هولفا، مستر

الكوك.. وقد نقل لى توم أنه لما تم انتخاب أحد أفراد طابور كاباليرو الخامس محافظا على هولفا، وصدرت الأوامر من موسكو، سلم هذا جميع السلطات الرسمية إلى الشيوعيين.. وأول عمل قام به هؤلاء هو تعذيب جميع الرهبان ثم قتلهم.. أما الراهبات فكن يعرين من ملابسهن ويدفع بهن إلى الشوارع، ليكن عنصر تسلية للثوريين!!

وينقل غودن أيضا مقابلة أجراها مع امرأتين إنكليزيتين، تمكنتا من التخلص من الاعتداءات والمشاكل لأنهما أجنبيتان.

وتقول هاتان المرأتان إنهما أجبرتا على مشاهدة جمهور غفير من النساء والرجال وهم يتصرفون كالدراويش المتعصبين.. فقد شاهدتا أول الأمر مجموعة من الشيوعيين وهم يعذبون أحد الرهبان، ثم علقوا جسمه وأطرافه بعد بترها على تمثال السيدة العذراء.. ثم شاهدنا الناس وهم يحفرون ثقبا فى جسم أحد الرهبان وهو لا يزال على قيد الحياة، بعدما قاموا بتثبيته على صليب.

وفى شهر سبنمبر ١٩٣٦، نقل الكاتب الفرنسى المشهور بيرفان روى عن ديمتروف قوله: «ويلوموننا على أننا ندمر الكنائس والأديرة فى أسبانيا.. وماذا يهم إذا دمرنا بعض الكنائس والأديرة؟.. إننا نبنى عالما جديدا».

وفى عام ١٩٣٦، قامت لجنة رسمية لتقصى الجرائم الوحشية التى ارتكبها الشيوعيون فى أسبانيا، فوجدت أن أكثر المراقبين تحفظا، يقدر عدد المواطنين الذين تمت تصفيتهم فى برشلونة بين عامى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ بخمسين ألفا.. أما فى فالنسيا فقد وصل العدد إلى ثلاثين ألفا.

ووجدت اللجنة أن ما يقارب عشر سكان مدريد لاقوا حتفهم فى سبيل قيام دولة دكتاتورية أخرى.

ويقول الكاتب الفرنسى المعروف مارسيل دوتراى: «تسلم القيادة

العسكرية الشيوعية فى كاستر أورديالز، رجل كان شرطيا سابقا طرد من عمله لأنه ارتكب جريمة السرقة.. أما القائد الأعلى للبوليس فكان يعيش قبل ذلك على تصوير وبيع صور الرذيلة.. كما تسلم منصب رعاية الشؤون العامة ابن غير شرعى لامرأة عرفت ببغائها وتسكعها فى الشوارع».

وكان هذا يكنى بابن أمه.. أما منصب رئيس القضاة فقد تسلمه عامل مناجم يساعده رجلان لا يعرفان عن هذا العمل شيئا.. وكان جميع هؤلاء من الساديين، الذين يسرهم أن ينفذوا الأحكام التى يصدرونها بأنفسهم.. لقد بقروا بطن فنسنت مورا، وأعدموا جولى يانكو فى الساحة العامة، وبتروا أطراف فاريز بطل سباق الدراجات النارية الأسبانى الشهير، لأنه رفض أن يخون رفاقه ويوقعهم فى أيديهم.

ويشير المستر أرثر بريانت، الذى كتب مقدمة البحث الموضوعى المدعم بالوثائق والشواهد «وحشية الشيوعيين فى أسانيا» إلى أن «العملاء السوفيات تمكنوا من السيطرة على وسائل الاتصال بشكل سمح لهم بتوجيه الإعلام لصالحهم، ولم يسمحوا بتسرب أى خبر ضدهم».

وكذلك كانوا يبثون الأكاذيب ويختلقونها عن فرانكو وقواته، دون أن يقف بوجههم أحد.. ولم يقف محاضر فى أى جامعة أو أى معلق إذاعى فى الإذاعة البريطانية ليعلن أى شىء عن حقيقة ما لاقاه نساء سان مارتن فالديغلازير، اللواتى تعرضن لأبشع أنواع الإهانات، على يد خمسة وعشرين رجلا من المليشيا الحمراء.. وكانت الجريمة الوحيدة التى ارتكبها هؤلاء البنات، أنهن كن يحملن فى قلوبهن شعورا دينيا.

ولم يمنع أفراد المليشيا من هتك أعراضهن أن يكون آباؤهن فى السجون، وأن تكون أمهاتهن تشاهدن بأم أعينهن ما يجرى لهن من إهانات، بل نفذوا الحكم دون مبالاة.

وقد أثرت هذه الأعمال الإجرامية على عقول هؤلاء النسوة، حتى إن بعض اللواتى قدر لهن أن يبقين على قيد الحياة، قلن إنهن تمنوا على جلاديهن أن يقتلوهن بدل أن يفعلوا بهن ما يفعلون.

والأسوأ من هذا أن هذه الأعمال الإجرامية حدثت أمام أعين بعض الأطفال، لأن بعض النسوة كن يحملن أطفالهن بين أيديهن عندما كان جنود المليشيا يتبادلون النساء بينهم.

وهنا لا بد من ذكر هذه العبارة التى كررها مرارا لينين: «لا يوجد شىء فى السياسة اسمه أخلاق.. ولكن هناك مصالح».

وقد تكون المصلحة بالتعاون مع لئيم لا أخلاقى، فقط لأنه كذلك.. ويقول لينين أيضا فى مناسبات أخرى: «على الثورى الشاب أن يبدأ بالتدرب على القتال فورا، وذلك عن طريق عمليات فعلية، كتصفية خائن أو قتل جاسوس أو نسف مركز بوليس أو سرقة بنك واستعمال أمواله فى الثورة... الخ».

ولا تتوانوا عن مثل هذه الهجمات التجريبية.. قد تؤدى هذه الأعمال إلى التطرف وهذا شىء طبيعى، ولكن المشاكل التى تسببها ستكون مشاكل المستقبل وليس الوقت الحاضر.

ويخبرنا أحد «الأولاد» كيف سمحت له الظروف أن يسخر ويتلاعب بعواطف أحد الرهبان قبل قتله فيقول: «وليلة بعد ليلة، كنا نأخذه مع المجموعات التى قررنا التخلص منها، ثم نضعه فى آخر الصف، حتى يتمكن من مشاهدة رفاقه وهم يموتون.. ثم كنا نعيده إلى قصر البيل أرت.

وفى كل ليلة كان يتوقع أن يلاقى حتفه.. ولكن الموت السريع هو شىء كثير بالنسبة له.. لذلك مات هذا الراهب سبع مرات قبل أن نتخلص منه فى النهاية».

وينقل المستر كنوبلو فى كتابه «مراسل فى أسبانيا» قصة شابين شيوعيين كانا يتفاخران أمام أحد الأطباء بقتلهما لاثنين من الرهبان.. لقد أخبراه كيف جاءا متنكرين بلباس الرهبان إلى هذين المسكينين، وهما يعملان خوفا من القتل فى جمع الفحم فى أحد المناجم، ثم أخذاهما إلى أحد الأمكنة، حيث طلبا إليهما حفر قبورهما.. وبعد ذلك جلسا يتفرجان بسرور على الراهبين وهما يموتان ببطء.

ونعود لننقل بعض ما حدث فى مدينة الكالا، لنؤكد ما قلناه سابقا، عن إطلاق سراح المجرمين والمجانين والمهووسين.

لقد أطلق الشيوعيون جميع المساجين فى مدينة الكالا فى ٢٠ يوليو ١٩٣٦، حتى بلغ عددهم ألف رجل وألفى امرأة، تم تسليحهم جميعا فى ثكنة المدينة.. وبعد أن أدوا واجبهم على أحسن وجه فى هجومهم على مدريد، أرسلوا الى سيكونزا، حيث قتلوا مائتين من المواطنين ليقضوا على مقاومة الآخرين.

وبقى هؤلاء المجرمون فى سيكونزا ستة عشر أسبوعا حتى استردها منهم فرانكو.. ولما تم لفرانكو طردهم من سيكونزا، وجد أن جميع النساء من سن الحادية عشرة إلى سن الخمسين، قد اعتدى عليهن وهتكت أعراضهن.. وكان بينهن من حملت سفاحا أو أصيبت بأمراض خبيثة، أو أصيبت بالمصيبتين معا.

وننقل أخيرا ما نشره الكاتب مارسيل دوترى عن مدينة كيمبوزيولوس، حيث ربط مائة راهب ورجل دين إلى مجموعة من المجانين، وهم يحملون فى أيديهم السكاكين.

■ ■ ■

16

الثورة الفيتنامية

وهوشى مِنّهْ!!



افتتح انتصار الثورة الصينية فى عام ١٩٤٩ حقبة جديدة فى تاريخ الثورة العالمية تميزت بأهمية متزايدة للثورة ضد الاستعمار «ثورة المستعمرات».

وتشكل الثورة الفيتنامية رمز هذه الثورة التى تنهك المستعمرين وتلحق بها الهزائم المتتالية.

ومن ناحية أخرى قد حطمت الثورة الفيتنامية أوهام الستالينيين الإصلاحية حول إمكانية كبح الثورة العالمية من خلال «التعايش السلمى» مع القوى الاستعمارية العالمية.

الثورة الفيتنامية من حيث امتدادها على فترة زمنية تقارب الثلاثين سنة ومن حيث أهميتها التاريخية والعالمية تحتاج إلى أكثر من كتاب لتحليلها كظاهرة تاريخية. يمكن استخلاص الدروس منها.

فقد شكلت سيطرة الاستعمار الفرنسى على فيتنام وارتباط الطبقات الحاكمة بها عائقا أمام نشوء قوى وطنية يمكن أن تلعب دورا سياسيا فى النضال مع الحركة الثورية الجماهيرية. فالقوى الموجودة كانت تنتمى للشعب شكلا، ولكنها مرتبطة بالاستعمار، وتساوم مع المستعمرين الفرنسيين على حساب مصالح الجماهير الكادحة.

فهى عاجزة إذن عن المشاركة فى أى نضال جذرى ضد الإقطاع أو ضد المستعمر.

وقد بين مجرى الثورة الملموس هزالة هذه الطبقة. فنشأت حركات برجوازية معادية للاستعمار فى أوائل القرن العشرين وتشكلت أحزاب قوية فى عشرينيات القرن الماضى، لكن منذ سنة ١٩٤٥، أى بداية الكفاح المسلح

ضد الوجود الفرنسى تضاءل نفوذ هذه الأحزاب، وتخلت البرجوازيتان القومية والصغيرة عن قيادة الثورة أمام البروليتاريا على رأس الحركة الجماهيرية، كونها الطبقة الأكثر ثورية فى المجتمع.

إن تجذر هاتين الطبقتين أتى نتيجة أوضاع الحرب التى وضعت البلاد فى حالة اقتصادية واجتماعية لا تطاق، أمّا بالنسبة للبرجوازية المتوسطة فنزول الأمريكيين وسيطرتهم على البلاد وعلى جهاز الدولة قد جعلا هذه الطبقة ذات الثقافة ونمط العيش الفرنسيين ترى نفسها مبتعدة عن الحكم ولم تعد تستفيد من فتات المائدة. فى الوقت الراهن تسعى جبهة التحرير القومية لأسباب تكتيكية إلى الحوز على تأبيد هذا الجناح البرجوازى المعادى للأمريكيين. فالجبهة تسعى إلى عزل النظام البرجوازى المهترئ من خلال حصر قاعدته الاجتماعية الطفيلية التى تستفيد من الحرب.

أما بالنسبة للبورجوازية الصغيرة، فالبلبلة والفوضى والفساد التى تسود البلاد جعلتها ترى فى جبهة التحرير السبيل الوحيد إلى السلام والاستقرار تضم هذه الطبقة الحرفيين والتجار الصغار والمهن الحرة وخاصة الطلاب والأساتذة (زهاء ٤ ملايين فى الجنوب). وكان للطبقة البرجوازية الصغيرة دور هام فى العملية الثورية منذ بداية الخمسينيات من خلال النضالات الجماهيرية فى المدن أو بالتحاق بعض عناصرها بالحرف الشعبية فى الريف.

ويشكل الفلاحون حوالى ٧٠٪ فى المجتمع الفيتنامى وقد عانت الطبقة من شناعة استغلال المالكين العقاريين وأتى الاستعمار ليسرع من عملية تمركز الملكية وليزيد من حدة الاستغلال.

وينقسم الفلاحون إلى الشرائح الاجتماعية التالية: بروليتاريا زراعية ذات وزن اجتماعى وسياسى ضخم (تشكل ٦٠٪ من الفلاحين قبل الإصلاح الزراعى). وفلاحون فقراء ومتوسطون (٣٥٪).

لقد تدهورت أوضاع الريف خلال الثلاثينيات وكان لأزمة ١٩٢٩ العالمية أثر بالغ على هذا الوضع رافق تجذر الفلاحين الفقراء بروز البروليتاريا السياسى فى المدن ونشوء الحركات العمالية (نقابات وأحزاب).

ومنذ هذه الفترة، وخاصة منذ النضال ضد الإمبريالية اليابانية (فى أواخر الثلاثينيات) لعب الفلاحون دورا حاسما فى النضال ضد كل الإمبرياليات التى وطئت الأرض الفيتنامية بتشكيلهم القاعدة الجماهيرية الأساسية للحزب الشيوعى.

وتشكل مقاومة الفلاحين تحت قيادة الشيوعيين تجربة نضالية لم يعرفها التاريخ من قبل ولم تعرفها أية حركة تحرر قومى واجتماعى فى عصرنا من حيث تماسكها وزخمها الثورى ووعيها السياسى المرتفع، ومن حيث العدو الذى يواجهها والدعم التى تحوز عليها عالميا، وأخيرا من حيث أهميتها التاريخية خاصة فى الوضع الراهن للثورة العالمية.

ولكنه من الخطأ أن نعتبر أن الفلاحين الفقراء لا يشكلون سوى حليف برجوازى بالنسبة للبروليتاريا أى أن حركتهم حركة برجوازية ثورية تقتصر على تصفية الإقطاع والإمبريالية وتحصر نفسها فى نطاق برجوازى ضيق.

وكان هناك عنصران فى خط جبهة التحرير القومية يتخطيان إطار الطرح البرجوازى

١ ـ التشديد على وحدة الشمال والجنوب، ففيتنام موحدة لا يمكنها أن تكون سوى فيتنام اشتراكية.

٢ ـ تركيز الجبهة على ضرورة العمل الزراعى الجماعى الذى عرفه الجنوب فى الأراضى المحررة خلال الحرب ضد فرنسا من ناحية، والذى يعطى أحسن النتائج فى الشمال حاليا خاصة إن قورنت بأوضاع سائر البلدان المتخلفة، من ناحية أخرى.

ومنذ بداية الستينيات كانت جبهة التحرير القومية تتخطى برنامجها السياسى. فبينما لم تكن الجبهة عند تأسيسها، فى ١٩٦٠، تتكلم عن إصلاح زراعى نرى أنها وزعت ١,٥ مليون هكتار فى ظرف سنة واحدة (٦٠ ـ ٦١).

وقد يظن البعض أن الطبقة العاملة الفيتنامية، كنتيجة منطقية لضعفها العددى، لم تلعب فى الثورة دورا سياسيا ذا أهمية. إن تاريخ الأمة الفيتنامية يدحض هذا الرأى دحضا كاملا. فالطبقة العاملة ممركزة فى المدن تمركزا قويا وقد كانت قائد الأمة الفيتنامية الأكيدة منذ الثلاثينات. وكان موقعها فى طليعة الحركة الجماهيرية يسمح لها بممارسة نفوذها الأيديولوجى والسياسى على الشرائح الاجتماعية غير البروليتارية.

كانت بروليتاريا المدن تتصدر النضالات الاقتصادية والسياسية المعادية للاستعمار، وكانت شعاراتها تتعدى النطاق المهنى لتكتسب طابعا سياسيا واضحا (معاديا للاستعمار) لكن بعد الحرب العالمية الثانية برز، إلى جانب النضالات العمالية فى المدن، كفاح الفلاحين المسلح وانتقل مركز الثقل إلى الريف، لكن استراتيجية الحرب الشعبية لا ترتكز فقط على محاصرة المدن للريف (كما يقول ماو) بل على الصلة الفعلية بين نضالات المدن (أكانت مسلحة أم لا) ونضالات الريف. لكن وزن البروليتاريا السياسى سيظهر بكل أهميته عندما سنتكلم عن موقعها بالنسبة لسائر القوى الطبقية المشاركة فى العملية الثورية.

وقد برهنت تجربة فيتنام ما يلى:

١ ـ ضرورة تحالف ثورى بين العمال والفلاحين كشرط ضرورى لانتصار أية ثورة شعبية فى البلدان المتخلفة.

٢ ـ عجز الفلاحين عن لعب أى دور سياسى مستقل وبالتالى قيادى.

٣ ـ ضرورة قيادة البروليتاريا للتحالف العمالى الفلاحى.

يقول لى ذوان ١٩٦٩ فى كتابه الثورة الفيتنامية: «إن المسألة الجوهرية الرئيسية للثورة على الصعيدين القومى والعالمى هى توطيد الهيمنة الثورية للطبقة العاملة». ويقول أيضا: فى ظل نظام شبه إقطاعى، فإن الطبقة العاملة فى بلادنا، برغم صغر عددها، تمتلك قوة تفوق قوتها العددية كثيرا، وذلك لأنها عن طريق خطها الثورى الصحيح استطاعت أن تكسب حليفا طبيعيا، إن الفلاحين سيصبحون قوة هائلة فقط بمصاحبة الطبقة العاملة.

وبينما تتزايد قوة الطبقة العاملة عدة مرات لأن لها حليفا كبيرا هم الفلاحون، فإنه يجب أن يكون مفهوما أيضا أن قوة الفلاحين لا يمكن أن تلعب دورها الكامل إلا بالتحالف مع الطبقة العاملة وتحت قيادتها. هل يستطيع الفلاحون أن يلعبوا دورا سياسيا قياديا أو على الأقل مستقلا؟

يجيب لى ذوان بشكل صريح لا يسمح بالالتباس: «إن الفلاحين ثوريون بدرجة عالية، ولكنهم لا يستطيعون أن يقودوا الثورة لأنهم لا يمثلون أى نمط إنتاج متميز، كما أنه ليس لهم وضع سياسى مستقل ولا أيديولوجية خاصة بهم.

وفى الثورة القومية الديموقراطية فى بلدنا، فإنهم يستطيعون فقط أن يسيروا مع الطبقة العاملة وتحت قيادتها - وإنهم لا يستطيعون حتى أن يقوموا بالثورة الزراعية بمفردهم».

ومن أهم المشاكل التى تطرحها الثورة الفيتنامية، وربما أهمها: استراتيجية الثورة، فإذا كانت الاستراتيجية التى يمارسها الشيوعيون الثوريون الفيتاميون لا تأتى بشىء أساسى جديد (من حيث الإستراتيجية) بالنسبة لباقى الثورات المنتصرة فإنها إثبات جديد لصحة نظرية الثورة الدائمة التى أصبحت جزءا لا يتجزأ من التراث البلشفى والتراث الماركسى الثورى بشكل عام.

لكن ما يميز الفيتاميين (كالكوبيين) هو أنهم قد وعوا لسيرورة الثورة الفيتامية، فتخطوا المقولات الستالينية البالية (ضرورة المرحلة الرأسمالية الديموقراطية، التناقض الرئيسى والتناقض الثانوى، التحالف الإستراتيجى مع البرجوازية «الوطنية»... الخ) ليتبنوا مقولات ماركسية ثورية (تحويل الثورة الديموقراطية إلى ثورة اشتراكية اندماج المرحلة الديموقراطية بديكتاتورية البروليتاريا، عجز الفلاحين عن لعب دور سياسى مستقل، القيادة البروليتارية الثورية للثورتين الديموقراطية والاشتراكية ..إلخ).

بينما نرى، من ناحية أخرى، القيادة الماوية لم تتخل حتى الآن عن المفاهيم الستالينية التى برهنت الثورة الصينية نفسها إصلاحيتها المعادية للثورة (دعم البرجوازية الوطنية فى أندونيسيا، وباكستان والسودان والدعم لـ«فتح»... الخ).

وتؤكد ثورة فيتنام ما أكدته كل الثورات الاشتراكية حتى يومنا (إذ كلها قد انتصرت فى بلدان متخلفة): إن دكتاتورية البروليتاريا (أى الثورة الاشتراكية) هى السبيل الوحيد للحل الحقيقى والكامل للمهام الديموقراطية (إصلاح زراعى وتصفية الإقطاع بشكل عام) ومهام التحرر القومى (تصفية الإمبريالية).

إن البلدان المتخلفة التى تحررت فعليا من الإمبريالية والإقطاع هى التى أقامت دولة عمالية (ديكتاتورية البروليتاريا) ونسفت علاقات الإنتاج الرأسمالية وضربت الطبقة البرجوازية الكبرى. أى أن ديكتاتورية البروليتاريا المرتكزة على تحالف الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء، ليس «الحكم الديموقراطى الوطنى»، هى الطريق الوحيد الكفيل بتصفية الإقطاع والإمبريالية وبالتالى «بإفساح المجال أمام الانتقال إلى الاشتراكية».

يقول هوشى منه: «من أجل إنقاذ البلاد وتحرر الأمة ليس هناك طريق آخر غير الثورة الاشتراكية».

ولابد أن يذكرنا هذا القول بجملة تشى الشهيرة: «وليس ثمة بديل: إما الاشتراكية أو مسخ من ثورة ١٩٦٧م».

ويشكل الإصلاح الزراعى خير برهان على هذا الطرح. فقد بدأ أول إصلاح زراعى فى فترة ١٩٥٢م. لكن بعد معاهدة جنيف التى أعادت السلام إلى البلاد أجبر الفلاحون الجنوبيون على إعادة أراضيهم إلى المالكين العقاريين بينما لم يحتفظ الفلاحون الشماليون بأراضيهم فحسب بل بدأ بعضهم بإنشاء التعاونيات الاشتراكية.

والسبب فى اختلاف أوضاع الفلاحين هو أن الجنوب كان فى ظل نظام البرجوازية، أما الشماليون فكان يبنى الاشتراكية فى ظل ديكتاتورية البروليتاريا المستندة على التحالف العمالى الفلاحى الثورى.

لقد أممت الدولة المشاريع القليلة التى كانت موجودة وأدت الثورة إلى تحطيم جهاز الدولة البرجوازية وتأسيس دولة عمالية تدير الإنتاج القومى وفقا للخطط الخمسية.

وقد رأينا من ناحية أخرى كيف أن الثورة الزراعية فى الريف لم تتوقف عند حدها البرجوازى بل تخطته وأقامت علاقات إنتاج اشتراكية فى الريف. فقد انتقل الريف الفيتنامى خلال عشرين سنة، من علاقات إنتاج شبه إقطاعية إلى علاقات إنتاج اشتراكية.

وتعيش العائلات الفلاحية اليوم ضمن تعاونيات اشتراكية تديرها لجنة إدارية منتخبة من قبل الفلاحين وخاضعة لرقابتهم المباشرة. وتؤمِّن هذه التعاونية جماعية الملكية والعمل والتوزيع.

وتمتد الثورة الفيتنامية على فترة قياسية بالنسبة لحركة تحرر قومى، وهى تشكل العمود الفقرى للنضال الثورى المعادى للإمبريالية وتجابه أقوى جيش إمبريالى فى التاريخ.

لذلك تكتسب دراسة التجربة الفيتنامية أهمية أساسية بالنسبة للمناضلين الثوريين ـ وسنقتصر هنا على عرض لمختلف جوانب خوض الشعب الفيتنامى للحرب الثورية دون الدخول فى مقارنة مباشرة مع المقاومة الفلسطينية. إلاّ أن المرء يمكنه بسهولة رؤية الاختلاف والتشابه، إن بالنسبة للحزب الثورى ودوره فى شن الكفاح المسلح (ومسؤولية الأحزاب الشيوعية فى هذا المجال) وأهمية التقاليد النضالية عند الجماهير، ومسألة الأيديولوجية المهيمنة عند المقاتلين وعلاقة الحزب بالمنظمة المسلحة (تجارب الجبهات فى المقاومة) ودور النضال السياسى السابق للكفاح المسلح وخلال هذا الكفاح وبعده (وبشكل عام مسألة العلاقة مع الجماهير بما فيها داخل الأراضى المحتلة، ومنها الجماهير الصهيونية ومشاركتها فى الكفاح المسلح).

وكذلك مسائل إستراتيجية الكفاح المسلح (أو غيابها) وفعاليته، وأهمية العمل على تفتيت الجيش المعادى (إن كان فى فلسطين أو فى الأردن مثلا)، والعلاقة مع الأنظمة المجاورة، واستقلالية القاعدة الاقتصادية، ومسألة قواعد الانطلاق، والدور السياسى والاجتماعى للنضال المسلح (المناطق المحررة). وهذه المسائل تتطلب دراسة منفصلة، لا مجال للقيام بها هنا.

يمتد الكفاح المسلح فى فيتنام منذ فترة المقاومة ضد الفرنسيين. وبعد نصر ديان بيان فو الشهير، فى ماى ١٩٥٤، انتهت المفاوضات باتفاقيات جنيف وتم ذلك بفضل المناورات الدبلوماسية للاتحاد السوفياتى والصين الشعبية والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإنجلترا، التى ضمنت الاتفاقية. كان الشيوعيون يسيطرون على ثلاثة أرباع الشمال وعلى نصف الجنوب. وتم الاتفاق على تقسيم مؤقت لفيتنام، على أن تنسحب كل قوات «الفيت منه» إلى الشمال، وليتم توحيد البلاد بعد انتخابات عامة عام ١٩٥٦ على الأكثر.

وغداة الاتفاق، أعلنت الولايات المتحدة أنها غير ملزمة به. وبدأت تعمل على تحويل الجنوب إلى قاعدة عسكرية كبرى لها، تمهيدا للقضاء على النظام الانتقالى نحو الاشتراكية الذى أقيم فى الشمال، ولتشكل تهديدا دائما للصين الشعبية.

تركزت نضالات الجماهير فى المدن فى البداية على تحضير انتخابات عام ٥٦، التى كانت قيادة هو شى منه واثقة من الفوز فيها. إلا أن شراسة قمع نظام تغودينه دييم قد تزايدت، وفى الوقت نفسه تطورت النضالات فى المدن وتتالت الإضرابات. ومنذ سنة ٥٦، قام دييم بحملة إبادة منهجية لرجال المقاومة السابقين، وبتنظيم حملات إرهاب مسلحة من قبل الشرطة: «حملة الوشاية على الشيوعيين»، وقوانين عرفية، الخ.

وتم نقل السكان فى الريف إلى معسكرات اعتقال واسعة (القرى الإستراتيجية).

وعلى الصعيد الاقتصادى والاجتماعى، ألغى دييم كل القوانين التى أقامها الفيت منه فى المناطق التى كانت تحت سيطرته قبل جنيف.

وقد حاول إعادة الأراضى إلى ملاكيها القدامى وأعاد نظام الاستغلال القديم، مما أثار مقاومة الفلاحين. وكانت النتيجة الإسراع بتوسيع القمع ليشمل كل السكان الريفيين. إلاّ أن إرهاب النظام لم يؤثر على عزم الفلاحين على النضال، وذلك بسبب التقاليد النضالية المتأصلة.

[illegible] النضال السياسى آنذاك نحو مجابهة القمع، ولكن سلميا (جو التعايش السلمى. وباندونج، إلخ..) إلاّ أن شراسته فرضت البدء بالكفاح المسلح الذى جاء بشكل عفوى كمبادرة من الجماهير للدفاع عن نفسها (وربما قد جاء متأخرا، نظرا لنسبة الخسائر المرتفعة التى ألحقها القمع بصفوف الثوريين).، بعد عدة سنوات من النضج السياسى للجماهير الريفية والمدينية، ثم فى ديسمبر ١٩٦٠ أول مؤتمر لجبهة التحرير القومية.

وقد مر تدخل الإمبريالية الأمريكية بمرحلتين:

١ ـ من «الحرب الخاصة» إلى الحرب المحلية (١٩٦١ ـ ١٩٦٤): فى البداية حاول الإمبرياليون حصر الحرب بين الفيتناميين أنفسهم، مكتفين بمساعدة نظام دييم. وهذه كانت فترة تمشيط الأرياف وتجميع السكان فى قرى إستراتيجية.

ومن أصل ١٦٠٠٠ قرية كان مقررا إقامتها، تم بناء ٣٧٠٠ دمرت الجبهة منها ٢٦٠٠ خلال عام واحد. وفى أواخر عام ١٩٦٤، كانت قوات الجبهة على مشارف سيجون. عندها لجأت الإمبريالية الأمريكية إلى الهروب إلى الأمام، فقامت بقصف فيتنام الشمالية.

٢ ـ من الحرب المحلية إلى حرب الإبادة: عندها بدأ التدخل الأمريكى المباشر. وقد سمح به انقسام المعسكر الاشتراكى من جراء الخلاف الصينى ـ السوفياتى (وعصبوية الطرفين)، الذى جعله عاجزا عن التدخل لحماية فيتنام الشمالية. إلا أن المقاومة الهائلة لقوات التحرر الشعبية المسلحة قادت إلى هجوم «التيت» عام ١٩٦٧، الذى كرس منعطفا فى الحرب: إذ أجبر الأمريكيين على اتباع إستراتيجية دفاعية لحماية المدن والقواعد، وكرس إقامة سلطة شعبية ثورية على امتداد البلاد تعبر عنها الحكومة الثورية المؤقتة، وأجبر الأمريكيين على الجلوس على طاولة المفاوضات.

يشكل الفلاحون الفقراء أكثر من ٨٠٪ من قوات الجبهة. إلاّ أن وزنهم السياسى لا يعنى أن الجبهة تنظيم فلاحى. فهى فى الوقت نفسه الذى تنظم الفلاحين، تظهر لهم الضرورة المطلقة للتوجه نحو شكل من الإنتاج الجماعى.

وإلى جانب ذلك فإن الدور القيادى للطبقة العاملة إن على صعيد البرنامج أو التنظيم قد تم التأكيد عليه طوال المقاومة الفيتنامية. وأشد الأحزاب التى تؤلف الجبهة تنظيما، وأهمها، هو الحزب الشيوعى الثورى

(اسم الحزب الشيوعى الفيتنامى فى الجنوب، الذى أعيد تنظيمه عام ١٩٦٢) ويقدر عدد أعضائه بحوالى ١٠٠ ألف عضو ونجد إلى جانبه الحزب الديموقراطى والحزب الراديكالى الاشتراكى، وهما يمثلان قوى أكثر تواضعا، ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالحزب الشيوعى وإستراتيجيته.

ذلك إلى جانب مختلف المنظمات الجماهيرية، والدينية والجامعية والعرقية والنقابية.. إلخ. التى تخضع سياسيا وتنظيميا للجنة المركزية للجبهة.

ويشكل الترابط بين النضال العسكرى والإستراتيجية السياسية إحدى لأزمات التفكير الإستراتيجى للثوار الفيتناميين.

وهذا التفكير يظهر كتطبيق للسياسة والخط العسكرى الماركسيين على الظروف الخاصة لبلد مستعمر يناضل من أجل إعادة الاستقلال وإقامة الاشتراكية.

وقد وجد هذا الترابط التعبير عنه فى نظرة «نقاط الهجوم الثلاثة»: النضال المسلح، والنضال السياسى، وعمل الإقناع والشرح بين القوات المعادية.

١ ـ النضال المسلح: لقد تطور التفكير الإستراتيجى عند الفيتناميين خلال الحرب ضد الإمبرياليين الفرنسيين والحرب الحالية. إن الحرب ستكون، نظرا لميزان القوى غير الملائم فى البداية، حربا طويلة الأمد.

ويميز تروونغ شينه فى الحرب الأولى ثلاث مراحل، ويمكن أن نجدها بشكل عام فى الحرب الحالية.

■ فنحن فى البداية ضعفاء والعدو قوى، فإستراتيجيتنا هنا دفاعية، وتسود فيها حرب المواقع. وحين يتسع نطاق نشاط العدو، تترك حرب المواقع المجال لحرب المناورة التى تصبح شكل القتال الأساسى.

■ وفى المرحلة الثانية، يكون هدفنا السياسى والعسكرى تفتيت القوى المعادية وإبادة وحدات منها وملاحقتها على الدوام، لشلها وتعبئة الشعب لحمل السلاح. وهذه أطول المراحل وفى نهايتها يبدأ التحضير للهجوم

المضاد، بعد تعادل القوى.

■ المرحلة الثالثة، هى مرحلة الهجوم المضاد. وهى تتميز بكون قوانا قد ازدادت عددا وعدة، بينما القوى المعادية قد ضعفت نسبيا، وهبطت معنوياتها، وتتعرض لصعوبات شاقة. وهذه المرحلة فى بدايتها تسود حرب المناورة التى تساعدها حرب العصابات الشعبية، ثم وعلى نطاق واسع تتسع حرب العصابات لتصبح حرب تحركات، وفى النهاية تتحول حرب العصابات إلى حرب مواقع، التى هى الشكل المهيمن فى المرحلة النهائية.

يعرض تروونغ سون، فى حساب نتائج حملة «فصل الجفاف» (أكتوبر ١٩٦٦ إلى مارس ١٩٦٧)، بعض المبادئ العامة للتكتيك العسكرى لجبهة التحرر القومية:

«إن قرار إستراتيجيتنا وانتقاءنا لأساليب القتال ليس ممكنا إلاّ بعد دراسة النية الإستراتيجية للعدو واكتشاف قوانين وإمكانيات عمله».

يجب أن يصب هدفنا فى «الحفاظ على موقعنا الهجومى وتطويره، وبناء مبادراتنا على ساحة المعركة والإمساك بزمامها جيدا وتوسيع نطاقها، وإجبار العدو على القتال حسب رغباتنا»، وذلك يعنى إجباره على «... بعثرة قواته وتقليص اتساع تجهيزاته، مما يسمح بضربه فى كل الأمكنة. ومن جهة أخرى نمنعه من استعمال التكتيكات التى يمتاز فيها» (معركة مرصوصة مع تمركز قوى، وخط جبهة محدد، وحماية مؤمنة للمؤخرة، مما يسمح له بالاستفادة من تفوقه فى القوة النارية وقدرته الكبيرة على الحركة).

«ولذلك سيتبع أسلوب حرب دون خط جبهة، ودون هدف محدد نهائيا، مع تجمع وتفرق بسرعة، وتتالى المناوشات والهجومات المركزة، ضاربين العدو فى الوقت نفسه فى كل مكان».

ويمكننا أن نجد هذا أيضا فى الحرب ضد الجيش الفرنسى، إذ إن

تفوقه التقنى لم تفده لكسب الحرب. وكان الفرنسيون واقعين فى تناقض أساسى: فإذا اتبعوا استراتيجية دفاعية عرضوا أنفسهم لهجوم الثوار وملاحقتهم وتركوا لهم مجالا حرا للنشاط. وإذا انتقلوا إلى الهجوم وأجبروا الثوار على التراجع، عادت العصابات وتشكلت فى مؤخرتهم. وإمكانية إبدال الجبهة والمؤخرة هذه بالنسبة للثوار يفسرها التداخل الوثيق بين الجيش الثورى وجمهور الشعب، حيث يمكن للجيش أن يذوب ثم يتشكل من جديد على مؤخرة القوات المعادية. «وحرب الشعب كله» هذه هى وحدها التى تسمح للثوار بالحصول على المعلومات والمساعدة والتموين والأسلحة اللازمة لكى ينتظموا، ويستطيعوا العيش فى مناطق ومخابئ. وهى تفسر كذلك إمكانية وجود «مناطق محررة رغم تواجد مراكز عدوة»، أى تأمين حماية أرض وسكان أرض وسكان منطقة وإمكانية الحركة فيها، حيث يبقى السكان مسيطرين عليها، رغم وجود عشرات المراكز المعادية.

واندفاع الجماهير ومشاركتها بالقتال يعزز منه إلى حد كبير الدور السياسى والاجتماعى للكفاح المسلح، أى التغييرات التى أحدثت فى البيئة الاجتماعية فى المناطق المحررة. وهذه المناطق تشكل قاعدة اقتصادية ضرورية للمقاومة.

وتشارك الجماهير مباشرة بالقتال، فتروونغ سون يقول بضرورة تقسيم عقلانى للعمل، للاستفادة، فى الوقت نفسه، من إمكانيات البالغين والشيوخ والنساء والأطفال. ونجد كذلك تنسيقا فى استعمال الأساليب الحديثة والأساليب البدائية (أفخاخ.. إلخ) فى القتال.

إن هذا كله يخلق قدرة هجومية عامة وشاملة، ويسمح للجيش الشعبى بتكييف خطته القتالية بحيث يستطيع الانتصار على قوة تفوقه عددا كما يستطيعه على قوة تصغره.

هذا وتتألف القوات المسلحة الثورية من ثلاث فئات من القوات:

ميليشيا العصابات الشعبية، والقوات المنطقية، والقوات النظامية. ودور المليشيا هو الدفاع الذاتى، وهى باستطاعتها أن تجابه وحدات نظامية أمريكية، والقوات المنطقية قادرة على القيام بعمل مستقل على نطاق واسع. أما القوات النظامية فهى قادرة على إبادة فرق كاملة من المشاة أو المدرعات أو الدبابات. ويتم القتال بتركيبة عمل هذه الفئات الثلاث حسب الظروف.

يبرز من كل هذا تفكير عسكرى شامل ومنظم، ونظرة إستراتيجية واضحة تدخل فيها كافة أنواع العمليات لتؤدى بتركيبها إلى الهدف المرجو، مع تحديد واضح لأهداف مرحلية يجب بلوغها، تدخل فى نظرة إستراتيجية واحدة. ويبرز شىء آخر: وهو دور السكان وأهمية دعمهم للنضال ومشاركتهم به.

ويدل هذا بوضوح على أن حرب العصابات ليست تكتيكا سحريا يسمح بالتفوق على العدو والانتصار بسهولة، ملغيا كل ضرورات العمل السياسى العادى الشاقة. وإنما هى فى النتيجة تكملة لإستراتيجية حزب سياسى مرتبط بالجماهير، وذلك حتى فى الميدان العسكرى.

وهذا بحد ذاته يلغى أية نظرة «بؤرية». فحرب العصابات فى فيتنام قد استفادت فى توسعها من وجود حزب سياسى يملك تجربة نضالية (سياسية وعسكرية) طويلة.

٢ ـ **النضال السياسى:** وهو ليس مجرد ملحق بالنضال المسلح أو فقط شرطًا مسبقًا له. إن النضال السياسى مهم فى المناطق المحتلة من قبل العدو، وفى المناطق المحررة. وبدونه لا يكون القتال الناجح ممكنا.

يأخذ النضال السياسى فى المناطق المحتلة أشكالا متنوعة وعديدة: مظاهرات، الحصول على المعلومات والمؤن، النضال ضد غلاء المعيشة، النضال داخل الجهاز الإدارى الشرعى. وكذلك تنظيم الفلاحين للقضاء

على القرى الاستراتيجية، حيث يبرز الالتحاق بالجبهة كردة فعل دفاعية جماعية، لا كعمل بطولى فردى.

إن مشكلة الطبقة العاملة (فى الصناعات، والمرافئ، ومزارع الكاوتشوك..) فى النضال أساسية. وتقوم الجبهة بعمل داخل النقابات. وتقوم كذلك بعمل بين صفوف الطلاب الذين يناضلون ضد تجنيدهم.

٣ ـ عمل الإقناع والشرح فى صفوف قوات العملاء: وهو يقوم على كسب الجنود بشكل فردى. وتظهر نتائجه خلال الحملات التى يقوم بها الثوار. إن ذلك يزرع مناخا من عدم الثقة داخل الجيش المعادى، ويساهم فى زعزعته وإضعاف وخفض معنوياته. وقد بلغ عدد الفارين من الجيش، عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧، ٢٠٠ ألف شخص.

لقد برزت كل هذه الجوانب بوضوح خلال الهجوم العام فى عيد «التيت» فى فبراير ١٩٦٧م. فلولا وعى السكان السياسى ومشاركتهم لما أمكن التحضير لمثل هذا الهجوم الواسع (الذى شمل كل جنوبى فيتنام) بمثل هذه الدقة وبأدنى تفاصيله. وقد ظهر تنسيق «نقاط الهجوم الثلاثة» بوضوح: فقد جاء الهجوم العسكرى فى سايغون وهوى ودانانغ وكل جنوبى فيتنام متناسقا مع مظاهرات سياسية قامت تضامنا مع جبهة التحرير القومية.

وكانت نتيجة العمل فى الجيش والجهاز الإدارى أن قامت الكثير من وحدات العملاء بالانتقال جماعيا إلى صفوف الجبهة.

جلى أن تجربة فيتنام لا تتطابق أبدا مع «محاصرة الأرياف للمدن». فإذا كان الاحتلال الأجنبى ينقل من أهمية المدن إلى الريف، فإن أساسية المدن لا تقل من جراء ذلك.

ويقول نغويين خاك فيين: «لقد عرفنا على الدوام تنقلا مستمرا بين المدن المحتلة والأرياف المحررة إلى هذا الحد أو ذاك. فالحركة الثورية فى

المدن لم تتوقف لحظة واحدة عن تزويد الثوار بالأدوية والآلات والمعلومات والرجال..» إن العمل داخل المدن ينسق مع العمل الخارجى. ويتم الاستيلاء على السلطة فى مقاطعات ريفية ومدنية فى آن معا.

وتسيطر الجبهة، فى المدن، على عدة نقابات وهى تقود «تجمع الشغيلة فى سبيل تحرر جنوبى فيتنام». وتاريخ الطبقة العاملة القريب حافل بالنضالات (٤٩١ ألف مضرب عن العمل عام ١٩٦٤) والنضالات السياسية.

ويبرز الدور القيادى للحزب الشيوعى داخل الجبهة (مما يفترض وجود حزب شيوعى ثورى منظم وممركز يخوض النضال، ومنفصل عن الجبهة التى هى الإطار الضرورى لضم أوسع القطاعات فى الكفاح المسلح) كشرط أولى للنجاح. وهو يتجلى فى كون المسؤول الأول عن الجيش الفيتنامى الجنوبى (وزير الدفاع فى الحكومة الثورية المؤقتة) عضوا فى قيادة الحزب الشيوعى.

يقول جياب: «يجب السهر بشكل خاص على التربية السياسية والقيادية الأيديولوجية للكوادر والمقاتلين، وعلى تلقينهم الماركسية ـ اللينينية، ورفع وعيهم الطبقى». ويقول لى دوان: «يجب النضال ضد كل ميل لإضعاف دور الحزب ولحله داخل الجبهة القومية».

إلاّ أن قيادة الحزب للجبهة ما كان يمكنها أن تعمل لولا الأساس الاجتماعى للجيش الشعبى (الفلاحين الفقراء) والبروليتاريا، التى تلعب الدور القيادى رغم ضعفها العددى.

إن التنظيم الداخلى للجيش يطبق المركزية الديموقراطية السائدة فى الحزب. فيجرى تحضير كل الهجومات وخاصة الحاسمة منها من قبل مجمل الكوادر والمقاتلين من كل المستويات. إلا أن الانضباط التام مطلوب خلال العملية وعلى الجنود تنفيذ المهام التى يوكلون بها. وما أن تنتهى العملية حتى يصبح القادة والجنود من جديد متساوين بالنسبة لنقد العملية.

من الطبيعى أنه توجد رتب فى الجيش. إلاّ أن القادة المنتخبين من قبل الجنود يجب أن يحوزوا على ثقتهم، وإلاّ فيمكن لهؤلاء استبدالهم بضباط أكثر قدرة.

بذلك يتم تجنب الفوضى والتفكك وعدم الانضباط كما يتم تجنب المركزية المتحكمة، وهما ميلان كان على مؤسسى جيش التحرير الشعبى محاربتهما. ويحللهما جياب على أنهما يعكسان أيديولوجيات لا بروليتارية، بورجوازية أو فلاحية. وذلك مفهوم متى تذكرنا أن الجيش مؤلف أكثر من ٨٠٪ منه من الفلاحين. إن الوسيلة الوحيدة لتجنب ذلك، كما يقول جياب، هى تعزيز الأيديولوجية البروليتارية بالحفاظ على الدور المهيمن لخلايا الحزب فى الجيش.

فى النهاية، ليس ذلك التنظيم الداخلى للجيش الثورى ممكنا إلاّ بفضل الدور القيادى لحزب البروليتاريا.

إن التجربة الثورية الفيتنامية تؤكد أن تكتيك الكفاح المسلح ما هو إلاّ تعبير عن الإستراتيجية السياسية، وعلى الحزب الثورى أن يستخدمه بالشكل المناسب لظروف البلاد، لا استنادا إلى مبدأ مطلق مسبق (محاصرة الريف للمدينة، أو البؤرة الثورية أو الانتفاضة.. إلخ.) وإنما بتركيب خلاق لكافة الأشكال.

ويشكل اتساع رقعة الثورة الفيتنامية لعامة الهند الصينية أهم ظاهرة ثورية لعقد الستينيات. واتساع هذه الثورة أتى كنتيجة مباشرة لمبادرة الإمبريالية الأمريكية نفسها التى رأت أن الحل الوحيد لهزائمها المتتالية هو تعميم النزاع.

فالإمبريالية نفسها لا تلتزم بالحدود القومية (أو القطرية) كون نظامها نظاما عالميا.

لم تستطع الولايات المتحدة صد الهجوم الثورى الفيتنامى إلا من خلال قصف فيتنام الشمالية وتتالى الانقلابات على يد المخابرات الأمريكية (سى، آى، إيه) وهذا فى لاوس (٥٧، ٦١، ٦٤) وكامبوديا (٥٩، ٧٠) وجنوبى فيتنام.

لكن امتداد العملية الثورية إلى كافة الهند الصينية زاد موقف الولايات المتحدة تأزما. فخلال سنة واحدة فقط استطاع الثوار الكامبوديون تحرير خمس مقاطعات كليا و٨٠٪ من عشر أخرى و٦٥٪ من أربع أخرى.

واليوم قد ارتقى الثوار فى الهند الصينية إلى مستوى الواقع الموضوعى لثورتهم، فقد عبروا عن السيرورة ما فوق القطرية (ما فوق القومية) لثورتهم من خلال تأسيسهم «الجبهة الثورية للهند الصينية» التى تمثل القيادة الموحدة لثورة الهند الصينية فى وجه القيادة المركزية للثورة المضادة المتمثلة بالإمبريالية الأمريكية والزمر الفاشستية الموالية لها.

لكن الثورة الفيتنامية لم تتخط الحدود القومية فحسب بل كسبت أيضا معنى قاريا شاملا، فما هو السبب الذى يجعل الولايات المتحدة تنزل (فى ١٩٦٥) نصف مليون جندى فى جنوب فيتنام وتدفق مئات ملايين الدولارات للأنظمة العميلة المحيطة بفيتنام الشمالية وتنعزل سياسيا على صعيد الرأى العام الدولى (قارن مع حرب كوريا فى ٥٣ التى شنتها أمريكا تحت راية الأمم المتحدة)؟ هل هو تدمير علاقات الإنتاج غير الرأسمالية فى فيتنام الشمالية كما يقول البعض؟ كلا، إن المصالح الأمريكية فى فيتنام لا تفسر أهمية المواجهة بالنسبة لأمريكا.

لكن مصالحها فى المنطقة المجاورة (تايلندا، ماليزيا، أندونيسيا، بورما إلخ...) هى بالفعل ضخمة. ما تريده أمريكا هو الحيلولة دون امتداد هذه الثورة التى نشأت فى الصين وفيتنام. إنها لا تريد أن تسقط الحلقة الفيتنامية فتسقط الحلقات الأخرى اللاوسية والكامبودية.. إلخ، فتنهار السلسلة الإمبريالية بكاملها على المدى المتوسط والبعيد. إن الولايات المتحدة

تهدف إلى صد تطور الثورة الاشتراكية فى آسيا.

لكن فيتنام هى أيضا رمز الثورة ضد الاستعمار، إلى جانب أهميتها على صعيد الهند الصينية وآسيا. إن شعوب الهند الصينية تدل شعوب العالم الثالث على طريق التحرر القومى الفعلى وطريق الاشتراكية البروليتارية. إن أى شعب مضطهد يستطيع تحقيق النصر على الإمبريالية، مهما كان وضعه الاقتصادى (والثقافى) متخلفا أو حجمه صغيرا، شرط أن يلتزم بالاستراتيجية الثورية وأن يقوده حزب شيوعى ثورى ذو خط سليم (جيش شعبى، التحالفات التكتيكية، مشاركة الجماهير.. إلخ).

هنا تكمن علة شراسة الحرب التى تشنها الولايات المتحدة، إنها تريد برهنة العكس، وهى أن قوة زعماء العالم الحر لا تقهر.

إن الثورة الفيتنامية تكتسب كل أهميتها التاريخية والعالمية إذا رأينا ما هو دورها التاريخى وموقعها الراهن فى الثورة العالمية ـ فبعد الحرب العالمية الثانية عرفت الثورة الكولونيالية مدا جديدا (نشوء دول عمالية جديدة) ولكن مباشرة بعد انتصار الثورة الكوبية التى كانت تتويج هذا المد، قامت الإمبريالية بهجوم مضاد كان هدفه منع تحول الثورة الكولونيالية إلى ثورة اشتراكية (التجربة الكوبية). وكان هذا الهجوم منتصرا (برازيل، أندونيسيا، الكونغو)، يونيو ٦٧ .. إلخ، حتى وصل إلى فيتنام. إن الموجة الإمبريالية المضادة للثورة تسير من نصر إلى نصر حتى تحطمت على صخر صلابة الثوار الفيتناميين وبطولتهم.

فتحول العدوان الأمريكى من رأس حربة الهجوم الإمبريالى إلى أول هزيمة كبرى تلحق بالإمبريالية الأمريكية منذ أمد طويل.

وعلى الساحة الفيتنامية يشكل هجوم «التيت» عام ١٩٦٨ هذا المنعطف حيث انتقل زمام المبادرة (العسكرية والسياسية والديبلوماسية)، إستراتيجيا،

إلى أيدى الثوار الشيوعيين.

وقد رافق مقاومة فيتنام المنتصرة عدة عوامل على الصعيد العالمى: الأزمة الاقتصادية فى الدول الإمبريالية، ظهور حركة شعبية ثورية، أزمة البيروقراطية فى الدول العمالية المبقرطة.

وعلينا أن ننظر إلى هذه العوامل فى ارتباطاتها وتأثيرها المتبادل لكى نفهم كيف أن سنة ١٩٦٨ تشكل منعطفا فى تاريخ الثورة العالمية (مماثل لسنتى ١٨٤٨ و١٩١٩) يتميز بميزان قوى بين البرجوازية العالمية والجماهير الشعبية يميل لصالح هذه الأخيرة.

ففى الوقت الراهن (منذ ١٩٦٠ ولفترة تاريخية مقبلة معينة) حيث تشكل ثورة الهند الصينية طليعة النضال الثورى المعادى للإمبريالية، إن الوضع العالمى مرهون إلى حد كبير (لكن لا بشكل آلى) بمصير الكفاح البطولى الذى تخوضه الشعوب الثورية فى هذه البقعة من العالم.

■■■

17

الثورة الصينية..
وماوتسى تونج



تشكل الثورة الصينية ١٩٤٩ إحدى أهم ثورات التاريخ، حيث تمكن ملايين البشر، الذين كانوا حتى ذلك الحين مجرد عبيد لرأسمالية مستغلة، وهيمنة خارجية «أمريكية»، من إسقاط النظام الإقطاعي الرأسمالي المذل، واستعادة سيادتهم الوطنية، والتحول لقوى عالمية كبرى وفاعلة على الساحة الدولية.

وقد نجحت هذه الثورة بعد استيعاب الصينيين لدروس ثورتهم الأولى (١٩٢٧ ـ ١٩٢٩) التى كانت ثورة شعبية حقيقية. لكنها أُجهضت بسبب سياسات ديكتاتور روسيا ستالين، التى رهنت الطبقة العاملة الصينية بقاطرة ما يسمى البرجوازية الديمقراطية، تحت قيادة تشانغ كاى تشيك. تم تذويب الحزب الشيوعى فى حزب الكومينتانغ البرجوازى، بل قام ستالين بدعوة تشانغ كاى تشيك ليصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية.

قادت هذه السياسة الكارثية إلى هزيمة رهيبة سنة ١٩٢٧، عندما نظم «البرجوازى الديمقراطى» تشانغ كاى تشيك مجزرة ضد الشيوعيين فى شنغهاى. كان السحق الذى تعرضت له الطبقة العاملة الصينية محددا لطبيعة الثورة الصينية التالية. إذ فر من تبقى من مناضلى الحزب الشيوعى إلى البوادى، حيث بدأوا ينظمون حرب عصابات على أساس جيش الفلاحين. وقد غير هذا بشكل جوهرى من مسار الثورة.

لقد انتصرت ثورة ١٩٤٩ بسبب وجود نظام الملاك العقاريين والرأسمالية فى مأزق بدون مخرج.

كان لدى البرجوازى القومى تشانغ كاى تشيك، الذى استولى على السلطة سنة ١٩٢٧ على جثث عمال شنغهاى، عقدان من الزمان لكى يبين ماذا فى إمكانه أن ينجزه.

لكن فى النهاية، استمرت الصين بلدا تابعا للإمبريالية كما فى السابق، فالمسألة الزراعية بقيت بدون حل، وظلت الصين بلدا متخلفا، شبه إقطاعى وشبه مستعمر. كانت البرجوازية الصينية، إلى جانب كل الطبقات المالكة الأخرى، مرتبطة بالإمبريالية، وتشكل كتلة رجعية معادية للتغيير.

انفضح تعفن البرجوازية الصينية عندما اجتاح الإمبرياليون اليابانيون منشوريا سنة ١٩٣١م. طيلة الحرب ضد الغزاة اليابانيين اقترح الشيوعيون الصينيون جبهة موحدة على حزب البرجوازية القومية الكومينتانغ بقيادة تشانغ كاى تشيك. لكن فى الواقع كان مستوى التعاون الفعلى بين قوات ماو وقوات الكومينتانغ ضعيفا. لقد كان التحالف بين الحزب الشيوعى الصينى وبين حزب الكومينتانغ جبهة موحدة بالاسم فقط.

لقد اندمج نضال الصين ضد اليابان بالحرب العالمية الثانية. شارك الشيوعيون بالنصيب الأكبر فى النضال ضد اليابانيين. بينما كانت قوات الكومينتانغ أكثر اهتماما بالقتال ضد الحمر.

وفى عام ١٩٤٠، طالب تشانغ كاى تشيك الجيش الرابع الجديد، التابع للحزب الشيوعى، بأن يخلى إقليمى أنهوى وجيانغسو. الشىء الذى أدى إلى اندلاع مواجهات حامية بين جيش التحرير الشعبى وبين قوات تشانغ سقط خلالها آلاف القتلى. وقد شكل هذا الحدث نهاية ما سمى بالجبهة الموحدة.

أسفرت نهاية الحرب العالمية الثانية عن تقوية موقع الإمبريالية الأمريكية والنظام الستالينى فى روسيا، وكانت المواجهة الحتمية بينهما قد صارت واضحة قبل حتى نهاية الحرب. وفى ١٩٤٥ ـ شنت القوات

السوفييتية العملية الهجومية الاستراتيجية المثيرة للإعجاب على منشوريا، لضرب القوات اليابانية هناك وعلى طول الحدود الصينية المنغولية. وفى حملة باهرة تمكنت القوات السوفييتية من سحق الجيش اليابانى والاستيلاء على منشوريا. استسلمت القوات اليابانية المتواجدة بالمنطقة، والبالغ عددها ٧٠٠,٠٠٠ جندى، وأخذ الجيش الأحمر منشوكو ومينغجيانغ (منغوليا الداخلية)، وشمالى كوريا وجنوب ساخالين وجزر كوريل.

لا أحد فى وقتنا الحالى يميل إلى ذكر هذا الانتصار السريع الذى حققه الجيش الأحمر على القوات اليابانية، إلا أن هذه الهزيمة كانت عاملا حاسما فى استسلام اليابان وانتهاء الحرب العالمية الثانية. كما أنها كانت عنصرا هاما فى حسابات واشنطن فى آسيا. فقد خافت الإمبريالية الأمريكية من احتمال زحف الجيش الأحمر على الصين، ودخول اليابان نفسها، مثلما كان قد فعل فى أوروبا الشرقية. فى النهاية استسلمت اليابان للولايات المتحدة بعدما قامت هذه الأخيرة بإلقاء قنابل نووية على هيروشيما وناغازاكى. لقد كان الهدف الرئيسى من وراء استهداف هاتين المدينتين هو إعطاء الدليل لستالين على أن الولايات المتحدة الأمريكية قد صارت تمتلك الآن سلاحا جديدا ورهيبا.

بموجب الاستسلام غير المشروط لليابان، الذى أملته الولايات المتحدة، كان على القوات اليابانية أن تستسلم لقوات تشانغ كاى تشيك، وليس لقوات الشيوعيين، فى المناطق الصينية المحتلة. والسبب الذى جعل القوات اليابانية فى منشوريا تستسلم للاتحاد السوفياتى هو، بكل بساطة، عدم وجود أية قوات للكومينتانغ هناك. أمر تشانغ كاى تشيك القوات اليابانية بأن تبقى فى مكانها من أجل استقبال قوات الكومينتانغ وألا تستسلم للشيوعيين.

بعد الاستسلام اليابانى، كان الرئيس الأمريكى، ترومان، واضحا جدا بخصوص ما اعتبره «استعمال القوات اليابانية من أجل إبعاد الشيوعيين».

وقد كتب فى مذكراته: «كان من الواضح جدا، بالنسبة لنا، أنه إذا ما نحن طلبنا من اليابانيين إلقاء سلاحهم فورا ويتجهون إلى شاطئ البحر، فإن البلد بأسره كان سيسقط فى يد الشيوعيين. ومن ثم كان علينا أن نتخذ الخطوة غير المعهودة المتمثلة فى استخدام قوات العدو كحامية، إلى أن نتمكن من حمل القوات الوطنية الصينية بطائراتنا إلى جنوب الصين ونرسل المارينز لحماية الموانئ البحرية».

ماذا كان موقف موسكو من كل هذا؟ فى البداية سمح الجيش الأحمر لجيش التحرير الشعبى بتقوية مواقعه فى منشوريا. لكن مع حلول شهر نوفمبر ١٩٤٥، غير موقفه. كان تشانغ كاى تشيك والإمبرياليون الأمريكيون مرعوبين من احتمال استيلاء الشيوعيين على منشوريا بعد انسحاب السوفييت منها. ومن ثم قام تشانغ بعقد اتفاق مع موسكو لكى تؤجل انسحابها إلى أن يتمكن من تحريك أفضل قواته تدريبا وأكثر تجهيزاته عصرية إلى داخل المنطقة. عندها انتقلت قوات الكومينتانغ جوا، بطائرات أمريكية، إلى المنطقة. وسمح لهم الروس باحتلال المدن الرئيسية فى شمال الصين، بينما بقيت البوادى تحت سيطرة الحزب الشيوعى الصينى.

فى الواقع، لم يكن ستالين يثق بقادة الحزب الشيوعى الصينى، ولم يكن يعتقد أنه بإمكانهم النجاح فى الاستيلاء على السلطة. كانت البيروقراطية الستالينية مهتمة بالحفاظ على علاقات ودية مع حكومة تشانغ كاى تشيك، أكثر من اهتمامها بدعم الثورة الصينية. بعد انتصار الثورة اشتكى ماو بمرارة من كون آخر سفير تخلى عن تشانغ كاى تشيك كان هو السفير السوفييتى. ألح ستالين على ماو بأن يشكل حكومة ائتلافية مع الكومينتانغ، وهى الفكرة التى وافق عليها ماو فى البداية:

بينما كانت الحرب مستمرة، طالب ماو تسى تونج الوطنيين بالموافقة على إقامة حكومة ائتلافية عوض حكومتهم الأحادية الحزب، وظل ستالين

ومولوتوف يقولان إنه على الطرفين الصينيين أن يتحدا معا. وفى عام ١٩٤٥، سار الاتحاد السوفييتى خطوة أكثر إلى الأمام. حيث وقع مع حكومة تشانغ كاى تشيك معاهدة صداقة وتحالف صينية ـ سوفياتية. آنذاك أبلغ ستالين الشيوعيين الصينيين بأنه ليس لتمردهم «أى معنى» وأنه ينبغى عليهم الانضمام إلى حكومة تشانغ ويحلون جيشهم.

وفى نفس اليوم الذى وقع فيه الوطنيون اتفاقيتهم مع الاتحاد السوفييتى، استدعى تشانغ كاى تشيك، باقتراح من الجنرال هيرلى، ماو تسى تونج لزيارة تشانغ كينغ من أجل القيام بمحادثات مشتركة.

فى النهاية، وكما كان محتوما، فشلت المفاوضات، واستمرت الحرب الأهلية. لم يقدم الاتحاد السوفييتى سوى دعم جد محدود لجيش التحرير الشعبى، بينما دعمت الولايات المتحدة القوات الوطنية بمساعدات وتجهيزات عسكرية تقدر قيمتها بمئات ملايين الدولارات.

اعترف الجنرال مارشال بأنه لا علم لديه بأية دلائل على تلقى جيش التحرير الشعبى لأية مساعدات من طرف الاتحاد السوفييتى.

فى الواقع، استولى جيش التحرير الشعبى على كميات هائلة من الأسلحة التى تخلى عنها اليابانيون، بما فى ذلك بعض الدبابات.

ولاحقا استسلمت أعداد كبيرة من قوات الكومينتانغ الجيدة التدريب للشيوعيين، وأخذت أسلحتها معها، والتحقت بجيش التحرير الشعبى. وكانت أغلب تلك الأسلحة أمريكية الصنع.

استغلت القوات السوفييتية الوقت لتفكيك البنية الصناعية بمنشوريا (والتى بلغت قيمتها حوالى مليارى دولار)، ورحّلت إلى روسيا مصانع كاملة.

الواقع هو أن ستالين، كما سبق لنا أن رأينا، كان متشائما بخصوص إمكانية انتصار ماو، وكان يحاول الحفاظ على علاقات جيدة مع تشانغ كاى تشيك، كما

وضح (شـرام): «بقى الأسلوب غـامـضـا بسـبب انشـغـال سـتـالين بأمن الدولة السوفييتية، وافتقاره للحماس تجاه إمكانية حركة ثورية ديناميكية قد لا يكون قادرا على السيطرة عليها».

وهكذا كانت بذور الصراع الصينى ـ السوفييتى موجودة منذ البداية: إنه لم يكن صـراعـا إيديولوجـيـا، كمـا كـان يزعم غـالبـا، بل مجـرد صـراع مصالح بين نظامين بيروقـراطيين متصارعين، كلاهما يدافع بشراسـة عن «مصالحه» القومية الضيقة، ومناطق نفوذه وثرواته وسلطته وامتيازاته.

لقـد كـانت هذه النزعـة القـومـيـة الضـيـقـة مناقضـة بشكل مطلق لروح الأممية البروليتارية الشجاعة التى دافع عنها لينين وتروتسكى.

لقد أكد لينين فى أكثر من مناسبة على أنه سيكون مستعدا للتضحية بالثورة الروسية إذا ما كان هذا ضروريا لتحقيق انتصار الثورة الاشتراكية فى ألمانيا.

لو أن ستالين وماو طبقا البرنامج اللينينى، لكان عليهما أن يطرحا فورا شعار تشكيل فدرالية اشتراكية للاتحاد السوفييتى والصين، والتى كانت ستقدم خدمات جليلة لجميع الشعوب. لكن عوض ذلك، كانت علاقاتهما مبنية على أساس المصالح القومية الضيقة والحسابات الحقيرة.

وقد أدى هذا فى النهاية إلى الوضع البشع الذى تبادل فيـه «الرفاق» الروس والصينيون «حوارا» بلغة الصواريخ وقذائف المدفعية حـول مشكلة الحدود التعسفية، التى رسمت فى القرن التاسع عشر من طرف القيصر الروسى والإمبراطور الصينى.

كـان لدى الأمـريكيـين طمـوح إلى جـعـل الصـين، بعـد الحـرب، مـجـالا لنفوذهم (أى جعلها شبه مستعمرة لهم).

لكن بعد كل عذابات الحرب العالمية الثانية لم يعد الشعب الأمريكى

مستعدا لتحمل حرب أخرى من أجل استعباد الصين. والأهم هو أن الجنود الأمريكيين لم يكونوا بدورهم مستعدين لخوض مثل هذه الحرب. وبالتالى فإن عجز الولايات المتحدة الأمريكية عن التدخل ضد الثورة الصينية كان عاملا مهما فى المعادلة.

فى ظل هذه الشروط اضطر الإمبرياليون الأمريكيون للمناورة والتآمر. بعثت واشنطن الجنرال جورج، س، مارشال إلى الصين سنة ١٩٤٦، بدعوى تنظيم مفاوضات بين جيش ماو للتحرير الشعبى وبين تشانغ كاى تشيك. إلا أن الهدف الحقيقى كان هو تقوية تشانغ كاى تشيك، عبر إمداده بالأسلحة والمال والتجهيزات، من أجل بناء قواته المسلحة، تحضيرا لهجوم جديد. لكن هذه المناورات لم تخدع ماو حيث أنه وافق على المشاركة فى المفاوضات، لكنه واصل التحضير لمواجهات جديدة.

وبالرغم من أن الإمبريالية الأمريكية كانت عاجزة عن التدخل فى الحرب الأهلية الصينية، ١٩٤٦ ـ ١٩٤٩، فإنها قدمت مبالغ هائلة من الأموال والأسلحة والإمدادات للوطنيين.

لقد دعمت الولايات المتحدة قوات الكومينتانغ بمساعدات عسكرية جديدة بمئات ملايين الدولارات.

لكن كل تلك الأسلحة التى بعثتها واشنطن، كانت هى التى استعملتها القوات الفيتنامية لاحقا ضد الجيش الأمريكى، بالنظر إلى أن كل تلك الأسلحة تقريبا استولت عليها قوات ماو.

فمنذ مؤتمر موسكو لوزراء خارجية الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا، الذى انعقد خلال ١٩٤٥، التزمت الولايات المتحدة بـ «سياسة عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للصين».

لم يكن ذلك، بطبيعة الحال، سوى خداع، بالضبط مثلما كان الحال عليه

بالنسبة لسياسة «عدم التدخل» فى إسبانيا خلال الحرب الأهلية، عندما عملت الأنظمة الغربية «الديمقراطية» على مقاطعة الجمهورية الإسبانية، بينما كان هتلر وموسولينى يرسلان الأسلحة والرجال لمساعدة فرانكو.

أمدت الولايات المتحدة الكومينتانغ بالقاذفات، والطائرات المقاتلة، والمدافع، والدبابات، وقاذفات الصواريخ، والبنادق الآلية والقنابل الغازية وقاذفات النار وغيرها من الأسلحة.

وفى المقابل فوت الكومينتانغ إلى الولايات المتحدة حقوق السيادة الصينية على أراضيه، وتخلى لهم عن المياه والمجال الجوى، وسمح لها بالاستيلاء على حقوق الملاحة الداخلية إضافة إلى امتيازات تجارية خاصة، وكذا الحق فى التدخل فى الشؤون الداخلية والخارجية للصين. لقد كانت القوات الجوية الأمريكية مسؤولة عن العديد من الأعمال الوحشية ضد الشعب الصينى: قتل الناس، وضربهم، ودهسهم بالسيارات، واغتصاب النساء، دون أن يتعرضوا لأية عقوبة.

وفى شهر يوليو ١٩٤٦، وبدعم نشيط من جانب الإمبريالية الأمريكية، أغرق الكومينتانغ الصين فى أتون حرب أهلية رهيبة، وبوحشية غير مسبوقة. شَنَّ تشان كاى تشيك هجوما معاديا للثورة ضد جيش التحرير الشعبى.

كان قد حَضَّر لها بعناية، وكان قد صارت عنده آنذاك قوات تساوى حوالى ثلاثة أضعاف ونصف ما عند جيش التحرير الشعبى؛ كما أن التجهيزات كانت أكثر تفوقا بكثير. لقد كانت لديه الصناعات المتطورة ووسائل الاتصال الحديثة، بينما كان جيش التحرير الشعبى يفتقر إلى كل ذلك من الناحية النظرية كان من المفترض أنه سيحقق نصرا سهلا.

خلال السنة الأولى من الحرب (يوليو ١٩٤٦ ـ يونيو ١٩٤٧) كان الكومينتانغ فى موقع الهجوم، بينما اضطر جيش التحرير الشعبى إلى الدفاع.

فى البداية تمكنت قوات تشانغ كاى تشيك من التقدم بسرعة، محتلة العديد من المدن والمناطق التى كان جيش التحرير الشعبى يسيطر عليها.

لقد حققت قوات الكومينتانغ ما بدا وكأنه انتصار حاسم عندما استولت على عاصمة جيش التحرير الشعبى يينان.

اعتبر العديد من الملاحظين ذلك هزيمة ساحقة لجيش التحرير الشعبى. لكن هذا لم يكن صحيحا إذ إن ماو، وفى مواجهة الظروف غير المواتية، كان قد قرر القيام بانسحاب استراتيجى.

لقد اتخذ قرار عدم محاولة الدفاع عن المدن الكبرى بقوات قليلة، وعوض ذلك ركز قواته فى المناطق الريفية حيث كانت لديه قاعدة صلبة بين الفلاحين، وحيث كان فى إمكانه إعادة تجميع قواته وتركيزها من أجل القيام بهجوم مضاد.

الشىء الذى عجز الإمبرياليون الأمريكيون وتشانغ كاى تشيك عن فهمه هو أن السلاح الأقوى الذى كان جيش التحرير الشعبى يمتلكه لم يكن هو المدافع والدبابات، بل الدعاية.

لقد وعد جيش التحرير الشعبى الفلاحين المعدمين والجائعين بأنه سيصبح فى إمكانهم الاستيلاء على أراضى كبار الملاكين إذا ما هم قاتلوا إلى جانبه. فى أغلب الحالات كانت البوادى المحيطة بالمدن والبلدات الصغيرة هى الأولى التى دخلت تحت سيطرة جيش التحرير الشعبى، قبل المدن بمدة طويلة. كان هذا هو أصل نظرية ماو القائلة بـ «محاصرة المدن بالبوادى».

عندما غير ستالين خط الأممية الشيوعية من السياسة اليسراوية المتطرفة المسماة «المرحلة الثالثة» (١٩٢٨ ـ ١٩٣٤) إلى تبنى سياسة الجبهات الشعبية النقيضة لها، عمل ماو على مراجعة برنامجه الزراعى، متخليا عن السياسة الراديكالية السابقة: «الأرض لمن يحرثها»، واستبدلها

بسياسة تخفيض الإيجار المعتدل. كانت لديه فكرة كسب دعم «الإقطاعيين المستنيرين». لكنه قام بعد ١٩٤٦ بتغيير سياسته مرة أخرى.

السياسة الزراعية التى انتهجها كانت أكثر راديكالية من السياسة التى طبقها خلال مرحلة ١٩٣٧ ـ ١٩٤٥، التى تضمنت تخفيض الفوائد والإيجار بدل الإصلاح الزراعى الفورى، إلا أنه كان على التكتيكات أن تسير بتدرج وتتكيف مع الظروف المحلية. كان ماو ما زال يريد أن يضم النبلاء الوطنيين فى الجبهة المتحدة الواسعة جدا، التى كان عازما على الحفاظ عليها.

وفقط بعد عدة سنوات من سيطرة الشيوعيين فى مجال معين سيصبح من الممكن إعادة توزيع جميع الأراضى؛ لكن فى اللحظة الحالية يجب ألا يطال الإصلاح أكثر من ١٠ ٪ من السكان. وقد عمل ماو أيضا على إعادة إصدار وثيقة «ثلاث قواعد للانضباط» و«ثمانى نقاط للانتباه»؛ كان هذا، بشكل أو بآخر، يعبر، طيلة ما يقرب من عشرين عاما، عن احترام السكان المدنيين والامتناع عن النهب الذى ميز الجيش الأحمر عن كل الجيوش التى رآها الفلاحون الصينيون فى الماضى، وساهم إلى حد كبير فى كسبه لدعم السكان.

وقام جيش التحرير الشعبى فى جميع القرى بتوزيع الأراضى على الفلاحين، لكنه احتفظ دائما بعدد من القطع، لصالح جنود تشانغ كاى تشيك. فجنود الكومينتانغ الذين كانوا يسقطون فى يد جيش التحرير الشعبى لم يكونوا يُقتَلون أو يعاملون بشكل سيئ، بل يتم إطعامهم وتوفير العناية الطبية لهم وتلقى عليهم خطابات سياسية تدين نظام تشانغ كاى تشيك الفاسد والرجعى.

بعد ذلك يطلق سراحهم ليقوموا بنشر الدعاية فى ديارهم بين الفلاحين وغيرهم من الجنود بأن جيش التحرير الشعبى يوزع أراضى الإقطاعيين على الفلاحين.

ومن خلال تقديم الوعد للفلاحين بإعطائهم الأرض، تمكن جيش التحرير الشعبى من تعبئة أعداد هائلة منهم لاستخدامهم فى المعركة وكذا توفير الدعم اللوجيستيكى. وقد أعطى هذا التكتيك الدليل على فعاليته القصوى.

لقد كان جيش تشانغ يسجل ربما أكبر نسبة لفرار الجنود فى التاريخ. الشىء الذى كان يعنى أنه بالرغم من الخسائر الكبيرة التى تكبدها جيش التحرير الشعبى، فإنه كان قادرا على مواصلة القتال، بفضل تزود دائم بالمقاتلين الجدد. فخلال حملة هوايهاى وحدها تمكن جيش التحرير الشعبى من تعبئة ٥,٤٣٠,٠٠٠ فلاح للقتال ضد قوات الكومينتانغ. ويشير ستيوارت شرام إلى الارتفاع السريع لعدد قوات جيش التحرير الشعبى، قائلا:

«خلال سنة ١٩٤٥، ارتفع عدد القوى المتواجدة تحت قيادة جيش الطريق الثامن والجيش الرابع الجديد من ما مجموعه حوالى نصف مليون إلى حوالى مليون شخص».

وقد كانت قوات الكومينتانغ حوالى أربعة أضعاف هذا العدد. ومع حلول منتصف سنة ١٩٤٧، وبعد سنة من الحرب الأهلية الواسعة النطاق، انتقلت النسبة من واحد إلى أربعة، إلى واحد إلى اثنين.

وعلى الرغم من أن الأمريكيين (كما هو الحال دائما) واصلوا الادعاء بأن هذه كانت حربا بين «الشيوعية والديمقراطية»، فإن دميتهم الصينية، تشانغ كاى تشيك، كان فى الواقع، دكتاتورا وحشيا. لكنه مع ذلك تظاهر، بضغط من واشنطن ربما، بإدخال عدد من «الإصلاحات الديمقراطية» من أجل إسكات منتقديه فى الداخل والخارج.

وأعلن عن دستور جديد وعقد جمعية وطنية، أقصى منها الشيوعيين، بطبيعة الحال. إلا أن ماو سارع، على الفور، إلى إدانة هذه «الإصلاحات» باعتبارها مسرحية. كانت الجماهير الواسعة مهتمة أكثر بالفساد المستشرى

فى الحكومة والفوضى السياسية والاقتصادية، ومهتمة على وجه الخصوص بالتضخم الهائل الذى قاد إلى انهيار مستويات العيش. كما كانت هناك مظاهرات طلابية، عبر ربوع البلاد، ضد الإمبريالية الأمريكية.

وساد فى المناطق التى سيطرت عليها قوات الوطنيين نظام من الإرهاب الأبيض. لقد طبق تشانغ نفس التكتيكات التى كان الغزاة اليابانيون يطبقونها فى السابق: الإحراق، والنهب، والاغتصاب، والقتل حيث ذبح ملايين الرجال والنساء والشباب والشيوخ.

وقد أكسبه هذا مقت السكان وقوى من الدعم الذى يتمتع به جيش التحرير الشعبى.

نظريا كان الوطنيون لا يزالون يتمتعون بتفوق كبير على جيش التحرير الشعبى. فعلى الورق، كانوا يتمتعون بتفوق واضح سواء فيما يخص الرجال أو الأسلحة. كانوا يسيطرون على مناطق أكبر وساكنة أكبر من أعدائهم، وكانوا يتمتعون بدعم دولى كبير من جانب الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

لكن هذا كان نظريا فقط. أما الحقيقة على الأرض فكانت مختلفة جدا. لقد عانت قوات الوطنيين من انعدام الروح المعنوية والفساد المستشرى الذى قلص بشكل هائل من قدرتهم على القتال، كما أن قاعدة دعمهم بين المدنيين كانت قد اختفت.

كانت قوات الوطنيين، المحبطة والغير منضبطة، فى طريقها إلى التلاشى فى مواجهة المسيرة الحازمة لجيش التحرير الشعبى. كانوا يستسلمون أو يفرون، تاركين أسلحتهم وراء ظهورهم.

وقد مكن اعتقال أعداد كبيرة من قوات الكومينتانغ، جيش التحرير الشعبى من الحصول على الدبابات والمدفعية الثقيلة وغيرها من الأسلحة الضرورية للقيام بعمليات هجومية جنوب السور العظيم.

لقد كانوا قادرين ليس فقط على الاستيلاء على مدن الوطنيين المحصنة جيدا، بل أيضا على محاصرة وتدمير تشكيلات قوية من قوات الكومينتانغ، مئة ألف أو عدة مئات الآلاف فى كل مرة. وخلال شهر أبريل ١٩٤٨ استولوا على مدينة لويانغ، وقطعوا طريق جيش الكومينتانغ للخروج من شيان.

وكان جيش التحرير الشعبى قادرا على الانتقال إلى الهجوم المضاد، مجبرا الكومينتانغ على التخلى عن خطة الهجوم الشامل، وبعد تمكنه من اعتقال أعداد كبيرة من جنود العدو، تمكن من تحسين قدراته العسكرية، وتشكيل قوات مدفعية خاصة به وصارت لديه فرقة مهندسين، وأتقن تكتيكات اقتحام النقاط المحصنة. قبل هذا، لم يكن جيش التحرير الشعبى يمتلك طائرات ولا دبابات، لكن بمجرد ما شكل قوات مدفعية وفرق مهندسين أفضل من تلك التى كان جيش الكومينتانغ يمتلكها، صار قادرا ليس فقط على شن حرب متحركة، بل حربا موضعية كذلك. ووفقا لتقديرات ماو الخاصة فإن:

كل شهر كان جيش التحرير الشعبى يدمر ما معدله حوالى ثمانية ألوية من جيش الكومينتانغ النظامى (أى ما يعادل ثمانية كتائب حالية).

كان التحول فى الوضع العسكرى لا يصدق حقا. فجيش التحرير الشعبى الذى ظل طيلة عدة سنوات ضئيلا بالمقارنة مع قوات الكومينتانغ، نجح أخيرا، ما بين يوليوز ودجنبر ١٩٤٨، فى أن يكتسب التفوق العددى على قوات الكومينتانغ. هذه هى الأرقام التى أعطاها ماو آنذاك:

«خلال السنة الأولى، تم القضاء على ٩٧ لواء، بما فى ذلك ٤٦ لواء تم محوها تماما؛ وفى السنة الثانية، قضى على ٩٤ لواء، بما فى ذلك ٥٠ لواء تم محوها تماما؛ وخلال النصف الأول من السنة الثالثة، ووفقا لأرقام غير مكتملة، قضى على ١٤٧ كتيبة، بما فى ذلك ١١١ كتيبة تم محوها تماما.

وخلال الأشهر الستة هذه، كان عدد كتائب العدو التى تم محوها تماما ١٥ مرة أكثر من المجموع الكلى للسنتين السابقتين. جبهة العدو قد انهارت تماما قوات العدو فى شمال شرق البلاد قد تم محوها تماما، أما تلك الموجودة فى شمال الصين فقريبا سيتم محوها تماما، وفى شرق الصين والسهول الوسطى لم يتبقَّ للعدو سوى عدد قليل من الجنود. إن إبادة قوات الكومينتانغ الرئيسية فى شمال نهر اليانغتسى، سهل بشكل كبير العبور المقبل لجيش التحرير الشعبى وحملته جنوبا لتحرير كل الصين. وبالتزامن مع النصر على الجبهة العسكرية، حقق الشعب الصينى انتصارات هائلة على الجبهات السياسية والاقتصادية. لهذا السبب لم يعد الرأى العام فى جميع أنحاء العالم، بما فى ذلك كل الصحافة الإمبريالية، ينازع فى انتصار حرب التحرير الشعبية الصينية».

وفى سنة ١٩٤٩، تمكن جيش التحرير الشعبى من الاستيلاء على السلطة، بالرغم من الدعم المالى والعسكرى الهائل الذى كانت قوات تشانغ كاى تشيك تحصل عليه.

وبعد فترة قصيرة من الزمن بدأ فى تصفية الرأسمالية والملكية العقارية الكبيرة. لقد دعم الماركسيون الثورة من كل قلوبهم، لكنهم فى نفس الوقت حذروا من أنه وبسبب عدم لعب الطبقة العاملة للدور القيادى فى هذه الثورة، فإن ما سوف ينجم عنها لن يكون سوى دولة عمالية مشوهة بيروقراطيا.

ومع حلول سنة ١٩٤٨، تغير مسار الأحداث. حيث تمكن جيش التحرير الشعبى، بعد حملة صعبة، من الاستيلاء على المدن الشمالية. وبعد ستة أشهر من الحصار القاسى لشانغشون، والذى تسبب فى مقتل أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ مدنى جوعا، تمكنوا من فرض الاستسلام على قوات الكومينتانغ الجيدة التدريب. وقد فشلت كل مخططات تشانغ كاى تشيك القيام بهجوم مضاد. لم يتمكن جيش التحرير الشعبى فقط من استرجاع أغلب الأراضى

التى كان قد فقدها فى الشمال الشرقى للصين، بل تمكن أيضا من توسيع جبهة المعركة إلى مناطق نفوذ الكومينتانغ شمال يانغتز ونهر ويشيو. فاحتلوا شيهشياشوانغ، ويونشينغ، وسيبنسغكاى، ولويانغ، وييشوان، وباوكى، وويهسيين، ولينفين وكايفينغ.

وفى سنة ١٩٤٩، تقدم جيش التحرير الشعبى جنوب نهر يانغتز، وصارت نهاية الحرب قريبة. بعض التروتسكيين المزيفين بقوا ينكرون الوقائع الواضحة للعيان. ففى أمريكا، سخر ماكس شاتمان من فكرة كانون الذى قال إن ماو سيستسلم لتشانغ كاى تشيك. قال: «نعم، إن ماو يريد الاستسلام لتشانغ، لكنْ لديه مشكلة، إنه لا يستطيع اللحاق به!».

وبحلول نهاية عام ١٩٤٨، كان موقف الوطنيين قد صار ميؤوسا منه. والآن وبعد أن صار ظهره إلى الحائط، بدأ تشانغ فى اقتراح السلام. قبل ثلاث سنوات فقط كان شانغ يتفاخر بأنه سوف يبيد الشيوعيين. وكانت قواته تطبق بحماس سياسته: «انهب واحرق واقتل». أما الآن وبعد أن صارت الهزيمة محدقة به، بدأ يغنى نشيد السلام. إنه تحول غريب جدا!

وقد كان الأمريكيون، المدعومون بكل من نظرائهم البريطانيين والفرنسيين، هم من يقف وراء دعوة تشانغ إلى «السلام»، بعد أن استوعبوا جميعا أن الحرب قد خُسرت. وبعد أن فشلوا فى سحق جيش التحرير الشعبى بالقوة، صاروا يأملون فى أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه بواسطة المناورات السياسية إلا أن تلك المناورات لم تخدع أحدا، وخاصة ماو تسى تونج.

فى معظم الحالات كانت البوادى والبلدات الصغيرة تحت نفوذ جيش التحرير الشعبى قبل فترة طويلة من سيطرته على المدن، الشىء الذى شكل جزءا من إستراتيجية الحرب الشعبية. وفى يناير ١٩٤٩، سقطت بيبين فى يدى جيش التحرير الشعبى دون قتال، فأعيد تغيير اسمها إلى بكين. بين شهرى أبريل ونوفمبر، سقطت المزيد من المدن الكبرى الأخرى بدون مقاومة تذكر.

يوم ٢١ ابريل، عبرت قوات ماو اليانغتزى واستولت على نانجينغ، عاصمة حزب الكومينتانغ. وفى غضون فترة قصيرة من الوقت، كان جيش التحرير الشعبى يدفع ما تبقى من قوات الكومينتانغ الغير المنظمة والمحبطة إلى الجنوب.

وفى النهاية، انسحب تشانغ كاى تشيك، وحوالى مليونين من الوطنيين، والذين أغلبهم كانوا من بيروقراطيى الحكومة السابقة ورجال الأعمال، وغادروا الصين إلى جزيرة تايوان (التى كانت تعرف آنذاك بفورموزا). وقد أعلن تشانغ مدينة تايبى عاصمة مؤقتة للصين، لكنه حرص قبل أن يفر على نهب الخزينة العامة، حيث سرق ٣٠٠ مليون دولار لملء جيوبه وجيوب أتباعه.

وتوج كل هذا يوم أول أكتوبر، من عام ١٩٤٩، مع إعلان ماو تسى تونج عن قيام جمهورية الصين الشعبية، ليتم قلب صفحة جديدة فى تاريخ العالم.

لقد شكلت الثورة الصينية خطوة عظيمة إلى الأمام. لو أنها لم تنتصر، لكان البلد قد تحول بالتأكيد إلى شبه مستعمرة أمريكية فى ظل دكتاتورية تشانغ كاى تشيك. لكن بدل ذلك، تمكن الشعب الصينى، سنة ١٩٤٩، من أن يحقق، للمرة الأولى فى تاريخه، تحرره الكامل من نير الهيمنة الأجنبية.

■ ■ ■

18

الثورة الكوبية..
كاسترو وجيفارا



كـان اثنان، الأول أب روحى وزعـيم ثورة، والثـانى مفجر ومُنَظِّر وصاحب إيديولوجية هذه الثورة، الأول اسمه فيديل، والثانى اسمه جيفارا، هذان العلمان هما من أشهر الثوار الذين عُرفوا على مر التاريخ، حيث قادا الثورة الكوبية فى القرن الماضى.

فى سنة ١٩٥٩ اجتاح الثوار جزيرة كوبا واقتحموا العاصمة هافانا وسيطروا على مقاليد الحكم بها، وأطاحوا بالدكتاتور باتيستا، معلنين بذلك قيام جمهورية كوبا. هذه الثورة حققت نجاحها انطلاقا من تجاوب الشعب الكوبى معها، وأيضا من خلال دعم كل الشعوب المضطهدة فى دول شتى من العالم من خلال ابتسامة بريئة تنم عن مفخرة بهؤلاء الثوار الأحرار.

فى ١٩٥٩ اكتسح رجال حرب العصابات هافانا برئاسة فيدل كاسترو وأسقطوا الديكتاتورية العسكرية لفولجنسيو باتيستا، برغم تسليح حكومة الولايات المتحدة وتمويلها لباتيستا ولعملاء وكالة المخابرات الأمريكية «سى. آى. إيه» داخل جيش عصابات كاسترو.

دخل الثوار كوبا على ظهر زورق ولم يكن معهم سوى ثمانين رجلا لم يبق منهم سوى ١٠ رجال فقط، بينهم كاسترو وأخوه «راءول» وجيفارا، ولكن هذا الهجوم الفاشل أكسبهم مؤيدين كثيرين خاصة فى المناطق الريفية، وظلت المجموعة تمارس حرب العصابات لمدة سنتين وخسروا نصف عددهم فى معركة مع الجيش.

كان خطاب كاسترو سبباً فى إضراب شامل، وبواسطة خطة جيفارا

للنزول من جبال سييرا باتجاه العاصمة الكوبية تمكن الثوار من دخول العاصمة هافانا فى يناير ١٩٥٩ على رأس ثلاثمائة مقاتل، ليبدأ عهدٌ جديدٌ فى حياة كوبا بعد انتصار الثورة وإطاحتها بحكم الديكتاتور «باتيستا»، وفى تلك الأثناء اكتسب جيفارا لقب «تشى» الأرجنتينى، وتزوج من زوجته الثانية «إليدا مارش»، وأنجب منها أربعة أبناء بعد أن طلّق زوجته الأولى.

برز تشى جيفارا كقائد ومقاتل شرس جدا لا يهاب الموت وسريع البديهة يحسن التصرف فى الأزمات. لم يعد جيفارا مجرد طبيب بل أصبح قائدا برتبة عقيد، وشريك فيدل كاسترو فى قيادة الثورة، وقد أشرف كاسترو على استراتيجية المعارك بينما قاد وخطط جيفارا للمعارك.

عرف كاسترو بخطاباته التى صنعت له وللثورة شعبتيهما، لكن جيفارا كان خلف أدلجة الخطاب وإعادة رسم أيديولوجيا الثورة على الأساس الماركسى اللينينى.

وصدر قانون يعطى الجنسية والمواطنية الكاملة لكل من حارب مع الثوار برتبة عقيد، ولم توجد هذه المواصفات سوى فى جيفارا الذى عيّن مديرا للمصرف المركزى وأشرف على محاكمات خصوم الثورة وبناء الدولة فى فترة لم تعلن فيها الثورة عن وجهها الشيوعى.

الشيوعية التى كان فيها جيفارا وزيراً للصناعة وممثلاً لكوبا فى الخارج ومتحدثاً باسمها فى الأمم المتحدة.

كما قام بزيارة الاتحاد السوفيتى والصين، واختلف مع السوفييت على إثر سحب صواريخهم من كوبا بعد أن وقعت الولايات المتحدة معاهدة عدم اعتداء مع كوبا.

تولى جيفارا بعد استقرار الحكومة الثورية الجديدة ـ وعلى رأسها فيدل كاسترو ـ على التوالى، وأحيانا فى نفس الوقت المناصب التالية:

- سفير منتدب إلى الهيئات الدولية الكبرى.

- منظم الميليشيا.

- رئيس البنك المركزى.

- مسؤول التخطيط.

- وزير الصناعة.

ومن خلال هذه المناصب قام الـ «تشى» بالتصدى بكل قوة لتدخلات الولايات المتحدة؛ فقرر تأميم جميع مصالح الدولة بالاتفاق مع كاسترو؛ فشددت الولايات المتحدة الحصار على كوبا، وهو ما جعل الحكومة الكوبية تتجه تدريجيا نحو الاتحاد السوفيتى. كما أعلنت عن مساندتها لحركات التحرير فى كل من: تشيلى، وفيتنام، والجزائر.

لم يرتح جيفارا للحياة السياسية فاختفى، ونشرت مقالات كثيرة عن مقتله لكى يرد لعل رده يحدد مكانه لكنه لم يرد.

نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية شائعات تدعى فيها اختفاء إرنستو تشى جيفارا فى ظروف غامضة، ومقتله على يد زميله فى النضال القائد الكوبى فيدل كاسترو، مما اضطر الزعيم الكوبى للكشف عن الغموض الذى اكتنف اختفاءه من الجزيرة للشعب الكوبى فأدلى بخطابه الشهير الذى ورد فى بعض أجزائه ما يلى:

«لدى هنا رسالة كتبت بخط اليد، من الرفيق إرنستو جيفارا يقول فيها: أشعر أنى أتممت ما لدى من واجبات تربطنى بالثورة الكوبية على أرضها، لهذا أستودعك، وأستودع الرفاق، وأستودع شعبك الذى أصبح شعبى. أتقدم رسميا باستقالتى من قيادة الحزب، ومن منصبى كوزير، ومن رتبة القائد، ومن جنسيتى الكوبية، لم يعد يربطنى شىء قانونى بكوبا».

فى أكتوبر ١٩٦٥ أرسل جيفارا رسالة إلى كاسترو تخلى فيها نهائيا عن مسئولياته فى قيادة الحزب، وعن منصبه كوزير، وعن رتبته كقائد، وعن وضعه ككوبى، إلا أنه أعلن عن أن هناك روابط طبيعة أخرى لا يمكن القضاء عليها بالأوراق الرسمية، كما عبر عن حبه العميق لكاسترو ولكوبا، وحنينه لأيام النضال المشترك.

أكدت هذه الرسالة إصراره على عدم العودة إلى كوبا بصفة رسمية، بل كثائر يبحث عن ملاذ آمن بين الحين والآخر. ثم أوقف مساعيه الثورية فى الكونغو وأخذ الثائر فيه يبحث عن قضية عالمية أخرى.

وقد قال فى ذلك: «إن الثورة تتجمد وإن الثوار ينتابهم الصقيع حين يجلسون فوق الكراسى، وأنا لا أستطيع أن أعيش ودماء الثورة مجمدة داخلى».

وفى عام ١٩٦٥ سافر جيفارا إلى الكونغو وسعى لإقامة مجموعات حرب عصابات فيها.

ومع أن فكرته لم تلق صدًى واسعا لدى بعض القادة، أصر جيفارا على موقفه، وتموه بملابس رجل أعمال ثرى، لينطلق فى رحلة طويلة سافر فيها من بلد إلى آخر ليواجه المصاعب تلو الأخرى.

ذهب «تشى» لإفريقيا مسانداً للثورات التحررية، قائدا لـ ١٢٥ كوبيا، ولكن فشلت التجربة الأفريقية لأسباب عديدة، منها عدم تعاون رؤوس الثورة الأفارقة، واختلاف المناخ واللغة، وانتهى الأمر بالـ «تشى» فى أحد المستشفيات فى براغ للنقاهة، وزاره كاسترو بنفسه ليرجوه العودة، لكنه بقى فى زائير (جمهورية الكونغو الديمقراطية) محارباً بجانب قائد ثورة الكونغو باتريس لومومبا، لكنه فجأة ظهر فى بوليفيا قائدا لثورة جديدة، ولم يوثق هذه المرحلة سوى رسائله لفيديل كاسترو الذى لم ينقطع الاتصال معه حتى أيامه الأخيرة.

بوليفيا

لم يكن مشروع «تشى» خلق حركة مسلحة بوليفية، بل التحضير لرص صفوف الحركات التحررية فى أمريكا اللاتينية لمجابهة النزعة الأمريكية المستغلة لثروات دول القارة.

منذ بداية عام ١٩٦٧ وجد جيفارا نفسه مع مقاتليه العشرين، وحيداً يواجه وحدات الجيش المدججة بالسلاح بقيادة الـ «سى. آى. إيه» فى برارى بوليفيا الاستوائية. أراد جيفارا أن يمضى بعض الوقت فى حشد القوى والعمل على تجنيد الفلاحين والهنود الحمر من حوله، ولكنه أجبر على خوض المعارك مبكراً.

وقد قام «تشى» بقيادة مجموعة من المحاربين لتحقيق هذه الأهداف، وقام أثناء تلك الفترة الواقعة بين ٧ نوفمبر ١٩٦٦ و٧ أكتوبر ١٩٦٧ بكتابه يوميات المعركة.

وألقى القبض على اثنين من مراسلى الثوار، فاعترفا تحت قسوة التعذيب أن جيفارا هو قائد الثوار. فبدأت حينها مطاردة لشخص واحد. بقيت الـ «سى. آى. إيه» على رأس جهود الجيش البوليفى طوال الحملة، فانتشر آلاف الجنود لتمشيط المناطق الوعرة بحثا عن أربعين رجلا ضعيفا وجائعا. قسم جيفارا قواته لتسريع تقدمها، ثم أمضوا بعد ذلك أربعة أشهر متفرقين عن بعضهم فى الأدغال. إلى جانب ظروف الضعف والعزلة هذه، تعرض جيفارا إلى أزمات ربو حادة، مما ساهم فى تسهيل البحث عنه ومطاردته.

فى يوم ٨ أكتوبر ١٩٦٧ وفى أحد وديان بوليفيا الضيقة هاجمت قوات الجيش البوليفى المكونة من ١٥٠٠ فرد مجموعة جيفارا المكونة من ١٦ فرداً، وقد ظل جيفارا ورفاقه يقاتلون ٦ ساعات كاملة وهو شىء نادر

الحدوث فى حرب العصابات فى منطقة صخرية وعرة، تجعل حتى الاتصال بينهم شبه مستحيل.

وقد استمر «تشى» فى القتال حتى بعد موت جميع أفراد المجموعة رغم إصابته بجروح فى ساقه إلى أن دُمّرت بندقيته (مـ٢) وضاع مخزن مسدسه وهو مايفسر وقوعه فى الأسر حيّاً. نُقل «تشى» إلى قرية «لاهيجيرا»، وبقى حيّاً لمدة ٢٤ ساعة، ورفض أن يتبادل كلمة واحدة مع من أسروه.

وفى مدرسة القرية نفذ ضابط الصف «ماريو تيران» تعليمات ضابطيه: «ميجيل أيوروا» و«أندريس سيلنيش» بإطلاق النار على «تشى».

دخل ماريو عليه متردداً فقال له «تشى»: أطلق النار، لا تخف؛ «إنك ببساطة ستقتل مجرد رجل»، لكنه تراجع، ثم عاد مرة أخرى بعد أن كرر الضابطان الأوامر له فأخذ يطلق الرصاص من أعلى إلى أسفل تحت الخصر حيث كانت الأوامر واضحة بعدم توجيه النيران إلى القلب أو الرأس حتى تطول فترة احتضاره، إلى أن قام رقيب ثمل بإطلاق رصاصة من مسدسه فى الجانب الأيسر فأنهى حياته.

وقد رفضت السلطات البوليفية تسليم جثته لأخيه أو حتى تعريف أحد بمكانه أو بمقبرته حتى لا تكون مزاراً للثوار من كل أنحاء العالم.

وقد شبّت أزمة بعد عملية اغتياله وسميت بأزمة «كلمات جيفارا» أى مذكراته. وقد تم نشر هذه المذكرات بعد اغتياله بخمسة أعوام وصار جيفارا رمزاً من رموز الثوار على الظلم.

وفى العام ١٩٩٧ كُشف النقاب عن جثمانه وأعيد إلى كوبا، حيث قام الرئيس الكوبى السابق فيدل كاسترو بدفنه بصفة رسمية.

ويمثل جيفارا لشعوب العالم الرمز والأسطورة وهو القائل:

«لا يهمنى متى وأين سأموت، لكن يهمنى أن يبقى الثوار منتصبين،

يملأون الأرض ضجيجاً، كى لا ينام العالم بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين».

سيظل صدى هذه الكلمات يتردد، ويلهم المئات فى مكان وزمان، ما دام الظلم والعنف يسود هذا العالم.

وفى عام ١٩٦٨، غضب شبان العالم وخرجوا إلى الشوارع معلنين أنهم يستطيعون إنهاء الحروب وتغيير ملامح العالم، وقد تحول هذا الرجل الثائر بعد موته إلى شهيد لقضاياهم.

وأصبح يمثل أحلام ورغبات الملايين ممن يحملون صوره. علماً أنه كان يمثل أيضا مجموعة من التناقضات، وكأن الموت حول ملامحه، ما يوحى بأنه لو منحه أعداؤه الحق فى الحياة، لربما عجزت أسطورته عن احتلال هذا المدى العالمى الذى تنعم به اليوم..

كره تشى اتكال الثورة الكوبية على الاتحاد السوفيتى، واستمر فى ابتكار وسائل أخرى للحصول على التمويل وتوزيعه. ولأنه الوحيد الذى درس فعلا أعمال كارل ماركس بين قادة حرب العصابات المنتصرين فى كوبا، فإنه كان يحتقر التحريفيين ومافيا الحزب الذين صعدوا على أكتاف الآخرين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، وفى كوبا أيضا.

كشف (آى إف ستون) كيف انهمك تشى جيفارا فى نقاش علنى، أثناء مؤتمر فى مدينة بونتى ديل استى بأوروجواى مبكراً فى ١٩٦١ (وهو المولود فى الأرجنتين حيث درس الطب هناك) مع بعض شباب اليسار الجديد من نيويورك.

أثناء تلك المناقشة، مر بهم اثنان من جهاز الحزب الشيوعى الأرجنتينى. لم يستطع جيفارا أن يمنع نفسه من الصياح بصوت عال، «هيى، لماذا أنتما هنا، أمن أجل أن تبدءا الثورة المضادة»؟

مثّل تشى الكثيرين فى الحركة الناشئة إرادتهم على الحركات الثورية

للسكان الأصليين.

وبالفعل فإن الثورة فى كوبا، على عكس المفاهيم المعاصرة للكثيرين فى الولايات المتحدة اليوم، كانت مستقلة، وفى بعض الأحيان معارضة للحزب الشيوعى الكوبى. ولقد أخذ بناء مثل هذه العلاقة ـ التى لم يكن من السهل صنعها ـ عدة سنوات فقط بعد الثورة ونجحت فى أخذ سلطة الدولة وتأسيسها، دافعة إلى الاندماج بين القوى الثورية والحزب ـ الاندماج الذى لم يضع نهاية لمشاكل جيفارا والثورة الكوبية نفسها.

إحدى تلك المشاكل هى اعتماد كوبا المتزايد على الاتحاد السوفيتى (فى بعض الأوجه يماثل الاعتماد المتزايد لبعض المنظمات الراديكالية على منح المؤسسات فى صورة أموال ولوازم لولبية أخرى). قررت الحكومة أثناء احتياجها اليائس للنقد من أجل شراء لوازم شعبها الضرورية ـوبعد نقاش مرير ـ قررت أن تضيع فرصة تنويع الزراعة فى كوبا من أجل التوسع فى محصولها النقدى الرئيسى، قصب السكر، الذى يتم تبادله أمام البترول السوفيتى، لتستهلك جزءًا من هذا البترول وتعيد بيع الباقى فى السوق العالمية.

وبالتدريج فقدت كوبا، بالرغم من تحذيرات تشى (والآخرين)، القدرة على إطعام شعبها نفسه ـ وهى المشكلة التى بلغت أبعادا مدمرة بانهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١م.

وهى نفس الأزمات التى أحدقت بالاتحاد السوفيتى والدول التى كان معترفا بها كدول اشتراكية عندما سعوا وراء النموذج الصناعى للتنمية وحاولوا أن يدفعوا ثمنه بالإنتاج والتنافس فى السوق العالمية. كان رد فعل تشى: لا تنتج من أجل السوق العالمى. ارفض تحليلات التكلفة/ المنفعة كمعيار لما ينبغى إنتاجه. آمن تشى بأن المجتمع الجديد حقيقة، وعليه أن يجعل طموحه هو ما يحلم به شعبه من أجل المستقبل، وأن يعمل على تنفيذه فورا فى كل أوان ومكان. وحتى تبلغ ذلك، على الثورات الشيوعية أن

ترفض معيار «الكفاءة» وعليها أن ترعى المحاولات المجتمعية المحلية حتى تخلق مجتمعا أكثر إنسانية بدلاً من ذلك.

وارتبط تشى جيفار ارتباطا وثيقا بالماركسية اللينينية فى شبابه حيث كان عضوا فى الشبيبة الشيوعية الأرجنتينية.

أممية وثورية تشى وارتباطه المميز بالفقراء والمنبوذين فى كل مكان، ورفضه الاعتراف بقداسة الحدود القومية فى الحرب ضد إمبريالية الولايات المتحدة، ألهمت الحركات الراديكالية الجديدة فى العالم كله.

نادى تشى الراديكاليين لنحول أنفسنا إلى شىء جديد، أن نكون اشتراكيين قبل الثورة، هذا إذا ما كان مقدراً لنا أن يكون لدينا أمل فى أن نحقق فعلا الحياة التى نستحق أن نعيشها. نداؤه «بأن نبدأ العيش بطريقة لها معنى الآن» تردد صداه عبر الجيل بأكمله، فاتحا ذراعيه ليصل بدرجة كبيرة من ناحية إلى ثورية ماو ومن ناحية أخرى ممتدا نحو ماركس.

ومن خلال الحركة، ومن خلال انتزاع مباشرة الثورة عن طريق الاشتباك مع الظلم بكل أشكاله، فى كل لحظة، ومن خلال وضع مثاليات المرء فورا فى الممارسة العملية، صاغ تشى من التيارات الفلسفية المعاصرة الرئيسية موجة مد من الثورة مما جعل أطروحاته قريبة من طرح ماو تسى تونج فى الصين آنذاك.

وعندما يحتفل الكوبيون كل عام بذكرى هذه الثورة ومعهم العالم وخاصة فى دول أمريكا اللاتينية، حيث تمثل الرمز لتحررها، يمكن أن نستخلص بعض الدروس.

وأول ما يمكن الوقوف عليه هو مدى قوة طموح ورغبة الثوار فى زعزعة نظام ديكتاتورى من مقعده وبالتالى تحقيق عدالة اجتماعية وخلق جو من الديمقراطية وإن كان الأمر قد عرف تجاوزا فيما بعد ـ على سبيل

المثال: الرئيس فيديل كاسترو سيطر على الحكم منذ ذلك التاريخ إلى حدود سنة ٢٠٠٨ حيث سلم زمام الحكم إلى أخيه راؤول أحد منظرى ومتزعمى الثورة، حيث يرى البعض أن هذا الأمر هو بمثابة تراجع ضمنى عن الأهداف المسطرة للثورة ـ، وبالتالى فقوة الطموح كانت دافعا أساسيا لتغيير وضع قائم بوضع آخر بديل له.

وأيضا، كانت الثورة الكوبية مثالا واضحا على أن العبرة فى التغيير تكون بقوة العزيمة أكثر مما تكون بقوة العدد، حيث إن عدد الثوار لم يكن كبيرا بالحجم الذى عرفته الكثير من الثورات سيما منها التى عرفتها أوروبا فى القرن الثامن عشر ـ الحركات الليبرالية والقومية فى أوروبا فى القرن الثامن عشر مثل الثورة فى اليونان والنمسا وفرنسا وألمانيا ثم إيطاليا.

ومن الدروس أيضا أن الانحراف عن الأهداف المسطرة فى البداية للثورة بحجة تثبيت قدميها لبعض الوقت هو حقنة مخدرة ووهم يحول مسار الثورة من مسار ديمقراطى إلى مسار رجعى لا يختلف عن سابقه إلا فى مسائل قليلة.

وعموما مهما يكن من أمر الثورة الكوبية فإنها كانت مبعثا لهواء ونفس جديد فى قلوب الشعوب المضطهدة فى كل بقاع العالم.

■ ■ ■

19

الثورة الإيرانية..
والشاه محمد رضا بهلوى



الثورة الإيرانية هى ثورة نشبت سنة ١٩٧٩ وحولت إيران من نظام ملكى، تحت حكم الشاه محمد رضا بهلوى، لتصبح جمهورية إسلامية عن طريق الاستفتاء. آية الله أو الإمام، كما هو معروف فى إيران، روح الله الخمينى يعد مؤسس «الجمهورية الإسلامية الإيرانية». وحاول العمل على مد الثورة أو ما سُمى تصدير الثورة إلى المناطق المجاورة، ويرى البعض أن قيام الحرب العراقية الإيرانية كانت من نتائج تلك السياسة، وكذلك الحرب الأهلية الأفغانية.

هى ثورة فريدة من نوعها باعتبارها مفاجأة على مسرح الأحداث الدولية، وذلك من حيث السرعة التى حدث بها التغيير العميق، وكذلك الدور القيادى للدين فيه، كما أنه كان يعتقد أن النظام محمى كما يجب من قبل الجيش والأجهزة الأمنية التى أنفق النظام عليها ميزانيات ضخمة، إضافة إلى انعدام الأسباب الاعتيادية المعروفة للثورة، كالأزمات المالية، أو الهزائم العسكرية، أو عصيان الفلاحين، أو التمرد العسكرى.

كانت نتيجة ذلك الحدث نشوء جمهورية إسلامية بقيادة عالم دين منفى يبلغ من العمر ثمانين عاماً، مدعوماً من مظاهرات متقطعة لكن شعبية.

الثورة تنقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى دامت تقريبا من منتصف ١٩٧٧ إلى منتصف ١٩٧٩، وشهدت تحالفاً ما بين الليبراليين واليساريين والجماعات الدينية لإسقاط الشاه.

المرحلة الثانية، غالباً ماتسمى «الثورة الخمينية»، شهدت بروز آية الله الخمينى وتعزيز السلطة والقمع وتطهير زعماء الجماعات المعارضة للسلطة الدينية (بما فيها الثورة الثقافية الخمينية فى الجامعات الإيرانية).

وتضم التفسيرات المقدمة على نشوب تلك الثورة بعضاً من الإجراءات التى اتخذها الشاه، باعتبارها أسباباً، إضافة إلى نجاحات وإخفاقات تعرضت لها مختلف القوى السياسية.

«أخطاء» الشاه وأهمها:

■ سياسة التغريب القوية التى انتهجها الشاه على الرغم من تعارضها مع الثقافة الخمينية للشيعة، وعلاقاته الوطيدة مع إسرائيل واعتماده على القوى الغربية (الولايات المتحدة)، إضافة إلى الإسراف والفساد والنخبوية (الحقيقية والمفترضة) فى سياسات الشاه وديوانه الملكى، وفشله فى استقطاب المتعاطفين والأتباع من القيادات الدينية الشيعية لمقارعة الحملة الخمينية ضده.

■ تركيز الحكومة على مراقبة وقمع مجاهدى حركة مجاهدى خلق وباقى أطياف المعارضة اليسارية الإيرانية، بينما راحت المعارضة الدينية الأكثر شعبية تنتظم حتى قوضت تدريجيّاً نظام الشاه.

■ انتهاك الدستور الإيرانى الذى وضع سنة ١٩٠٦، بما فى ذلك قمع المعارضة من خلال جهاز الأمن (السافاك)، ولم تكن المهادنة والظهور فى موقف الضعف من مصلحته عندما لجأ إليها فى الوقت الذى كسبت فيه الثورة زخماً متزايداً.

■ البرنامج الاقتصادى الطموح عام ١٩٧٤ لم يواكب الطموحات التى أثارتها عائدات النفط، إضافة إلى تكريسه سياسة احتكار الحزب الواحد، وتزايد حدة التضخم، ثم انتشار الأسواق السوداء.

■ سوء تقدير سياسة التقشف التى أغضبت الباعة والناس.

■ سوء تقدير قوة المعارضة.

■ طبيعة حكومة الشاه، التى منعت بروز أى منافس ذى كفاءة يمكن أن يقود الحكومة، مما أدى إلى ضعف فعالية الحكومة وتدنى مستوى الإنتاج، الأمر الذى ساهم بدوره فى زرع الخلافات والانقسامات داخل الجيش وبين النخب السياسية، ومن ثم غياب الدعم عن النظام وعدم توفر حلفاء فقد غادر هؤلاء مع أموالهم مع بداية الثورة.

أما سر نجاح الثورة فيكن أن نجمله فى:

■ تمكن الخومينى من كسب تأييد هؤلاء عندما احتاج إلى قلب نظام الشاه من جهة، وتجنبه قضايا مثل (ولاية الفقيه) التى كان يعتزم تنفيذها، لمعرفته بأنها ستطيح بدعم تلك الفئات.

■ شعبية الخمينى الذى بدا وكأنه المنقذ، أو المخلص من ظلم الشاه.

■ سياسات الحكومة الأمريكية، فقد ساعدت على تحويل الشاه بشكل جعله يبدو كما لو أنه «دمية» فى يد أمريكا، علماً أن لهم فى ذلك سجلا حافلا، فأمريكا هى التى تكفلت بقلب حكومة محمد مصدق الديمقراطية والمعادية للغرب.

وهى فى الوقت نفسه التى دفعت الشاه جراء ضغوطها المستمرة ليقوم بإطلاق مشروع التغريب الذى كان من أسباب انطلاق الثورة، وأخيراً فقد تسبب الفشل الأمريكى فى قراءة السطور الأولى لتلك الثورة.

وكان وصول الشاه محمد رضا بهلوى إلى السلطة سنة ١٩٤١ بعد عزل والده، رضا شاه، من قبل غزو تحالف القوات البريطانية والسوفياتية سنة ١٩٤١م. رضا شاه رجل عسكرى، معروف بتصميمه على تحديث إيران وعداؤه لطبقة المتدينين (العلماء).

أمسك محمد رضا بهلوى بالسلطة حتى ثورة ١٩٧٩ مع انقطاع قصير فى سنة ١٩٥٣؛ حين تعرض لمحاولة ثورة.

فى تلك السنة فر من البلاد لفترة وجيزة بعد صراع على السلطة نشأ بينه وبين رئيس وزرائه محمد مصدق الذى قاد حملة لتأميم حقول النفط فى البلد وسيطر على القوات المسلحة.

وتم عبر انقلاب العسكرى رعته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والاستخبارات السرية فى عملية سرية أطلق عليها اسم عملية آجاكس، الإطاحة بحكومة محمد مصدق واعتقاله وإعادة الشاه إلى العرش.

ومثل والده رغب الشاه الشاب فى تحديث وتغريب البلاد، فاحتفظ بعلاقات وثيقة مع الولايات المتحدة ومعظم الدول الغربية، وكثيرا ما أشاد الزعماء الأميركيون به وبسياسته وصموده المعارض للشيوعية. المعارضة لحكومته جاءت من اليساريين والقوميين والجماعات الدينية التى انتقدته لانتهاك الدستور الإيرانى، والفساد السياسى، ووحشية القمع السياسى بالبوليس السرى سافاك.

وكانت لرجال الدين أهمية كبيرة بالنسبة للمعارضة، وهم الذين أثبتوا أهميتهم فيما سبق إبان مظاهرات التبغ التى تحركت ضد عقد احتكارى منحه الشاه ناصر الدين سنة ١٨٩١ لشركة بريطانية، والآن أيضاً بدا للفقهاء ورجال الدين أثر كبير على الإيرانيين، خاصة الفئات الفقيرة منهم، الذين عادة مايكونون الأشد تديناً، وتقليدية، وإقصاءً عن أى عملية تغريب.

ثم ظهرت شخصية زعيم الثورة الإيرانية أول مرة أوائل عام ١٩٦٣ لقيادة المعارضة التى تحركت ضد برنامج الإصلاحات الذى أعلنه الشاه والمعروف باسم «الثورة البيضاء»، التى شملت إعطاء حق التصويت والاقتراع للنساء، وتغيير قوانين الانتخابات التى أتاحت انتخاب ممثلين للأقليات الدينية

للبرلمان وإجراء تعديلات على قانون الأحوال الشخصية، الذى يمنح المرأة المساواة القانونية فى الزواج، وتوزيع ممتلكات بعض رجال الدين الشيعة.

فى العام التالى نشبت أعمال شغب بعد أن اعتقل الخمينى ثلاثة أيام على إثر تصريحه بأن الشاه «رجل بائس سيء»، وقد واجهت الشرطة أعمال الشغب تلك مستخدمة القوة المفرطة، (أعلنت تقارير الحكومة سقوط ٨٦ قتيلا، فيما ادعت المعارضة أن الرقم يصل إلى الآلاف).

التقارير التى أعدت بعد قيام الثورة أشارت إلى أن أكثر من ٣٨٠ لقوا مصرعهم على يد الشرطة.

وضع الخمينى تحت الإقامة الجبرية لمدة ٨ شهور ثم أفرج عنه، وتابع التحرك ضد الشاه بخصوص علاقته مع إسرائيل، وخصوصا «تنازلات» الشاه لتمديد الحصانة الدبلوماسية لعسكريين أميركيين.

أعيد اعتقال الخمينى فى نوفمبر ١٩٦٤ وأرسل إلى المنفى وبقى فيه لمدة ١٤ عاما حتى قيام الثورة.

تبعت ذلك فترة من «الهدوء الساخط»، قام فيها البوليس السرى سافاك بقمع المعارضة، ولكن بوادر الصحوة الخمينية بدأت بتقويض فكرة التغريب التى ينتهجها نظام الشاه فظهر جلال آل أحمد الذى وصف نهج التغريب بـ «غرب زدجى» أى (طاعون الحضارة الغربية) وعلى شريعتى، وكذلك تفسير مرتضى مطهرى التبسيطى للتشيع، كل ذلك حاز على أتباع ومريدين وقراء ومؤيدين.

ويبرز بين هذه القيادات الخمينى الذى طور ونمى وروج لنظرية مفادها «أن الإسلام يتطلب حكومة إسلامية يتزعمها ولى فقيه»، أى كبار فقهاء القانون الإسلامى.

فى سلسلة محاضرات فى أوائل سنة ١٩٧٠، صدرت فيما بعد فى كتاب،

بين الخمينى المذهب الشيعى يتطلب الانصياع لقوانين الشريعة وحدها، وفى سبيل ذلك، لايكفى أن يقود الفقهاء جماعة المسلمين، بل عليهم أن يقودوا الحكومة أيضاً.

لم يتحدث الخمينى عن هذه المفاهيم فى اللقاءات والمحادثات مع الغرباء، لكن الكتاب انتشر على نطاق واسع فى الأوساط الدينية، خاصة بين طلاب الخمينى والملالى، وصغار رجال الأعمال، وراح هذا الفريق يطور ما سيصبح شبكة قوية وفعالة من المعارضة داخل إيران، مستخدمة خطب المساجد، وتهريب شرائط تسجيلات صوتية للخمينى وطرق أخرى، أضافت إلى قوة المعارضة الدينية، فى حين ظنت بقية المعتدلين واليساريين والميليشيات المسلحة الأخرى أن الستار سيسدل بعد الثورة وسقوط الشاه على الخمينى وأعوانه وأن هذا التيار اليسارى سيسيطر على الساحة، ولكن الخمينى لم يعطهم الفرصة وسيطر على الحكم.

وفى أكتوبر سنة ١٩٧١ حلت ذكرى مرور ٢٥٠٠ عام على إنشاء الإمبراطورية الفارسية، وقد دعيت شخصيات أجنبية وعربية للحفل الذى استغرق ثلاثة أيام مليئة بالتبذير المفرط، قدم فيها أكثر من طن من الكافيار، وجلب ٢٠٠ طاهٍ من فرنسا لإعداد الولائم.

بلغت التكاليف الرسمية للحفل ٤٠ مليون دولار، لكن تقديرات أخرى تشير إلى أن المبلغ تراوح ما بين ١٠٠ ـ ١٢٠ مليون دولار، فى وقت رزحت فيه ولايات ومحافظات بلوشستان وسيستان وحتى فارس، وهى المناطق التى أجريت فيها الاحتفالات، تحت وطأة جفاف وقحط وفقر.

وفى أواخر سنة ١٩٧٤ وبدل أن تعمل الطفرة النفطية على إنتاج «حضارة عظيمة» كما وعد الشاه، فقد دقت جرس التضخم والهدر و«الفجوة المتسارعة» بين الأغنياء والفقراء، والريف والمدينة.

بات القوميون الإيرانيون غاضبين من عشرات آلاف العمال الأجانب المهرة الذين جاءوا إلى إيران لتشغيل المعدات العسكرية الأمريكية باهظة التكاليف، والتى لم تحظ بدعم أو قبول شعبى، والتى أنفق الشاه مئات الملايين من الدولارات عليها.

فى العام التالى أسس الشاه حزباً جديداً سماه «رستاخيز» (أى البعث أو النهضة)، لم يكن «رستاخيز» الحزب الوحيد الذى يمكن للإيرانيين الإنتساب إليه فحسب، بل كان لزاماً على كل إيرانى بالغ أن ينتسب إليه، ويدفع رسومه.

المحاولات التى بذلها هذا الحزب لاتخاذ موقف شعبى لصالح حملات «مكافحة الاستغلال» لم تكن ذات ضرر اقتصادى فحسب، لكنها أتت بنتائج سياسية عكسية أيضاً، فظهرت السوق السوداء عوض التضخم وتراجع النشاط التجارى، وغضب التجار وفرت رؤوس الأموال.

وفى سنة ١٩٧٦، أثارت حكومة الشاه غضب «تقاة المسلمين» الإيرانيين بتغيير بداية السنة الإيرانية، من سنة الهجرة النبوية إلى سنة اعتلاء سايروس العرش الفارسى، إيران قفزت بين ليلة وضحاها من سنة ١٣٩٥ للهجرة إلى سنة ٢٥٣٥ الملكية، وفى السنة نفسها أعلن الشاه التقشف الاقتصادى بهدف كبح التضخم والهدر، البطالة الناجمة عن ذلك أثرت سلباً على آلاف المهاجرين إلى المدن، وهم ضعاف وغير مؤهلين لأى حرفة أو صنعة.

وفى سنة ١٩٧٧، دخل رئيس أمريكى جديد إلى البيت الأبيض، كانت الآمال تحدو جيمى كارتر لتغيير صورة الولايات المتحدة المرتبط بحرب فيتنام، وتغيير السياسة الخارجية، فأنشأ مكتباً خاصّاً لحقوق الإنسان، وجه «مذكرة مؤدبة» إلى الشاه بينت فيها أهمية الحقوق السياسية والحريات.

واستجاب الشاه بالعفو عن ٣٥٧ سجيناً سياسيّاً فى فبراير، وسمح للصليب الأحمر بزياره السجون، فى مسعى للبدء بطور من التحرر. ما بين أواخر الربيع مروراً بالصيف وإلى بدايات خريف ذلك العام أسست المعارضة الليبرالية منظمات أصدرت من خلالها رسائل مفتوحة تدين فيها النظام.

وفى وقت لاحق من ذلك العام التقت مجموعة معارضة (رابطة الكتاب) دون أن تقوم الشرطة بتفريقها كما جرت العادة.

فى تلك السنة توفى المفكر على شريعتى (تشير بعض المزاعم أنه تعرض للتصفية على يد الشرطة السرية السافاك) مما أزال أى منافس محتمل لثورة الخمينى.

وفى أكتوبر توفى مصطفى بن الخمينى، وفى حين يعتقد أن الوفاة نجمت عن أزمة قلبية، إلا أن المجموعات المعارضة للشاه ألقت بالمسؤولية على السافاك، واتهمتهم بتسميم مصطفى واعتبر «شهيداً»، صلاة الجنازة على روحه فى طهران عادت بالخمينى إلى دائرة الضوء، وبدأت صيرورة تحول عبرها الخمينى إلى قائد المعارضة المناوئة للشاه.

وأتت أولى مظاهر المعارضة من الطبقة الوسطى فى المدن، وهم فئة من السكان كانوا من العلمانيين نسبياً وأرادوا بناء ملكية دستورية وليس جمهورية إسلامية، ومن أبرز هؤلاء مهدى باذرخان من «حركة تحرير إيران»، وهى حركة ليبرالية إسلامية معتدلة كانت وثيقة الصلة بالجبهة الوطنية التابعة لمحمد مصدق، وقت لاقت هذه المجموعة دعماً كبيراً فى إيران ومن الغرب.

انقسم رجال الدين وتحالف بعضهم مع الليبراليين العلمانيين وآخرون مع الماركسيين والشيوعيين، الخمينى الذى كان منفيّاً فى العراق، عمل على أن تتوحد المعارضة الدينية والعلمانية والليبرالية والأصولية تحت قيادته،

وذلك عبر تجنب الخوض فى التفاصيل، على الأقل علنا، فتلك قد تفرق بين الفصائل.

عملت مختلف المجموعات المناهضة من الخارج، فى الأغلب من لندن وباريس والعراق وتركيا. خطابات قادة هذه الجماعات سجلت على أشرطة تسجيل ليتم تهريبها إلى إيران ليستمع إليها الكثيرون من الأميين من السكان.

كانت الجماعات الإسلامية أول من نجح فى حشد المناصرين ضد الشاه. فى يناير ١٩٧٨ أوردت الصحافة الرسمية قصة تشهير هاجمت فيها الخمينى، وخرجت جموع غاضبة من الطلاب والزعماء الدينيين احتجاجا على تلك الادعاءات فى مدينة قم، وأرسل الجيش لتفريق المتظاهرين مما أدى لمقتل بعضهم، يزعم البعض أن عدد القتلى تجاوز ٧٠ طالباً.

وفقا للعادات الشيعية يجرى حفل تأبين فى ذكرى مرور أربعين يوماً من وفاة شخص ما، وأطلقت المساجد فى كل البلاد الدعوى للمشاركة فى تكريم الطلاب القتلى، واستجابت عدة مدن للنداء وسارت المظاهرات تكريماً للقتلى واحتجاجاً على حكم الشاه، هذه المرة وقعت أعمال عنف فى تبريز، وقتل المئات من المتظاهرين، وتكررت الحلقة مرة أخرى فى ٢٩ مارس، حيث وقعت جولة جديدة من الاحتجاج فى سائر البلاد، وهوجمت الفنادق الفارهة ودور السينما والبنوك والمكاتب الحكومية ومدارس البنات وغيرها من رموز نظام الشاه، وتدخلت قوات الأمن مرة أخرى، وقتل الكثيرون، وتكرر الأمر نفسه فى العاشر من مايو.

فى مايو، اقتحمت فرق الشركة منزل رجل دين سياسى وقيادى معتدل يدعى كاظم شريعتمدارى، وأردت أحد أتباعه قتيلاً بالرصاص أمام ناظريه، على إثر ذلك تخلى شريعتمدارى عن صمته وانضم إلى المعارضة. حاول الشاه إرضاء المتظاهرين عبر تخفيف نسب التضخم، وتوجه بالمبادرات إلى بعض رجال الدين المعتدلين، وعزل رئيس السافاك، ووعد بإجراء انتخابات

حرة فى شهر يونيو اللاحق، ولكن العمل على خفض التضخم عن طريق تقليل النفقات تسبب فى ارتفاع نسبة البطالة، خصوصاً فى صفوف الشباب غير المؤهلين للعمل كما يجب والذين يعيشون فى أحياء فقيرة فى المدن.

فى صيف سنة ١٩٧٨، خرج هؤلاء العمال الذين ينحدرون فى الغالب من أصول ريفية تقليدية إلى الشوارع فى أعداد حاشدة، فى حين أعلن عمال آخرون الإضراب.

هكذا ومع حلول نوفمبر كان الاقتصاد قد أصيب بالشلل جراء الإضرابات.

ولكن كيف كان الأمريكيون مع حليفهم الشاه، الذى كان نظامه ينهار؟.. يمكننا القول إنه خلال عام ١٩٧٧ التقى شاه إيران مع كل من ألفريد أثيرتون، ووليم سوليفان، وسايروس فانس، والرئيس كارتر، وزبيغنيو برزيزينسكى، كما أكدوا فى مذكراتهم فيما بعد.

ففى مواجهة هذه الثورة سعى الشاه وراء مساعدة من الولايات المتحدة. فقد احتلت إيران موقعاً استراتيجيّاً فى السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط، فهى موالية لأمريكا وتتقاسم حدوداً طويلة مع عدوها فى الحرب الباردة الاتحاد السوفياتى، وهى دولة نفطية كبرى، لكن النظام البهلوى كان يحظى بدعاية سلبية لسجله السيئ فى مجال حقوق الإنسان.

ويتذكر السفير الأمريكى فى إيران، ويليام سوليفان تلك الفترة ويقول فى مذكراته بأن مستشار الأمن القومى الأمريكى السيد زبيغنيو برزيزينسكى «أكد للشاه مراراً وتكراراً أن الولايات المتحدة تدعمه بالكامل». لكن الرئيس كارتر فشل فى الالتزام بتلك الوعود والتأكيدات.

وفى ٤ نوفمبر ١٩٧٨، اتصل برزيزينسكى بالشاه ليبلغه بأن الولايات المتحدة «ستدعمه حتى النهاية»، وفى الوقت نفسه، قرر بعض المسؤولين

رفيعى المستوى فى وزارة الخارجية أن الشاه يجب أن يذهب بغض النظر عمن سيحل مكانه.

واستمر برزيزينسكى والوزير جيمس شليزنغر فى التعهد للشاه بأن الولايات المتحدة ستسانده عسكرياً، حتى فى آخر أيام الثورة، عندما كان الشاه يعتبر هالكاً لا محالة مهما كانت نتائج الثورة، استمر برزيزينسكى فى الدفاع عن خطة التدخل العسكرى الأمريكى لإعادة الاستقرار الإيرانى.

الرئيس كارتر لم يحسم كيفية استعمال القوة بشكل مناسب، وعارض قيام الولايات المتحدة بانقلاب وأمر حاملة الطائرات يو إس إس كونستوليشن بالتوجه إلى المحيط الهندى لكنه سرعان ما ألغى أمره، تم التخطيط لصفقة مع جنرالات إيران لتحويل الدعم لصالح حكومة معتدلة، لكن هذه الخطة انهارت مع اجتياح الخمينى وأتباعه البلاد، وتوليهم السلطة فى ١٢ فبراير ١٩٧٩م.

واستمر العنف ليحصد أكثر من ٤٠٠ شخص قضوا فى حريق سينما ريكس، وهو حريق متعمد وقع فى أغسطس فى عبدان، ورغم أن دور العرض السينمائى كانت هدفاً مستمراً للمتظاهرين الإسلاميين فقد بلغ انعدام ثقة الجماهير بالنظام، وبلغت فعالية المعارضة فى العمل والتواصل حداً جعل الجماهير ترى أن السافاك كان وراء الحادث فى محاولة منه لتطويق المعارضة.

فى اليوم التالى تجمع ١٠,٠٠٠ من أقارب القتلى والمتعاطفين لتشييع جماعى حاشد ومظاهرة تنادى «ليحترق الشاه» و«الشاه هو المذنب».

مع حلول سبتمبر، كانت البلاد مزعزعة على نحو شديد، وتحولت المظاهرات الحاشدة إلى أحداث منتظمة، فرض الشاه الأحكام العرفية، وحظر كل التظاهرات.

وفى يوم الجمعة ٨ سبتمبر ١٩٧٨، خرجت مظاهرة حاشدة للغاية فى طهران، إنها المظاهرة التى حولت ذلك اليوم إلى ما بات يعرف اليوم باسم الجمعة الأسود.

نشر قادة الثورة شائعات مفادها أن «الجنود الصهاينة يقتلون الآلاف»، بينما كانت القوات التى أطلقت النار فى الواقع تابعة لميليشيات الأكراد، وقد بينت التحقيقات بعد الثورة أن عدد القتلى كان صغيرًا نسبيًّا (٨٧)، ولكن فى ذلك الوقت ظهرت الحكومة بصورة الحكومة الوحشية أبعدت عنها الكثيرين من الإيرانيين والحلفاء فى الخارج.

أدى إضراب عام فى أكتوبر إلى شل الاقتصاد والصناعات الحيوية التى أغلقت أبوابها و«حسمت مصير الشاه».

وبلغت الاحتجاجات ذروتها فى ديسمبر ١٩٧٨، خلال شهر محرم أحد أهم الشهور لدى المسلمين الشيعة.

وفى ١٢ ديسمبر خرج إلى شوارع طهران نحو مليونى شخص ملؤوا ساحة أزادى (شاهياد) مطالبين بإزالة الشاه وعودة الخمينى.

وفى ١٦ يناير ١٩٧٩ غادر الشاه والملكة إيران نزولاً عند طلب رئيس الوزراء الدكتور شابور بختيار، الذى كان لفترة طويلة زعيم المعارضة، وظهرت مشاهد الابتهاج العفوى، ودمرت خلال ساعات «كل رموز سلالة بهلوى»، وأعلن بختيار حل البوليس السرى (سافاك)، وأفرج عن السجناء السياسيين، ووعد بانتخابات حرة وأمر الجيش بالسماح للمظاهرات الشعبية.

وبعد عدة أيام من التوقف سمح بعودة الخمينى إلى إيران وطلب إليه تأسيس دولة مثل الفاتيكان فى قم، ودعا المعارضة للمساعدة على الحفاظ على الدستور.

وفى الأول من فبراير عام ١٩٧٩، عاد الخمينى إلى طهران محاطاً بحماس وتحية عدة ملايين من الإيرانيين، كقائد ثورة، واستقبلته لدى ترجله من الطائرة الجموع الحاشدة بتحية:

«السلام عليكم أيها الإمام الخمينى».

وأوضح الخمينى فى كلمة ألقاها فى اليوم نفسه شدة رفضه لنظام رئيس الوزراء بختيار، ووعد «سوف أركل أسنانهم لقلعها»، وعين منافسه مهدى باذرخان مؤقتاً رئيساً للوزراء، وقال:

«بما أننى قد عينته، فيجب أن يطاع»، واعتبر أنها «حكومة الله» وحذر من عصيانها، فأى عصيان لها «عصيان لله»، وفيما راحت حركة الخمينى تكتسب مزيداً من الزخم، بدأ الجنود بالانضواء فى جانبه، اندلع القتال بين الجنود الموالين والمعارضين للخمينى بإعلانه الجهاد على الجنود الذين لم يسلموا أنفسهم، الانهيار النهائى للحكومة غير الخمينية حصل فى ١١ فبراير عندما أعلن المجلس العسكرى الأعلى نفسه «محايداً فى النزاعات السياسية الراهنة، لمنع المزيد من الفوضى وإراقة الدماء».

كانت المرحلة الثانية من الثورة مرحلة إسلامية الطابع، وبعد انتصارها صار هناك ابتهاج كبير فى إيران جراء سقوط الشاه، لكن الصمغ الذى أبقى مختلف التيارات الثورية الدينية والليبرالية والعلمانية والماركسية والشيوعية التى عارضت الشاه فقد مفعوله.

وكانت هناك مجموعات كثيرة تتنافس كلها على السلطة ولدى كل منها تفسيرات مختلفة لأهداف الثورة:

- إنهاء الاستبداد.
- مزيد من الإسلام.
- الحد من التأثير الغربى الأمريكى.

- مزيد من العدالة الاجتماعية.

- العدل والمساواة.

كان الخميني آنذاك في نهاية العقد الثامن من عمره، السابعة والسبعين تقريباً، ولم يتسلم أي منصب رسمى قط، وكان منفيّاً خارج إيران لقرابة ١٤ عاماً، وسبق له أن قال لبعض من سألوه عبارات من قبيل: «المرشدون الدينيون لايرغبون بالحكم».

كل هذا ولد انطباعا لدى الكثيرين مفاده أنه يرغب بأن يكون المرشد الروحي صاحب سلطة، لكنه بمهارة اختار التوقيت المناسب لإزالة كل أعدائه وحلفائه الذين باتوا عقبة أمامه وأن يطبق نظام ولاية الفقيه في جمهورية إسلامية يقودها بنفسه.

في السنة الأولى للثورة كان هناك مركزان للسلطة: الحكومة الرسمية والمنظمات الثورية، رئيس الوزراء مهدى بازركان الذى عينه الخمينى، عمل على إنشاء حكومة إصلاحية ديمقراطية، في حين عملت بشكل مستقل كل من المجلس الثورى المكون من الخمينى وأتباعه من رجال الدين، والحرس الثورى، والمحكمة الثورية، والخلايا الثورية المحلية التى تحولت إلى لجان محلية.

وفي حين راح رئيس الحكومة (المؤقتة) بازرخان يطمئن الطبقة الوسطى، بات من الواضح أن سلطة اتخاذ القرارات النهائية هو فى الهيئات الثورية وفي المجلس الثورى على وجه الخصوص، وفيما بعد الحزب الثورى الإسلامى. ازداد التوتر بين السلطتين بدون شك، رغم أن كلتيهما وُضعت وأُقرت من قِبَلِ الخمينى.

في يونيو، أعلنت حركة الحرية مشروع الدستور، وأشارت إلى إيران باعتبارها جمهورية خمينية، يتضمن مجلس صيانة يتمتع بحق نقض

التشريعات المتعارضة مع الإسلام، لكن دون وصى فقيه حاكم، أرسل الدستور إلى «مجلس الخبراء» المنتخب حديثاً ليعرض أمام أعضائه الذين حاز حلفاء الخمينى على الغالبية بينهم، رغم أن الخمينى كان قد أعلن بأن الدستور «صحيح» إلا أنه هو والمجلس أعلنوا رفضهم له، وصرح الخمينى بأن الحكومة الجديدة يجب أن تكون قائمة «بنسبة ١٠٠ على المذهب الشيعى».

ووضع مجلس الخبراء دستورا جديدا أوجد من خلاله منصب القائد الأعلى للخمينى، ومنحه السيطرة على الجيش والأجهزة الأمنية، والحق فى نقض المرشحين للمناصب، كما أقر الدستور بانتخاب رئيس جديد يتمتع بصلاحية أضيق، لكن المرشحين يجب أن يحوزوا على الموافقة المباشرة من القائد الأعلى (عبر مجلس صيانة الدستور).

وقد أصبح الخمينى نفسه رئيسا للدولة مدى الحياة باعتباره «قائد الثورة»، وعندما تمت الموافقة على الدستور فى استفتاء أجرى فى ديسمبر ١٩٧٩ أصبح «المرشد الروحى الأعلى»، وتقدم رئيس الوزراء فى نوفمبر إثر شعوره بالضعف وخلافه مع ما آلت إليه باستقالته.

وبادرت قيادة الثورة فى البداية إلى إعدام كبار الجنرالات، وبعد شهرين أعدم أكثر من ٢٠٠ من كبار مسئولى الشاه المدنيين بهدف إزالة خطر أى انقلاب، وأجرى قضاة الثورة من أمثال القاضى الشرعى صادق الخلخالى محاكمات موجزة افتقرت إلى وكلاء للدفاع أو محلفين أو إلى الشفافية، ولم تمنح المتهمين الفرصة للدفاع عن أنفسهم، ومن بين الذين أعدموا بدون محاكمة (عمليّاً) أمير عباس هوفيدا، رئيس الوزراء السابق لإيران، أما الذين هربوا من إيران فليسوا محصنين، فبعد مرور عقد اغتيل فى باريس رئيس الوزراء الأسبق شابور بختيار، وهو واحد من ما لايقل عن ٦٣ إيرانيا قتلوا أو جرحوا منذ الإطاحة بالشاه.

من أوائل شهر مارس استشعر الديمقراطيون بخيبات الأمل المنتظرة

عندما أعلن الخمينى «لاتستخدموا هذا المصطلح (الديموقراطية)، إنها مفهوم غربى».

فى منتصف شهر أغسطس تم إغلاق عشرات الصحف والمجلات المعارضة لفكرة الحكومة الخمينية، استنكر الخمينى غاضبا الاحتجاجات ضد إغلاق الصحافة، وقال «كنا نظن أننا نتعامل مع بشر، من الواضح أن الأمر ليس كذلك».

بعد نصف سنة بدأ قمع المعارضة الخمينية المعتدلة المتمثلة فى حزب الشعب الجمهورى، واضطهد العديد من كبارها، ورموزها منهم شريعتمدارى الذى وضع تحت الإقامة الجبرية.

وفى مارس ١٩٨٠ بدأت «الثورة الثقافية»، أغلقت الجامعات التى اعتبرت معاقل لليسار مدة سنتين لتنقيتها من معارضى النظام الدينى. فى يوليو فصلت الدولة البيروقراطية ٢٠,٠٠٠ من المعلمين و٨,٠٠٠ تقريبا من الضباط باعتبارهم «متغربين» أكثر ممايجب.

استخدم الخمينى أحيانا أسلوب التكفير للتخلص مع معارضيه، وعندما دعا قادة حزب الجبهة الوطنية إلى التظاهر فى منتصف عام ١٩٨١ ضد القصاص، هددهم الخمينى بالإعدام بتهمة الردة «إذا لم يتوبوا».

منظمة مجاهدى خلق هى واحدة من المنظمات المعارضة للحكم الثيوقراطى الدينى فى إيران، وخلافا لمعظم أطراف المعارضة فى إيران اعتمدت منظمة مجاهدى خلق الكفاح المسلح.

وفى فبراير ١٩٨٠ هاجم رجال مجموعة حزب الله مراكز اجتماعية ومكتبات ومنابر مجاهدى خلق وعدد من اليساريين الذين يديرون النشاط اليسارى فى الخفاء.

نفذت منظمة مجاهدى خلق مجموعة من التفجيرات والاغتيالات أدت

إلى مقتل نحو ٧٠ شخصا فى مراكز الحزب الإسلامى الجمهورى فى يونيو ١٩٨١، واغتيل فى العام ذاته كل من الرئيس محمد على رجائى ورئيس الوزراء محمد جواد باهونار.

وفى أكتوبر ١٩٧٩ استقبلت الولايات المتحدة الشاه لعلاج السرطان، كانت هناك ضجة كبرى فى إيران من جماعة الخمينى والجماعات اليسارية تطالب الشاه بالعودة إلى إيران للمحاكمة والإعدام. شباب من أنصار الإمام الخمينى اقتحموا السفارة الأمريكية واحتجزوا عشرات الرهائن داخلها فى ما أصبح يعرف باسم أزمة الرهائن فى إيران. فى أمريكا أنصار الشاه لاحظوا أن كارتر لم يقم بما يكفى لدعم الشاه مما تسبب بتحول إيران من حليف إلى عدو ومن ثم وقوع أزمة الرهائن.

اعتبر البعض أن دعم الخمينى لعملية احتجاز الرهائن كانت مناورة سياسية ذكية هدفها تقسيم مواقف المعارضة ضد الدستور الجديد الذين كان سيتم الاستفتاء حوله بعد شهر، الليبراليون المعارضون للحكم الدينى عبروا عن رفضهم لحكم رجال الدين وكذلك لعملية احتجاز الرهائن، فى حين أن المنظمات اليسارية وضعت خلافها مع الدستور الجديد جانباً وانضمت إلى الحماس المناهض للإمبريالية فى مسعاها لاحتلال «عش الجواسيس».

وفشلت محاولات تسليم الشاه للمحاكمة وتوفى فى مصر بعد أن مُنح حق اللجوء فيها من قبل الرئيس المصرى أنور السادات، قبل مرور سنة على احتجاز الرهائن، دون أن تؤدى وفاته إلى قطع فتيل الأزمة.

وفى يوليو ١٩٨٠، اجتمع زبيغنيو برزينسكى مستشار الأمن القومى بالحسين بن طلال ملك الأردن فى عَمَّان لمناقشة خطط مفصلة يرعى من خلالها الرئيس العراقى صدام حسين تنظيم انقلاب فى إيران ضد الخمينى.

الحسين بن طلال الذى كان أقرب حلفاء صدام فى العالم العربى، أدى دور الوسيط أثناء التخطيط، الغزو العراقى لإيران سيكون تلبية لدعوة من الضباط الإيرانيين الموالين الذين يخططون لانقلاب أو انتفاضة فى ٩ يوليو ١٩٨٠ (فى عملية أطلق عليها اسم: «نوجة»، تيمناً باسم قاعدة جوية فى همذان).

وتم تنظيم الضباط الإيرانيين بواسطة بختيار شابور الذى فر إلى فرنسا بعد تسلم الخمينى السلطة، لكنه كان يدير العمليات من بغداد والسليمانية فى الوقت الذى تم فيه اللقاء بين زبيغنيو والحسين بن طلال، على أى حال فقد تسربت أنباء الخطة إلى الخمينى عن طريق عملاء سوفييت فى فرنسا وباكستان وأمريكا اللاتينية، وسرعان ماتمكن الرئيس الإيرانى الحسن بنى صدر من تطويق قرابة ٦٠٠ من الضباط وأعدم كثيراً منهم، واضعاً نهاية حاسمة لخطة (نوجة) للانقلاب.

قرر صدام إتمام المخطط بدون معونة الضباط الإيرانيين، فيبدأ بذلك حرباً ضروساً دامت ٨ سنوات عجاف حصدت أكثر من مليون قتيل ولم تُبْقِ ولم تَذَرْ.

أزعجت الثورة الإيرانية كل زعماء المنطقة، فقد كان لظهور الراديكالية الشيعية وسيطرتها على حكومة دينية ودعوتها إلى إسقاط الأنظمة واستبدالها بجمهوريات إسلامية كل ذلك كان أشبه بالكابوس بالنسبة لدول الجوار.

فى هذه الظروف غزا العراق إيران فى محاولة للاستحواذ على المناطق ذات الأغلبية العربية والغنية بالنفط فى الأحواز والقضاء على الثورة فى مهدها، وهكذا بدأت حرب السنوات الثمان بين العراق وإيران، واحدة من أكثر الحروب دموية وتدميراً فى القرن العشرين.

ومع المقاومة الشرسة تمكن المقاتلون الإيرانيون مع حلول عام ١٩٨٢ من

استرجاع جميع الأراضى التى تمكن العراق من احتلالها، ساهم الغزو فى توحيد الإيرانيين خلف النظام الجديد، ووضعوا خلافاتهم الكبيرة جانباً فى مواجهة التهديد الخارجى، وباتت الحرب ذريعة يستخدمها النظام لقمع المجموعات المعارضة اليسارية المدعومة من السوفييت، بما فى ذلك التعذيب والسجن غير القانونى.

أدرك صدام خطأه، وعرض على إيران الهدنة، ورفض الخمينى، وأعلن أن الشرط الوحيد للسلام «أن النظام فى بغداد لابد أن يسقط ويجب أن تحل محله جمهورية إسلامية». استمرت الحرب لمدة ست سنوات أخرى مع مئات الآلاف من الأرواح والدمار الكبير من الهجمات الجوية، ورغم أن رجال الثورة فشلوا فى تصديرها إلى العراق فى نهاية الأمر إلا أن الحرب كانت سبيلهم لتوطيد السيطرة على إيران.

عندما نشبت الحرب أول الأمر نوقشت فى الإدارة الأمريكية، وأبدى البعض تخوفهم من انتصار إيران، ودعوا إلى ضرورة خسارتها للحرب، جاءه الرد يجب أن يخسر الطرفان!!.. وهذا ماحصل!!

لا يمكن إلحاق اللوم على طرف محدد واحد فى هذه المأساة، ورغم الدور الأمريكى فى التوطئة للانقلاب والإيحاء لصدام بأنه يخوض حرباً أمريكية، بدعم عربى، فإن إصرار الخمينى على سقوط نظام صدام كان مراهنة فى غير محلها، تسببت فى قبوله آخر الأمر التوقيع على وقف إطلاق النار بقوله «إننى أوافق وكأننى أشرب السم».

■ ■ ■

20

الثورة الفلبينية..
وبينيجنو أكينو



تعد الثورة الفلبينية فى فبراير ١٩٨٦ النموذج الأمثل للثورة الوطنية فى الربع الأخير من القرن العشرين. فقد نجحت المقاومة الوطنية فى الإطاحة بالديكتاتور فرديناند ماركوس.

لقد تولى ماركوس الحكم فى عام ١٩٦٥م. وفى سبتمبر ١٩٧٢، كرد فعل لحركة المعارضة، أعلن فرض قانون الطوارئ وألغى منصب نائب الرئيس كما ألغى انتخابات ١٩٧٣م. وفى عام ١٩٧٢، اعتقل ماركوس زعيم المعارضة بينيجنو أكينو وأصدر عليه حكماً بالإعدام بدون محاكمة.

وفى عام ١٩٨٠، سمح ماركوس لأكينو بالذهاب للولايات المتحدة حيث مكث هناك حتى عام ١٩٨٣م. وفى ٢١ أغسطس ١٩٨٣، عاد أكينو إلى الفلبين ليقود المعارضة ضد ماركوس، وتم اغتياله فى مطار روما لدى نزوله من الطائرة.

وطوال فترة قانون الطوارئ، اندلعت احتجاجات متفرقة، إلا أن اغتيال أكينو كان بمثابة الشرارة التى أشعلت الاحتجاجات واسعة النطاق.

وشارك فى تشييع جنازة أكينو ما يتراوح بين أربعة وستة ملايين. وتعددت حركات الاحتجاج بشكل مستمر فى الفترة من ١٩٨٣ إلى ١٩٨٥م.

فقد كانت المظاهرات العارمة تخرج فى مناسبات، بداية فرض قانون الطوارئ فى ٢١ سبتمبر، وميلاد أكينو فى ٢٧ نوفمبر، واغتياله فى ٢١ أغسطس، وفى ٢٣ سبتمبر ١٩٨٥، نظم الفلبينيون فى مدينة بوتون وعديد من المدن الأخرى إضراباً شاملاً لمدة يومين احتجاجاً على نظام ماركوس.

وخلال تلك الفترة شارك العديد من الفلبينيين فى تدريبات على

أسلوب المقاومة الوطنية نظمها جين وهيلد جارد جوس ماير وريتشارد ديتس، من (الجمعية الدولية للتصالح). ومن هذه الحلقات الدراسية، تشكلت منظمة اللاعنف (اكابكا). وقد أثرت هذه التدريبات على أسلوب اللاعنف على أحداث عام ١٩٨٦م.

وتحت الضغط المحلى والدولى، أعلن ماركوس فى أواخر عام ١٩٨٥ عن إجراء انتخابات مفاجئة فى ٧ فبراير ١٩٨٦م. واختار قادة المعارضة كورازون أكينو مرشحة للرئاسة وسلفادور لوريل مرشحاً لمنصب نائب الرئيس.

وكانت الشكوك تحيط بنزاهة الانتخابات منذ البداية على الرغم من سماح ماركوس لمتطوعين من النامفريل ولمراقبين أمريكيين بمراقبة الأحداث. وفى يوم الانتخابات شكل عمال النامفريل المدربين على أسلوب اللاعنف، حواجز بشرية للحيلولة دون محاولات سرقة صناديق الأصوات، كما نظمت أكابكا تجمعات للصلاة والتدريب على أسلوب اللاعنف. وفى ٩ فبراير أعلن ثمانية وثلاثون من عمال الكمبيوتر احتجاجهم على تعمد إذاعة نتائج خاطئة تشير إلى تقدم ماركوس، وأعلنت الجمعية الوطنية الفلبينية فوز ماركوس الأمر الذى عارضه عديد من المؤسسات والأفراد.

وأعلن كل من ماركوس وأكينو فوزه بالرئاسة، ومن هنا بدأت الثورة.

ولعبت الكنيسة الكاثوليكية دوراً أساسيّاً فى الثورة. ففى ١٣ فبراير أعلن الأساقفة الكاثوليك أن الانتخابات مزورة ودعوا إلى شن (كفاح لا عنيف من أجل العدالة). وأعلن الكاردينال سين كبير أساقفة مانيلا أنه يعتبر نفسه (قائداً للقوات الفلبينية غير المسلحة).

وفى ٢٢ فبراير أعلن وزير الدفاع جوان بونس ازيل ونائب رئيس الأركان منديل راموس تمردهما واعتصما داخل وزارة الدفاع. وطلب أجابينو، شقيق بينيجنو أكينو، والكاردينال سين من مواطنى مانيلا إرسال الطعام لقوات التمرد والخروج إلى الشوارع لقطع الطريق على تحرك

القوات المعادية. وكان هذا هو بداية الثورة الشعبية.

لقد تدفق الآلاف إلى ميدان ابيفانيو دى لوس سانتوس وأحضروا الطعام والمشروبات وأجهزة الراديو للمتمردين. واتخذ التجمع مظهراً احتفاليّاً حيث رفرفت الأعلام وراح الحشد يغنى نشيد بايان كو (وطنى).

وفجر يوم الأحد ٢٣ فبراير توجهت قوة عسكرية معززة بالدبابات والعربات المدرعة نحو معسكر المتمردين. إلا أن الآلاف من المتظاهرين سدوا أمامها الطريق وأجبروها على التوقف على بعد ميل، وهدد قائد القوة ارتيميو ناديار بإطلاق الرصاص إذا لم يخل المتظاهرون الطريق، إلا أن الحاجز البشرى الضخم ظل فى مكانه واضطرت القوة فى النهاية إلى الانسحاب دون إطلاق النار، وقدم المتظاهرون الطعام والشراب لجنود القوة. وأعطاهم البعض الزهور أيضاً.

وفى صباح الإثنين، وبينما كان ماركوس يوجه خطاباً عبر التلفزيون الحكومى استولى المتمردون على محطة التلفزيون وأوقفت إذاعة الخطاب.

وخلال الفترة من ٢٢ إلى ٢٥ فبراير، أعلنت عديد من الوحدات العسكرية تمردها، وقاد رودلفو بيازون قائد إحدى الفرق العسكرية قوة من ستمائة جندى للانضمام إلى راموس وازيل. وصدرت الأوامر لإحدى فرق مكافحة الشغب للهجوم على معسكر المتمردين فى فجر يوم الاثنين، إلا أنها أعلنت تمردها أيضاً. وفى نهاية تلك الفترة، كان ما يقرب من ٨٠٪ من القوات المسلحة قد أعلنت تمردها.

وفى صباح الثلاثاء ٢٥ فبراير أدت أكينو قسم تنصيبها رئيسة وسلفادور نائباً لها. وفى نفس الوقت، كان ماركوس يؤدى قسم الرئاسة ولكن بدون أى دعم شعبى يذكر. وبناء على نصيحة الولايات المتحدة، هرب ماركوس إلى قاعدة كلارك الجوية الأمريكية فى الفلبين فى تلك الليلة.

وهكذا تمت الإطاحة بالديكتاتور ونجحت الثورة الشعبية بالوسائل اللاعنيفة.

21

الثورة التشيكية..
وفاكلاف هافل



تنال الشعوب الاحترام الدولى بنضالها ضد الاضطهاد، وكذلك تفقد قيمتها ووزنها عندما ترضى بالذل.

الثورة التشيكية أحد الأمثلة الحية الدالة على أن لا قاهر لإرادة الشعوب، فهذا الشعب ظل تحت حكم شيوعى تعسفى لمدة ٤١ سنة، ثم تمكن من الخلاص منه. ولقد سُمِّيَت الثورة التشيكية بـ «الثورة المخملية» بالقسم التشيكى و«الثورة الناعمة» بالقسم السلوفاكى، وذلك لخلوها من العنف والدماء.

كانت قبضة الشيوعية مُحكمة على تشيكوسلوفاكيا حتى عام ١٩٨٩. وكان النظام صارما، حيث حكم الحزب الشيوعى البلد منذ عام ١٩٤٨. طوال تلك الفترة، لم يكن فى الحكومة أى حزب معارض بصفة رسمية.

قَوِيَت الحركة الشعبية المعارضة خلال الفترة بين ١٩٧٧ حتى عام ١٩٩٢، وسُمِّيت هذه الحركة بـ: «عَقْد الـ ٧٧» نسبةً لوثيقة أصدرها نفس الحزب عام ٧٧ والتى تم توزيعها ذلك العام فى تشيكوسلوفاكيا.

ظهرت الوثيقة فى البداية فى جريدة فى ألمانيا الغربية موقعة من ٢٤٣ مواطنا تشيكوسلوفاكيا من مختلف الفئات السياسية والدينية، وفى منتصف عام ١٩٨٠ أصبح عدد الموقعين عليها ١٢٠٠ شخص.

انتقدت هذه الحركة الحكومة التشيكوسلوفاكية لعدم التزامها بالمعاهدات التى وقعتها بخصوص حقوق الإنسان بما فى ذلك نصوص من دستور الدولة نفسها. كما أوضحت الوثيقة أن الموقعين عليها هم أفراد متفقون فى احترامهم لقوانين حقوق الإنسان فى دولتهم وفى جميع أرجاء العالم، وأنهم لا ينتمون لأى حزب أو تنظيم سياسى ولا يشكلون قاعدة لأى

نشاط معارض سياسى.

كانت الجملة الأخيرة قد صيغت بحذر لتكون غير خارجة عن القانون التشيكوسلوفاكى الذى نص على عدم شرعية المعارضة المنظمة.

انتشرت الوثيقة فى البلد وخارجه وبلغات مختلفة، فكان رد فعل الحكومة عليها تعسفى، ووُصفت من قبل الإعلام الحكومى التشيكوسلوفاكى بأنها مضادة للدولة، مضادة للاشتراكية، وكتابة مراوغة وبذيئة وسفيهة ومؤذية.

ووُصِفَ الموقعون عليها بأنهم «خونة ومتمردون» و«خدم مخلصون وعملاء للإمبريالية» و«سياسيون مفلسون»، و«مغامرون عالميون»، وقد استعملت طرق شتى للرد على الموقعين لردعهم، كالطرد من العمل، وحرمان أطفالهم من الدراسة، إلغاء رخصة القيادة، المنفى الإجبارى، فقدان الجنسية، الاعتقال، المحاكمة، والسجن.

كذلك تم إجبار الكثيرين من الأعضاء على العمل مع المخابرات الشيوعية.

هذه المعاملة التعسفية التى تعرض لها الموقعون على وثيقة الـ٧٧ أدت فى الـ ٧٨ إلى نشأة مجموعة جديدة لمساندة مجموعة الـ ٧٧، أطلقت على نفسها اسم: «لجنة الدفاع عن المضطهدين»، واهتمت هذه اللجنة بنشر المصير الذى آل إليه الموقعون على الوثيقة.

وفى عام ٧٩ تم اتهام ستة من قواد لجنة الدفاع عن المضطهدين بتهمة الفتنة وتمت محاكمتهم وتم سجنهم لمدد وصلت إلى ٥ سنوات.

بالرغم من استمرار الممارسات القمعية ضد المجموعتين إلى نهاية الثمانينيات، إلا أنهما لم تتوقفا عن إصدار تقاريرهما عن انتهاك الحكومة لحقوق الإنسان.

طوال مدة الحكم الشيوعى، كان تأثير حركة وثيقة الـ ٧٧ محدودا ولم تصل إلى نطاق واسع، فقد كان أكثر الأعضاء من براغ. وكان مصدر معرفة

أكثر المواطنين التشيكوسلوفاكيين للحركة من الحكومة نفسها بسبب مقاومتها لها.

فى نهاية ال١٩٨٠، ومع ضعف الكتلة الشيوعية الشرقية، وجد أعضاء وثيقة ٧٧ فرصة سانحة وشاركوا فى تنظيم المعارضة ضد النظام الحاكم.

وخلال الأيام الأولى للثورة المخملية، شارك الأعضاء فى التحاور مع النظام الحاكم عن كيفية انتقال الحكم من النظام الشيوعى إلى النظام الديمقراطى.

بعد نجاح الثورة، تمت ترقية الكثيرين منهم إلى مناصب عليا فى الحكومة، وأصبح أحدهم رئيس تشيكوسلوفاكيا، إلا أن أكثرهم لم يكن له خبرة بالسياسة مما أدى إلى درجات متفاوتة من النجاح والفشل فى مهامهم.

وبالرغم من الدور الهام الذى أدته هذه المجموعة فى السياسة التشيكوسلوفاكية، فقد تم حل المجموعة عام ١٩٩٢م.

تمت أحداث الثورة المخملية بين ١٦ نوفمبر إلى ٢٩ ديسمبر ٨٩: فقد بدأت بمظاهرة سلمية نظمها الطلبة إحياءً للذكرى الخمسين لمقتل طالب فى براغ على أيدى المحتلين الألمان خلال فترة الحرب العالمية الثانية، ولكنها قوبلت بالردع التعسفى من الشرطة حيث إن التظاهر فى الدول الشيوعية كان يعتبر مشكلة غير مرغوب بها.

كان اليوم التالى وهو السابع عشر من نوفمبر هو اليوم العالمى للطالب، ونظم اتحاد الشبيبة الاشتراكى مظاهرة أخرى بهذا اليوم.

ولقد كان أغلبية الأعضاء بهذا الاتحاد غير مؤيدين للحكم الشيوعى ولكن، إلى ذلك الحين، لم يكن أحد منهم يجرؤ على الإعلان عن ذلك خشية الملاحقة القانونية.

عند الرابعة مساء كان عدد المتظاهرين ١٥٠٠٠، واصلوا مسيرتهم إلى وسط براغ وهم يهتفون هتافات مضادة للشيوعية.

عند السابعة والنصف تمت مهاجمة الطلبة وانهالت عليهم الشرطة بالضرب، وتم تشتيت المتظاهرين، إلا واحدًا فقط، فقد ارتمى على الأرض كالميت حتى تم نقله من المكان. والغريب فى الأمر هو أن هذا الشخص كان من البوليس السرى التابع للنظام ولم يعرف أحد سبب ما قام به، بالرغم من التكهنات والنظريات، فقد كان لهذا الحدث وتبعاته دور كبير فى نجاح الثورة التشيكوسلوفاكية.

فى المساء، اتفق الطلبة والممثلون على الإضراب. وانتشر خبر كاذب بوفاة أحد الطلبة فى المظاهرات، مما أدى إلى ازدياد سخط طلبة الجامعات التى لم تكن مشاركة فى المظاهرات يوم ١٧.

تم نصح المتظاهرين أن يعملوا على أن تصل أعدادهم إلى ٢٥٠٠٠٠ متظاهر على الأقل على غرار ما حدث فى ألمانيا الشرقية، وذلك ليكون لمظاهراتهم دور فعال، كما تم نصحهم بأن تكون نسبة الإصابات أقل ما يمكن.

تم فى اليوم التالى إعلان الإضراب العام، وشمل هذا حتى طلبة الجامعات وشلت الحركة بالبلاد وكانت المطالب بإقالة الحكوميين المسؤولين عن الاعتداء على الطلبة وإجراء تحقيق فى الحدث، وكذلك بأن يخلى سبيل المساجين السياسيين.

حاولت الحكومة السيطرة على الوضع وتم الإعلان فى التلفزيون المحلى بأن لا أحد قُتِل، ولكن لم ينتشر الخبر على نطاق واسع إلا بعد أيام، كانت الثورة خلالها قد أخذت مجراها.

أدى هذا إلى سلسلة من المظاهرات الشعبية من نوفمبر ١٩ إلى نهاية ديسمبر.

كان عدد المتظاهرين يوم ١٩ نوفمبر ٢٠٠,٠٠٠، بينما تضخم الرقم إلى نصف مليون متظاهر فى يوم ٢٠ نوفمبر، ثم تبع ذلك إضراب عام شارك فيه جميع المواطنين فى تشيكوسلوفاكيا لمدة ساعتين يوم ٢٧ نوفمبر.

المفاجأة الكبرى كانت يوم ٢٤ نوفمبر حين أعلنت إذاعة الدولة الرسمية بانضمامها للإضراب العام، وتبع ذلك انضمام جريدة الدولة الرسمية للمعارضة.

نوفمبر ٢٧: تمت إزالة كل القيود على الصحافة الحرة بالبلد.

أعلن الحزب الشيوعى الحاكم يوم ٢٨ نوفمبر أنه سيترك الحكم ويفكك الدولة ذات الحزب الواحد. تبع ذلك إزالة الأسلاك الشائكة والحواجز بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الغربية والنمسا فى الأيام الأولى من ديسمبر.

فى العاشر من ديسمبر، عين الرئيس أول حكومة غير شيوعية منذ ١٩٤٨ وتنحى عن الحكم. وفى التاسع والعشرين من ديسمبر ١٩٨٩، تم تعيين الرئيس الجديد.

وفى يونيو ١٩٩٠ تمت بتشيكوسلوفاكيا أول انتخابات ديمقراطية منذ ١٩٤٦.

فى عام ١٩٩٣ تم تقسيم الدولة إلى تشيك وسلوفاكيا. ويسمى التشيك الثورة بالمخملية بينما السلوفاك يسمونها بالناعمة. وأحيانا يُطلق على التقسيم بـ «الطلاق المخملى».

وبعد عقود على «الثورة المخملية»، يعتبر مهندسو إسقاط النظام التوتاليتارى فى تشيكوسلوفاكيا السابقة أن تصفية الحسابات مع الماضى الشيوعى لم تتم بعد. وأقر السيناتور الكسندر فوندرا الذى كان منشقا وسجينا سياسيا قبل سقوط النظام السابق «كان حرى بنا أن نصفى حساباتنا مع النظام الشيوعى بطريقة أفضل».

فالحزب الشيوعى التشيكى الذى أُطيح بسلطته عام ١٩٨٩ ما زال فى البرلمان. غير أنه لم يجر أى إصلاح، خلافا «لأحزاب شقيقة» أخرى كحال المجر أو سلوفاكيا. وحافظ الشيوعيون التشيكيون على قاعدة ناخبين كبيرة (٢١, ٨١٪ فى انتخابات ٢٠٠٦ التشريعية).

واعتبر أحد المهندسين الرئيسيين «للثورة المخملية» فاكلاف هافل الذى

ترأس البلاد (١٩٨٩ ـ ٢٠٠٣) وأمضى خمس سنوات فى زنزانات الشيوعيين، أنه «من المؤسف حصول هذا الحزب على فرصة جديدة». كما رأى أن المجتمع لا يحوى «ما يكفى من الطاقة» لإلزام الحزب الشيوعى على التحول، موضحا «أنه يشبه صخرة ضخمة قابعة على صدر نظامنا السياسى». غير أن القائد الطلابى السابق سيمون بانيك الذى يرأس منظمة «الإنسان المحتاج» غير الحكومية يبدى المزيد من القسوة. وقال بانيك «كان علينا ان نعتبر الشيوعيين خارجين على القانون»، علما أنه هو الذى نظم مسيرة طلابية فى براغ فى ١٧ نوفمبر ١٩٨٩ أثار قمعها العنيف احتجاجات ضخمة ضد النظام الدكتاتورى.

أما المنشق السابق الآخر كاتب السيناريو جيرى كريزان فانتقد أحد شعارات الثورة وهو «لسنا مثلهم!» واعتبر كريزان أن هذا الشعار خفف من تصميم التشيكيين على تسمية الأمور بأسمائها والإشارة إلى المذنبين. وقال «لم يتعلق الأمر بالثأر أو بالعقاب. بل كان يكفى توجيه الأصابع إليهم». ولم يقلق القضاء إلا حفنة صغيرة من القادة الشيوعيين بعد ١٩٨٩م.

من بين هؤلاء، الرئيس السابق للحزب الشيوعى فى براغ ميروسلاف ستيبان الذى حُكم عليه عام ١٩٩٠ بالسجن لعامين ونصف العام لدوره فى قمع التظاهرات المعادية للنظام عامى ١٩٨٨ و١٩٨٩م. وهو يعمل الآن مستشارا ويرأس فصيلا يساريا صغيرا هو «حزب الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين». ويقول هافيل «من المحزن رؤية أولئك الذين ناضلوا طوال حياتهم من أجل الحرية وتعرضوا للملاحقات يتقاعدون برواتب تقاعد ضئيلة، فيما يستفيد جلادوهم من رواتب وتعويضات هائلة».

وأضاف أن «إعادة بناء المجتمع المدنى الذى تفتت بالكامل قبل عشرات السنين شاقة ومؤلمة. سيستغرق الأمر عقودا من الزمن». وأقر هافيل الذى يبلغ ٧٣ عاما «أخطأت عندما اعتقدت أن الأمر سيتم بسرعة أكبر». وشاطره

بانيك هذا الرأى، فقال «ظننا أن فورة السعادة وحسن النية ستدوم».

لكن الأمر كان وهما ساذجا بالطبع. وتابع «غير أن دولا أخرى فى أوروبا الوسطى والشرقية تشهد أوضاعا مشابهة». ويعتبر مهندسو ثورة ١٩٨٩ أن أهدافها الأساسية تحققت.

ولفت هافيل إلى أن «التغير نحو دولة ديمقراطية، دولة قانون وحريات مدنية واحترام حقوق الإنسان واقتصاد السوق، كل ذلك يتحقق، مع أنه أكثر تعقيدا وأكثر بطءًا بكثير مما كان متوقعا». وتابع «يمكن التململ بالطبع، لكن أحدا لا يستطيع القول إننا تخلينا عن مثلنا العليا. ارتكبنا الأخطاء بالطبع، لكننا تجنبنا الكثير غيرها أيضا».

■ ■ ■

22

ثورة الورود..
وميخائيل ساكشفيلى



فى ثورة أطلق عليها العالم ثورة الورود، اقتحم المتظاهرون المؤيدون للمعارضة فى جورجيا مبنى البرلمان فى العاصمه تبليسى بعد لحظات من افتتاح الرئيس إدوارد شيفردنادزه أولى جلسات البرلمان المنتخب حديثا.

وتمكن المتظاهرون الذين يرفضون الاعتراف بشرعية البرلمان فى بداية ثورتهم فى شهر نوفبمر ٢٠٠٣، بالسيطرة على المبنى مما اضطر حرس الرئيس إلى إخراجه من البرلمان.

وكان مؤيدو ومعارضو الرئيس قد نظموا مظاهرات متنافسة فى وسط العاصمة.

وقد انتشرت شرطة مكافحة الشغب ودوريات من الجنود للفصل بين المظاهرتين.

وقد بدأت الاحتجاجات فى المدينة قبل ساعات من انطلاق الجلسة البرلمانية الأولى التى تلت فوز الأحزاب الموالية للرئيس شيفرنادزه فى الانتخابات التى اعتبرها المراقبون الدوليون غير نزيهة.

ودعا ميخائيل ساكاشفيلى الزعيم المعارض لشفرنادزه إلى القيام بثورة سلمية للإطاحة بالرئيس.

لكن الرئيس الجورجى حذر من احتمال وقوع حرب أهلية ثانية فى البلاد مثلما حصل قبل عشر سنوات وقال إنه ينبغى أن يترك البرلمان وشأنه، لأن الانتخابات العامة تعرضت لتزوير واسع النطاق.

وقد رفض الرئيس الجورجى مطالب المعارضين بالاستقالة من منصبه.

ولكن شفرنادزه اضطر للاستقالة بعد أن اقتحم عشرات الآلاف من

المواطنين مبنى البرلمان أثناء إلقائه خطابا أمام النواب احتجاجا على نتائج الانتخابات البرلمانية، واضطر حراسه للهرب به خوفا من بطش الجماهير.

وأعلن شيفرنادزه استقالته بعدما طالبه زعيم المعارضة ميخائيل ساكشفيلى بالتنحى خلال المحادثات التى توسط فيها وزير الخارجية الروسى إيجور إيفانوف.

ويمكن القول إن العامل الحاسم الذى قاد لسقوط الرئيس كان سحب الجيش تأييده له.

وتبادل أفراد الأسر وأرباب المعاشات والأطفال الأحضان بعد أن عرفوا خبر استقالة شفرنادزه، ولوح المواطنون بالأعلام.

وقال أحد المحتفلين بالمناسبة «أشعر حقا بالقوة ـ وبالسعادة أيضا».

وقال آخر «لقد فعلنا ما أردنا. هذه هى حريتنا».

وأعلن شيفرنادزه، الذى اضطر لترك مبنى البرلمان بسرعة، حالة الطوارئ وهدد باللجوء للقوة العسكرية لاستعادة النظام.

غير أنه أعلن استقالته لاحقا على شاشات التلفزيون الوطنى، حيث قال «إننى لم أخن شعبى قط وأقول الآن أيضا إنه ربما من الأفضل للرئيس أن يستقيل، حتى ينتهى كل هذا بسلام ودون إراقة دماء ودون وقوع ضحايا».

وكان شيفرنادزه قد تولى زعامة جورجيا عام ١٩٩٢، وقد حاز على الثناء لإنهائه حالة الفوضى التى كانت تهدد البلاد التى استقلت حديثا عقب تفكك الاتحاد السوفيتى.

غير أن الزعيم الذى حاز فى يوم ما على حب وإعجاب الجماهير أصبح الكثير من الجورجيين ينظرون إليه على أنه زعيم فاشل سمح للفساد والفقر أن يستشريا فى ظل حكمه.

وبعد تنحى شيفاردنازه، دعت الرئيسة المؤقتة لجورجيا نينو بورجانادزه مواطنيها إلى الهدوء والعودة إلى أعمالهم بعد أن تمت عملية نقل السلطة بشكل سلمى.

وافتخرت بورجانادزه، التى كانت رئيسة البرلمان السابق، فى أول خطاب تلفزيونى لها بعد استقالة الرئيس السابق إدوارد شفرنادزه، بنجاح الشعب الجورجى فى التغلب على أسوأ أزمة فى تاريخه الحديث دون إراقة قطرة واحدة من الدماء.

وامتدحت بورجانادزه قوات الجيش والشرطة التى لم تتدخل لقمع المتظاهرين، واصفة موقفهم بأنه «وقوف إلى جانب الشعب خلال أصعب أيامه».

وامتدحت أيضا روسيا التى رفضت التدخل لحماية شفرنادزه، قائلة إن على جورجيا تقوية روابطها مع جيرانها، خاصة «دولة روسيا العظيمة».

وأكدت أنه تم نقل صلاحيات رئيس الجمهورية إليها طبقا لنصوص الدستور الجورجى حتى تقام انتخابات خلال فترة ٤٥ يوما.

كما أكدت أن الانتخابات النيابية التى عقدت فى الثانى من نوفمبر، والتى تؤكد المعارضة أن شفرنادزه ومساعديه قاموا بتزويرها، لن يعتد بها، وسوف يستمر البرلمان القديم فى ممارسة مهامه.

ويمكن أن يلاحظ المرء أن الورود التى كانت سمة الثورة الجورجية امتد تأثيرها إلى الانتخابات الرئاسية التالية.

فقد ارتفعت مبيعات سوق الزهور بالعاصمة الجورجية تبليسى حيث يفضل الجميع شراء الورود الحمراء.

وأوضح بائع الورود الجورجى فاختان كوسيتشفيلى إنه يبيع الزهور منذ ستة أعوام، لكنه أصبح يبيع رموزا لا ورودا خلال الأسابيع القليلة الماضية.

وقال «لقد أصبحت الورود الحمراء هى أكثر الزهور خصوصية الآن لأنها باتت رمزا للعدل والنصر».

وقد واجه المتظاهرون رجال الشرطة بالورود، وكان الطلاب الذين شاركوا فى المظاهرات أول من قدم للجنود الورود الحمراء، ومن ثم أبعد العديد من الجنود أسلحتهم.

وقال الطالب جورجى كانديلاكى البالغ من العمر ٢١ عاما «كان المواطنون يُقبِّلون رجال الشرطة وأفراد الجيش... ولأن المتظاهرين كانوا يحملون ورودا، كما دخل ميشا هو الآخر إلى قاعة البرلمان وهو يحمل الورود، فإن المواطنين أطلقوا على تلك الثورة ثورة الورود».

وكان زعيم المعارضة ساكاشفيلى يمسك وقتها بوردة حمراء ذات ساق طويلة ويصيح قائلا «استقل». ولوح بالوردة فى وجه الرئيس الجورجى السابق البالغ من العمر ٧٥ عاما، فسارع حراس شيفرنادزه بإخراجه من القاعة عن طريق باب جانبى.

وكانت هذه اللحظة الحاسمة التى تغير فيها النظام الجورجى الحاكم، وسرعان ما تحولت المظاهرات إلى احتفالات لم تشهدها البلاد من قبل.

ويقول بائعو الزهور فى جورجيا إن الوردة الحمراء ذات الساق الطويلة والتى يطلق المواطنون اسم «الزهرة الجورجية» تغير اسمها إلى «زهرة ساكاشفيلى».

وتوجد باقات من زهور «ساكاشفيلى» فى كل مكتب حكومى تقريبا.

ويجب أن يعى العاملون بتلك المكاتب جيدا أن لكل وردة شوكا، فأمامهم مهمة شاقة للخروج بالبلاد من حالة الفقر المتفشى والقضاء على البطالة.

■ ■ ■

23

الثورة البرتقالية..

وفيكتور يوشينكو



اندلعت هذه الثـورة فى أوكـرانيـا منذ حـوالى ست سنوات، نهـاية العـام ٢٠٠٤، نتـيـجـة لانتخـابات رئاسية، ثورة سميت بالبرتقالية.

بدأت هذه الثورة فى الدور الثانى من الانتخابات الرئاسية عندما أُعلن عن فوز رئيس الوزراء - آنذاك - وزعيم المعارضة حاليا فيكتور يانوكوفيتش، إلا أن منافسه الرئيسى، زعيم المعارضة - آنذاك - فيكتور يوشينكو لم يعترف بهذا الفوز، وهنا تحول «ميدان» الاستقلال فى العاصمة كيف إلى حاضنة لعشرات الآلاف من المواطنين الذين خرجوا لتأييد يوشنكو ليتحول احتجاجهم إلى عصيان مدنى شل مؤسسات الدولة.

كانت الثورة البرتقالية فى أوكرانيا (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥) سلسلة من المظاهرات والأحداث السياسية التى وقعت على امتدادا البلاد كرد فعل لمزاعم الفساد الجماعى وتخويف الناخبين والتزوير الانتخابى المباشر أثناء الانتخابات الرئاسية الأوكرانية ٢٠٠٤م.

وقد تم نقل المظاهرات فى تقارير من قبل العديد من الملاحظين المحليين والأجانب والإدراك الجماهيرى واسع النطاق بأن نتائج الدورة الانتخابية الحاسمة فى الحادى والعشرين من نوفمبر ٢٠٠٤ بين المرشحين البارزين فيكتور يوشينكو وفيكتور يانوكوفيتش تم التلاعب فيها لصالح يانوكوفيتش.

وتم تفويض القانون الأوكرانى فى الدورة الحاسمة وفقا للنتائج الرسمية للتصويت الانتخابى الذى أقيم فى الحادى والثلاثين من أكتوبر ٢٠٠٤ والذى لم يحصل فيه أى مرشح على أكثر من ٥٠٪ من الأصوات فى صناديق الاقتراع. وقد كان من المقرر أن يصبح الفائز فى الدورة الحاسمة الرئيس

الثالث لأوكرانيا منذ استقلالها عام ١٩٩١ بعد انهيار الاتحاد السوفيتى.

آنذاك كانت مشاعر الناس متعطشة إلى التحولات والتجديد ولكل ما هو أفضل. فقد توقع الناس أن ينتج عن الانتخابات تغيير فى النظام القضائى وأن يتم القضاء على الفساد وأن تقوم الشرطة بتحسين معاملتها للناس، ويجرى انحسار للبيروقراطية وتزول العقبات أمام ممارسة الأعمال الحرة.

وجرت أثناء الاحتجاجات محاولة تسميم فيكتور يوشينكو التى لم تثبت قضائيا، ولكنه استطاع استغلال ذلك الحدث لتجنيد الناخبين فاشتعلت الثورة البرتقالية وطغى فى ميدان الاستقلال فى العاصمة كييف اللون البرتقالى.

هزت المشاركة الواسعة للجماهير والمواطنين ليس فقط أوكرانيا، بل الفضاء السوفيتى والعالم كله.

وقد أصبح الوشاح البرتقالى رمزا للثورة البرتقالية الأوكرانية. والأوشحة هى رموز شائعة للمظاهرات غير العنيفة. وقد تبنى المتظاهرون اللون البرتقالى باعتباره اللون الرسمى للحركة منذ أن كان لون الحملة الانتخابية للمرشح المعارض الرئيسى، فيكتور يوشينكو.

وقد كان رمز التضامن فى حركة يوشينكو فى أوكرانيا الوشاح البرتقالى أو عَلَمًا يحمل شعار (نعم! يوشينكو!).

وقد كان الملايين من الأوكرانيين يتظاهرون يوميا فى كييف التى كانت مركز الثورة حيث أقام مؤيدو يوشينكو خيمة كبيرة فى المدينة لمدة ٢٤ ساعة، وقد تم تسليط الضوء على ذلك بسلسلة من المظاهرات قومية النطاق والاعتصامات والإضرابات العامة التى كانت تنظمها المعارضة.

وقد جاء ذلك عقب النتائج المتنازع عليها فى الدورة الحاسمة لانتخابات الحادى والعشرين من نوفمبر.

ووفقا لجهود المعارضة فى جانب كبير، تم إلغاء نتائج الدورة الحاسمة

الأصلية وقد أمرت المحكمة فى أوكرانيا بإقامة دورة ثانية حاسمة فى السادس والعشرين من ديسمبر ٢٠٠٤م. وبسبب التدقيق الدولى المكثف، أثبتت النتائج الرسمية للدورة الثانية الحاسمة أنها حرة وقانونية ولصالح يوشينكو بصورة واضحة.

وقد تم إعلانه الفائز الرسمى وتم تنصيبه فى المكتب باعتباره الرئيس الثالث لأوكرانيا فى الثالث والعشرين من يناير ٢٠٠٥م. وقد حققت الثورة البرتقالية انتصارها الناجح والسلمى.

وانتشر فى وسائل الإعلام العالمية مصطلح «الثورة البرتقالية» التى تمسك بها المواطنون الأوكرانيون تعبيرا عن مثلهم السامية.

إلا أن الكثيرين من المحللين والسياسيين الذين تابعوا تطور تلك الأحداث، ومنهم آنا غيرمان، نائبة رئيس حزب الأقاليم فيكتور يانوكوفيتش، اعتبروا أن ما حدث هو تزوير للانتخابات وأن الثورة البرتقالية استغلت الناس ـ الذين كانوا يسعون للحصول على حقوق أوسع ـ كأدوات فى لعبة الوصول إلى السلطة.

ولنرى ماذا حققت الثورة من إنجازات وتغييرات ؟ أولا يجب الاعتراف أن أوكرانيا أصبحت بفضلها أمة واعية سياسيا، وأن الشعب الأوكرانى أصبح يشعر بأنه يعيش فى دولة مستقلة ذات سلطة مستقلة وأصبح هناك المزيد من حرية التعبير.

كذلك فهم العالم أن أوكرانيا مستقلة عن روسيا وأنها ليست روسيا. والانتخابات المتعددة التى جرت بعد ذلك أثبتت بوضوح ترسخ الممارسة الديمقراطية فى البلاد وأصبحت حرية التعبير أمرا اعتياديا وليس استثنائيا.

ومن نتائج الثورة البرتقالية أيضا، وحسب آخر استطلاعات للرأى العام جرت فى روسيا، أن روسيا وأوكرانيا تحولتا من صديقين حميمين إلى

خصمين محتملين.

وكما يقول أندريه باروى، عضو المجلس التنفيذى فى تكتل «أوكرانيا لنا»: من أكبر الهفوات فى أداء السلطة فى أوكرانيا هو فشل سياسة الكادر، فقد واجه الرئيس الأوكرانى يوشينكو معضلة تحقّيق التوازن بين فروع السلطة واضطر قبل انتخابات الإعادة، وتحت الضغط، إلى الموافقة على إجراء تعديلات دستورية نقل بموجبها بعض صلاحيات الرئيس إلى البرلمان، خاصة ما يتعلق منها بتشكيل الحكومة فأصبحت أوكرانيا جراء ذلك دولة برلمانية ـ رئاسية أنتجت أرضية لمواجهات مستمرة بين الرئيس والبرلمان والحكومة.

وخلال طيلة السنوات الماضية، التى أعقبت الثورة البرتقالية كانت أوكرانيا رهينة لمواجهات سياسية مستمرة.

وخلال فترة حكم «البرتقاليين» انخفض إجمالى الناتج القومى الداخلى بنسبة خمسة عشر بالمئة وتضاعف عدد المواطنين الذين يعيشون تحت خط الفقر، وتضاعفت أسعار المواد الغذائية مرات عديدة. ومن حيث الفساد تأتى أوكرانيا فى مقدمة دول العالم بعد الصومال.

لقد أثبتت الثورة البرتقالية اليوم أنها كابوس مؤرق قد زال، وخيبة أمل ممن وَعدوا ولم يَفوا بالوعد، ومبعث أسف على آمال لم تتحقق.

■ ■ ■

فهرس المحتويات